الطبعة الثانية

رواية

الكداب

صالح مرسي



رواية

صالح مرسي

الكداب



العنوان:
الكـــذّاب

تأليف:
صالح مرسي

إشراف عام:
داليا محمد إبراهيم

جميـع الحقـوق محفـوظـة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظـــر طبـــع أو نشـــر أو تصـويـــر أو تخـزيـن
أي جـزء مـن هـذا الكتـاب بأيـة وسيلـة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصويـــر أو خـلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريـح من الناشـر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-5104-4
رقـم الإيـداع: 13799 / 2014
الطبعة الثانيـة: ينايـــر 2015

تليفـون: 33466434 - 33472864 02
فاكـــس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

الكداب

إلى تلك السنوات التي زخرت

بالأمل.. وخيبة الأمل.. في الستينيات

صـــالـح مـرســـي

■■■

أيها السادة.. لا تصدقوني. أنا كذاب..

بلا محاكمات ولا قضاة ولا حتى اتهام يوجه إليَّ... أنا أسلم لكم نفسي، وأعترف بالتهمة... فأنا كذاب..

كذبت على الناس، وعلى نفسي... وعندما وجدت الخلاص، رحت أكذب دون أن أدري...

لكـن صدقوني - قبل أن تضعـوا القيد في يدي، وقبل أن تلقـوا بي في غياهب التهم السوداء - لقد كنت أبحث أثناء كذبي عن الصدق...

أرى منكـم مـن يضحك، ومنكـم من يبتسـم، ومنكم من يقـول إني مجنـون، ومنكم من رفع حاجبيه دهشـة، واعتدل في جلسـته، وراح يدمدم بصوت رزين: «ماذا تريد أن تقول؟!».

أريد أن أقول إني كذاب... وهذه هي حيثيات الحكم.

■■■

- 1 -

بدا لي ميدان السيدة زينب في ذلك الوقت المبكر، وكأنه حلم لا حقيقة. وقـد يكون الأمر كذلـك فعلًا؛ لأني كنت أغادر الدرجـة الثانية في أتوبيس رقم 12 وعيناي نصف مغمضتين، دون أن تفلح رطوبة الصباح التي كانت تغسـل وجهـي برفق في أن تزيل عن رأسـي ذلـك الثقل النائـم الذي كنت أشعر به منذ أن استيقظت.

فمنذ سنوات طويلة لم أر الصباح إلا وأنا ذاهب إلى الفراش، وقد أكون قـد قضيـت الليل في عمل، وقـد أكون قضيته في لهو، الأمر سـيّان... لكن المقطـوع به أن اسـتيقاظي في الخامسـة والنصف صباحًـا كان يعتبر حدثًا جلـلًا وتغييرًا عظيمًـا في حياتي، أنـا الصحفي والأديب الـذي يقرأ الناس عصارة مخه وتفكيره على صفحات الورق.

كنا في شـهر أغسـطس، وشـمس أغسـطس حامية في القاهرة حتى في عـز الليل، فهي منـذ الصباح تلهب المدينة بنارها حتى المسـاء، ولا تغرب إلا بعـد أن تحيـل كل شـيء إلى وهـج نادرًا مـا يفلح جو الليل فـي ترطيبه أو تبريـده... مـا علينـا، فقد وقفت وسـط الميدان أتنسـم الهـواء وأحاول

الاستيقاظ، ومن خلال جفوني نصف المغلقة، كنت أرى الحياة تدب بقوة وكأنها استيقظت منذ ساعات طويلة... باعة البليلة والفول تناثرت عرباتهم هنـا وهناك، ومحلات الكشري والحليب فتحت أبوابهـا على مصاريعها. الفتيات يبدون وكأنهن سـقطن توًّا من فروع أشـجار خضـراء مورقة، على الوجوه ندى رطب سمح، وفي العيون سهوم مليء بالرضا، وعربات الترام تزعـق، وأبـواق الأوتوبيسـات تعزف مـع هديـر موتوراتها لحنًـا صاخبًا.. أصـوات النـاس وتحياتهم تسـبح في جو المـكان بألفة وكأنهـا تعودت أن تفعل ذلك منذ آلاف السنين.

على الفور أحسست أني غريب، أو سائح هبط أرضًا جديدة عليه وراح يتفرج.

في نفسي شيء من الرهبة، وفي رأسـي ألف فكرة وفكرة، وأمامي عبر الساعات القادمة ألف احتمال واحتمال... ترى... هل أستطيع؟!

سؤال كان يسـيطر على الجزء الغالب من تفكيري.. دبيب الحياة يزداد فـي الطريـق لحظـة بعد لحظـة... علـى الجانبين عمـارات بعضها شـاهق وبعضهـا ضئيـل، بعضهـا جديد وبعضها مهدم قديم... في وسـط الشـارع تمتـد قضبـان الترام وعلى جانبيـه حديقة خضراء كالحـة اللون، من حولي وأمامي تجري سـيارات الأتوبيـس، ودرب الجماميز يقترب كلما خطوت خطـوة... على يميني شـادر أخشـاب هـو العلامة التي يجـب أن أدور من خلفها لأخترق خرابة توصل إلى زقاق لسـت أعرف اسمه، فإذا انثنيت إلى اليسار، أصبحت في الطرف البعيد للدرب الموعود.

هكذا علمت الطريق بالأمس...

وبالأمس كان الحال غير الحال، كنت أرتدي ملابسي وأركب سيارة صديق وأرتجف انفعالًا بالتجربة المثيرة... بالأمس فقط بلغ بي الإعياء حدًّا جعلني أقدم على ما كنت مقدمًا عليه، كان رأسي مليئًا بالخطب الرنانة، عن الشعب والناس والكفاح والعرق و .... و ... وحقيقة كنت حائرًا، في داخلي إحساس مركب من ملايين الانفعالات، غير أني لا أعرف له طعمًا أو هدفًا .... هل هو حق أم باطل؟... هل أنا صادق أم كاذب؟

في الليالي الطوال، ووجوه الأصدقاء محمرة بالشراب، وأصواتنا تعلو على بعضها البعض حديثًا صاخبًا عن الشعب والناس... إحساس عميق بالضياع يمسك بتلابيبي، نحن مذنبون... نحن أبناء جيل تعس... كل ما حولنا - يا جماعة - يطحننا بلا رحمة ... ماذا نفعل؟... علينا أن نكتب بصدق ... علينا أن ... أن ... وأ..

إحساس عميق بالغثيان يفور في أعماقي ليطفو على السطح صمتًا أو جعيرًا يتبدد في الهواء، فهو والصمت سواء..

أحدنا يصرخ في انفعال الأستاذ العالم ببواطن الأمور: «انزلوا للشعب... اكتبوا عن الناس!»... وما رأيته يومًا إلا غارقًا في الورق أو الجعير: هذا صح وهذا خطأ... حتى كانت ليلة... ليلة لن أنساها ما حييت، ليلة كادت أن تكون نقطة تحول في حياتي... كانت أبخرة القلق والحيرة قد تراكمت في صدري وازداد تضاغطها وفورانها، ليلة تداخلت

فيها المرئيات والأشياء والحقائق جميعًا فرحت أتخبط بحثًا عن مخرج، نهضت ليلتها واقفًا وأنا أصرخ في الصحاب:

«عايز اشتغل ... عايز اشتغل!».

كنا نجلس في بار من تلك البارات التي تزدحم بها شوارع وسط القاهرة... حيطانه عالية كسور سجن قديم، لونها أصفر باهت، رُصع فضاؤها بعديد من الإعلانات الساذجة عن أنواع خمور تهري الكبد...

أمامنا زجاجات بيرة وصل ثمنها إلى أقصى ما كنا نملك نحن الخمسة... كنا خمسة؟! ... لا ... أربعة فقط... عادل وصابر ومحمود وأنا...

وقفت ليلتها وقد بلغ تأثير البيرة عليّ أقصاه، وضعت يدي في جيبي سروالي، وفردت قامتي النحيلة، ولا بد أني بدوت في تلك اللحظة كعود قصب بزعزوعته، فأنا - أيها السادة - طويل نحيل، رأسي صغير، وعيناي ضيقتان، وأنفي طويل، أنف يمتد من بين العينين الضيقتين في استقامة تصل حتى خط التقاء الشفتين.. أما ساقاي فطويلتان قليلًا، ومقاس حذائي 43، مما يؤكد أن قدمي كبيرتان بالتالي... باختصار - أيها السادة - أنا مخلوق لست دميمًا جدًا، لكني أيضًا لست جميلًا بحال من الأحوال!!

المهم أني ما كدت أقف ليلتها في ذلك البار وأنطق بجملتي هذه، حتى راح أصدقائي الثلاثة ينظرون إليّ بدهشة، عيونهم محمرة ووجوههم إما غاضبة أو لا مبالية، نظرت حولي فإذا الناس في البار الصغير غارقون فيما يغرقون فيه كل ليلة... فهذه الوجوه هي نفس الوجوه التي نراها كلما ذهبنا إلى ذلك البار... بل إن فيه من نعرفه جيدًا ونعرف مشاكله لكثرة سماعنا

لهـا... كان فيهـم مـن يسـلينا مثل عبـد الغني البـواب، ومنهم مـن يثير في نفوسنا الشـفقة كمرزوق أفندي المحال إلى المعاش منذ سنوات ثلاث... و... وباختصـار مـرة أخـرى، لـم نكن غربـاء عـن المـكان أو رواده، ولـم يكـن المـكان أو رواده غرباء علينا، لذلك كنت أسـتطيع أن أفعل ما أشـاء، وأتصـرف كيفما أريد... فالنـاس هنالك يعرفون أننا فنانـون، وأننا نمارس الكتابـة فـي المجـلات والصحـف، وأننا نكتـب قصصًا... النـاس هنالك يعرفون ذلك، ولكن ليس معنى هذا أنهم يقرءون لنا أو يتتبعون شـيئًا سوى شـجارنا وزعيقنا، بل معناه أنهم لا بد أن ينظـروا إلينا على أننا صنف معين مـن الناس، صنـف غير عادي، له الحـق في أن يفعـل في بعض الأحيان ما لا يمكـن أن يفعله العاقلون... ولقد انحنيت يومها إلى الأمام وأنا أرد على نظرات الدهشة في عيون أصدقائي بنصف همس مضطرب:

«إيـه رأيكـم فـي الفكـرة دي؟... باقـول عايـز أشـتغل، عايـز اعمـل حاجة!!».

تململ عادل في جلسته، ومط شفته السفلى وهو يقول في عناد طبيعي:

«وإيه اللي موقفك كده، ما تقعد!».

وسألني محمود وكأنه يصحو من النوم لتوه:

«عايز تشتغل إيه؟... ما انت بتشتغل!... إنت باين عليك سكرت!».

وأنـا أنبهكم هنا - أيها السـادة - حتى لا يختلـط عليكم الأمر منذ الآن أنبهكـم إلـى أننـا - نحن الأربعـة - نادرًا مـا نتفق على شـيء أو رأي اتفاقًا حاسـمًا... فـكل منا يعيش فـي واديه بعيـدًا تمامًا عن الآخرين، لكن شـيئًا

مجهولًا كان يربطنا بعضنا بالبعض، شيئًا أقسم وأؤكد لكم أن أحدنا لا يعرفه ولا يدريه... فلا الأدب جمعنا كأدباء، ولا المهنة جمعتنا كصحفيين... بل إني أتطرف في القول وأتحمل المسئولية أمامكم...

فليس في أحدنا صفة واحدة موجودة في واحد من الآخرين... ولقد حيرني الأمر كثيرًا، غير أني متأكد تمامًا أننا جميعًا كنا مشتركين في هذه الحيرة وإن لم نتصارح بها، أو يجرؤ أحدنا - رغم جرأتنا التقليدية في النقد! - على الإفصاح عنها!!

هو نوع من الحب غريب، ينمو في النفس نتيجة لشيء غامض، ثم يصبح الأمر في النهاية واقعًا لا مفر منه.

ما علينا...

واعذروني لو شططت بكم في الحديث، فقد حدث ليلتها أن راح عادل يردد وهو ينظر إلى قامتي المحنية إلى الأمام، ويحملق في عيني الحمراوين بعينين أشد منهما احمرارًا:

«ما تقعد وتقول لنا انت عاوز إيه؟.. عاوز تقول ايه؟.. إيه!».

وتململ صابر في جلسته، وامتدت يده برزانة وتؤدة نحو كوبه، ثم أقامها على شفتيه، وأعادها إلى مكانها من المائدة قائلًا:

«يا لّا بينا يا جماعة!».

قفز محمود في مكانه ملبيًا رغبة صابر، لكنه لم ينهض، بل قال وهو يشير نحوي:

«مش لما نشوف الأول هو عايز يقول إيه؟!».

وقال عادل وأنا أعود إلى مقعدي من جديد:

«طيب نشرب كمان قزازة!».

ووضع صابر يده فوق فوهة كوبه قائلًا:

«أنا استكفيت!».

وقال محمود:

«وانا كمان...».

وأصر عادل على موقفه:

«وما له... نشرب كمان علشان نعرف نتكلم... دهدي!».

قلت مستنجدًا:

«إيه رأيكم في الفكرة!!».

قال صابر:

«أنا باقول......».

وهتف محمود مقاطعًا:

«عبد الغني البواب وصل...».

وابتسم عادل معلقًا:

«امبارح كان مطينها خالص... تعرفوا انه متجوز تلاتة!».

فز صابر في مكانه دهشًا:

«تلاته؟... يا خبر! ...».

وقال محمود وهو يتطلع ناحية عبد الغني:

«مرزوق افندي طلب له كاس!».

«وهو الجواز من تلاته وحش!».

«إيه رأيكم في الفكرة؟».

«يا سلام... دول صحاب قوي النهاردة!».

«برضه يا شيخ تلاته كتير!».

«يا لّا بينا يا......».

«مخالي.. قزازة بيرة!».

«إيه رأيكم في الفكرة؟!».

«أنا ما معييش فلوس!».

«طب وازاي معيشهم يا ولة... كل واحدة في بيت؟!».

«يا جماعة......».

«لازم معيشهم مع بعض. جدعنة. أمال اللي متجوز أربعة ومرا......».

«البيرة يا بهوات!».

«أنا ما معييش فلوس».

«ما تحطليش أنا... أنا استكفيت!».

«مش مهم الفلوس... ناخذ على الطباشيرة!».

«يا سلام يا ولاد... طب وديني الواحد...».

«آهم بدءوا يتخانقوا... مرزوق افندي...».

«يا جماعة... إيه رأيكم في الفكرة؟!».

«فكرة إيه يا جدع انت؟!».

و... وسواء أطال بنا الوقت أم قصر، فقد ناقشنا الفكرة في النهاية... وصاح أحدهم - صدقوني - لست أذكر الآن من هو:

«ما انت بتشتغل... مش حاتبطل شغل الجنان بتاعك ده؟!».

«مش ده قصدي!!».

«أمال عاوز تقول ايه؟».

والحقيقة أني لم أكن أدري ما الذي كنت أريد قوله فعلًا... كل ما هناك أن الفكرة هبطت على رأسي فجأة وبلا مقدمات أو أية تفاصيل حتى ولو كانت صغيرة... ومن أشد عيوبي - أيها السادة - أني أؤمن بأية فكرة تطرأ لي بهذه الطريقة، هو شيء لا تفسير له عندي، هو إيمان مطلق غيبي بهذا الإحساس... غير أني، من خلال المناقشات بيني وبين غيري، ومن خلال التجربة نفسها، أستطيع أن أعثر على التفاصيل المطلوبة... لذلك، فقبل أن أسمع منهم هذا السؤال: «عاوز تقول ايه؟!»... لم أكن قد خطوت ولو شعرة عن المكان الذي احتلته الفكرة في ذهني... كنت طوال تلك

الدقائق أتملى في وجوههم، وأتتبع أحاديثهم، فأشعر وكأني كرة يتقاذفونها فيمـا بينهـم، كنت أتبعهـم جميعًا، عادل بعينيـه البراقتين وحديثـه المتدفق المتحمـس، وصابـر بوجهه الصغيـر وصوته العجـوز النبـرات، ومحمود بمتابعتـه لمـا يجري بين اثنين من السـكارى بعيـن، ومتابعتنـا نحن بالعين الأخـرى... ولولا أنهم جميعًـا صمتوا فجأة - وكان كل منهم قد انتهى من حديثه - عندما ألقى هذا السـؤال: «عاوز تقول ايه؟!»، لما وجدت نفسـي مأخوذًا على غرة، مضطرًّا إلى الإجابة، ليس أمامهم فقط، ولكن أمام نفسي أيضًا.

«أنا حاشتغل قهوجي!».

هكذا قلتها... وهكذا خرجت من فمي دون وعي أو تدبير سابق...

ولسـت في حاجة لأن أذكركم بطبيعة الحال أننا اختلفنا... وأن أصواتنا علت فملأت البار حتى نسي مرزوق أفندي وعبد الغني البواب خلافاتهما التقليديـة وراحا يتابعـان نقاشـنا، وأن حديثنا احتدم مما دفع أحدنا وسـط طوفان الكلمات الملتهبـة بالحماس أن يطلب زجاجتين أخريين من البيرة دون أن يكـون مـع أحدنا ثمن حتى واحـدة منهما... وأننـا جميعًا تجاهلنا هـذه الحقيقة، فالمناقشـة أثمن، والفائـدة هنا أعم، حتى ولـو قلنا للرجل: «الحساب بعدين!»... المهم أني في نهاية الليلة، ونحن نغادر البار سائرين فـي الشـارع الطويل الخالي، وسـط ظلال الليـل الدامسـة، والحديث بيننا ما زال دائرًا، وجدت الفكرة قد اختمرت في ذهني بكل تفاصيلها....

■■■

فما المانع لو عملت جرسونًا لفترة من الفترات؟... ولتكن أسبوعًا... أن أجرب كيف يعيش الكادحون من أبناء الشعب... سوف يكون موضوعًا مهمًّا للمجلة التي أعمل بها، سأقدم فيه شخصيات ونماذج – أوريجينال – من أبناء الشعب... صدقوني هكذا كنت أفكر، غير أني كنت أفكر أيضًا – وهذا هو الوجه الآخر – في مدى الإثارة التي سيكون عليها هذا الموضوع، كيف سيتحدث الناس عنه، كيف سيرسل القراء خطاباتهم إلى المجلة... إنها خطوة أخرى – على أية حال – نقدم فيها للعاملين في الصحافة أمثلة وأشكالًا جديدة للعمل الذي نمتهنه!!

لكني في اليوم التالي لم أصنع شيئًا، وفي السهرة التالية لم نفتح الموضوع وشربنا زجاجات بيرة وصل ثمنها إلى أقصى ما نملك نحن الأربعة، ثم طلبنا زجاجتين أخريين إثر مناقشة حامية دارت حول موضوع هام آخر، وأجلنا الحساب برمته إلى أول الشهر!!

غير أن الفكرة التي نبتت في تلك الليلة على سطح تفكيري المضطرب، كانت تنمو وتزهزه وتثمر، في ذهني مئات الصور لعشرات الأشياء الجميلة، ووجدتني ذات صباح أدخل على رئيس التحرير، أقف أمامه وأحاول النفاذ من سطح زجاجتي نظارته الطبية إلى حيث تكمن عيناه الساهمتان اللامباليتان.

«حاشتغل قهوجي!».

ابتسم ولم يرد...

«إيه رأيك في الفكرة دي؟».

القلـم في يده، والـورق أمامه مسـطور بكلمات وكلمـات، عقله بعيد، وعيناه ساهمتان وراء ما يفكر فيه ، وابتسامته لا تعني شيئًا على الإطلاق... لكنه بدا كمن انتبه فجأة لوجودي، فقد خلع نظارته وقال في اقتضاب:

«إزيك !».

«ما قلتليش إيه رأيك في الفكرة؟».

راح يعبث بعينيه وأصابعه في الورق المتناثر أمامه، ثم ما لبث أن التقط عدة ورقات مد بها ذراعه نحوي وهو يقول بنفس الابتسامة:

«خد اقرأ القصة دي وقول رأيك فيها!!».

لحظتهـا هويـت من قمـة الإثـارة والخيـال، لترتطـم أفـكاري العديدة وحماسـي العظيم بأرض الواقع، أحسسـت بالبرودة تسـري في كل شيء، برودة سـرت أول ما سـرت إلى الفكرة ذاتها، فلا بد أنها سخيفة، ولا بد أنه سيقول لي: طيب، بغير اقتناع... ذلك أن من عيوبي الأخرى - أيها السادة - أني أفكر -إذا ما فكرت- في كل المقدمات، وأصل إلى النتيجة في النهاية، وأقتنع بها... ثم لا أحاول أن أعيد الكرة إذا ما عرضت الفكرة على الناس، أنا أفاجئهم بالنتيجة فورًا ودون مقدمات وكأنهم كانوا يفكرون معي!

هذا ما حدث بالضبط في ذلك اليوم...

فلم يكن مرور الأيام وانشـغالي بالأحاديث مع أصدقائي وشرب البيرة والسـهر كل ليلة، ليبعدني عن تلك الفكرة الغريبة التي كانت قد انغرسـت فـي ذهنـي وضربـت جذورها فـي أعمـاق تفكيري... أكثر مـا كان يعذبني

أنـي أريد أن أصنع شـيئًا ذا قيمة، أكثر ما يميتنـي ويقضي علي بالضمور أن أحـس فـي صدري ذلك الخـواء القاتل الـذي يتنابني بين الحيـن والحين، مضت ليال طويلة كنت أفكر فيها كيف أعمل جرسـونًا، وبأي شكل، وماذا سأفعل، والنتيجة التي سأصل إليها إذا ما سارت الأمور في طريقها الطبيعي واستطعت أن أعايش الناس بعذاباتهم وقلقهم وفقرهم وحزنهم وحياتهم... كنت أطل على التجربة من مسـكني الكائن بالدور العاشر فكأني أطل على عالـم خرافي ملـيء بالأشـياء الغريبة...مع الأيام، امتلأ ذهنـي بالتفاصيل، ودخلـت على رئيس التحرير في ذلك الصباح بعد ليلة سـهلة طويلة، كنت متحمسًـا يغلي في صدري ذلك الإحساس اللذيذ بأن في الأفق شيئًا يمكن أن أصنعه...لذلك سرت البرودة في كل شيء عندما قدم لي القصة وطلب منـي أن أقرأهـا وأدلي برأيـي فيها...امتدت يدي لتأخذ منـه القصة بنصف وعي، وتراجعت بجسـدي في المقعد الطويل أمام مكتبه، رحت للحظات أردد النظر بينه وبين الأوراق التي كنت أمسـك بها وفي أعلاها عنوان هو: السـمكة الغائبة...كدت أفتح فمي وأسـأله عن رأيه في «الفكرة» أولًا، لكن ابتسـامته التي اتسـعت فجأة، وصوته الذي كان يـردد: «اقرأ القصة دلوقت على طول أحسن صاحبها جاي ولازم اقول له رأيي فيها!»...ابتسامته هذه وجملته هذه استوقفتاني فابتلعت السؤال ورحت أقرأ القصة!

■■■

ولسـت أذكـر - أيهـا السـادة - موضـوع القصـة، بـل إنـي لا أذكر هل أعجبتني أم لم تعجبني، وعلى كل فهذا لن يفيدنا في شيء... فالذي أذكره الآن جيـدًا، أني قـرأت القصة وقلت له رأيي فيهـا، وأن رئيس التحرير كان

قـد قرأها هـو الآخر، لكنـه أراد أن يتأكد من حكمه عليهـا، فقضية الصدق تشـغله... وأذكـر أيضًـا أن صاحـب القصة جـاء، وأنه جلـس قرابة نصف السـاعة يتحـدث مع رئيس التحرير في أشـياء عديدة... كل هـذا وأنا أنتظر اللحظة التي يصدر فيها رئيس التحرير حكمه على «الفكرة»!!

المهم...

خـرج الرجل أخيرًا، والتقت عيناي بعينـي رئيس التحرير، فبادرته قائلًا بسرعة:

«إيه رأيك في الفكرة؟!».

قطب ما بين حاجبيه، وجمد ابتسامته على شفتيه وهو يقول:

«فكرة إيه؟!».

ومن عيوبي الأخرى - أيها السادة - أني لا أستطيع الانتظار حتى يحين الوقت المناسب لعرض فكرة أو إبداء رأي في مشكلة، فكل الأوقات تبدو لي مناسبة، وعلى كل فقد قلت له في ذلك اليوم:

«حاشتغل قهوجي!».

وأطلـق الرجل ضحكة غريبة، مجـرد غمزة صوتية لا هي جادة ولا هي ساخرة، لنغمتها ألف معنى ومعنى، ثم اضطجع في مقعده وهو يقبض على قلمه بكل يده قائلًا:

«وحاتبدأ إمتى؟!».

بعد ثوان خرجت من مكتبه... وما حدث أثناء هذه الثواني كلام عادي، اقتراحات أطلقها هو في بعض الأحيان بحماس شديد، وفي أحيان أخرى بتعقل أشد من الحماس، وهو في كلتا الحالتين يعبث بالقلم في الهواء، يكتفي أو يضيف أو يوافق بكلمة لا تزيد.

ومضت بعد ذلك أربعة أسابيع..

لم أشتغل قهوجيًّا، ولم أغادر مكتبي، ولم أغير عاداتي، ولم أكف عن السهر والنقاش، ولا عن شرب البيرة... لم يتغير شيء، أبدًا، أبدًا، أبدًا...

في أعماقي شيء يغلي، شيء معذب... وفي حياتي أشياء كثيرة تثير القرف... الصدق أمامي يمتزج بالكذب، فلا أعرف أيهما أؤمن به وأتبعه... والفكرة تذوب في خضم التفاهات اليومية... وجدت الناس حيالها فريقًا من اثنين: إما مهللين، وإما مستسخفين... صاح بي أحد الزملاء في المجلة:

«يا أخي اكبر بقى واقعد على مكتبك واكتب!».

وقال آخر وعيناه تطقان بالفرح:

«يا سلام يا بني... دي حاتبقى قنبلة الموسم!».

لكن لا هذا ولا ذاك، لا هؤلاء ولا أولئك كانوا يفهمون ما أعني... الكل نظر للتجربة على أنها عمل مثير، شيء غير عادي، صحفي وكاتب وأديب يعمل جرسونًا، ابتسامات السخرية تساوت عندي بصيحات الاستحسان، أحسست أني وحدي أعيش في عالم خاص، هل أستطيع حقًّا أن أغوص

من خلال هذه التجربة في أعماق الناس وأن أعيش مشاكلهم وآلامهم؟... هل ...؟ هل...؟

دعونـا - أيهـا السـادة - مـن الخطـب الرنانـة... فهنـاك نتيجـة واحدة أحسستها بشكل واضح وحاسم ولا يقبل النقاش ولا الجدل، هذه النتيجة هي أني إنسان منفصل.

منفصل عن ماذا؟!

لا أعرف بالتحديد... كل ما أعرفه وأحسـه أني منفصل عن شـيء هائل ضخـم أنا مجرد قطعة منه... حنين طاغ يسـتولي علـى كياني كله نحو هذا الشـيء... إحسـاس كالعطش أو كالجوع... لكن آلامه تزيد آلاف المرات عن آلام العطش أو الجوع.

وكلما ازداد إحساسي هذا، اختمرت الفكرة في ذهني أكثر... وبدت لي على البعد مريحة أشـد الراحة، كأني كنت على موعد مع شـيء رائع، كأنها واحة أسعى إليها لتروي عطشي الدائم إلى شيء مجهول... أحببت الفكرة حتى تسـاوى حبي لها مع اقتناعي بها، ثـم زاد الحب وطغى على الاقتناع، فخفـق قلبـي ذات ليلة وأنـا أنهض من فراشـي، جفاني النـوم وخاصمني، فنهضت مسـرعًا، وارتديت ملابسي، وهبطت إلى الشـارع كالمجنون بعد أن انتصف الليل بساعة أو يزيد قليلًا.

- 2 -

فـي أول درب الجماميـز - من ناحية شـارع الخليـج المصري - جامع غريـب فـي بنائه، لـه مئذنة منفصلة عنه، هـو في ناحيـة، والمئذنة في ناحية أخرى... بينهما حارة اسمها حارة السادات.

ولا أحـد من أهـل الحي يعرف اسـم الجامع الحقيقـي، طغى تصميمه الغريـب على أذهان الناس، فأطلقوا عليه اسـم «جامـع بـلا مدنـة، ومدنـة بلا جامع»... وفي المسافة ما بين أول الدرب وهذا الجامع - هذه المسافة لا تزيـد علـى المائـة متر - وجدت نفسـي أقف نصف سـاعة مـع صديقي الدكتور سـمير، وهو صديق لا يعرف الثلاثـة الآخرين إلا عن طريقي، ولا يعرفه أصدقائي الآخرون إلا بالسمع مني... وإن كانوا قد رأوه عدة مرات، وكان هو أيضًا قد رآهـم وجلس معهم عدة مرات!

وصديقـي الـدكتـور سـميـر - أيهـا السـادة - لا علاقة لـه بالصحافة أو الأدب، هـو لا يكتـب القصة ولا الشـعر ولا يعمل صحفيًّـا غير أن لديه عـدا الطب مواهب عديدة، فهو من هذا النوع من الناس الذي يجيد تقصي الأخبار والاسـتماع إليها وروايتها بشـغف شـديد، هو صفحة أخبار متنقلة فـي جريـدة تعتمد على إثارة القارئ بأية وسيلة... فما إن ينتهي سـمير من

عمله في العيادة، حتى يلقي بنفسـه في سـيارته الأنيقة الخضراء ويطير إلى أقـرب صديـق لـه - وغالبًا ما يكون هـذا الصديق هو أنا - ليسـأله عن آخر الأخبار، ويقص عليه آخر أنباء الإشاعات والفضائح.

أكثـر مـا يرضيه في الحياة، أن يسـبق الآخريـن بنبأ جديـد، أو أن يرتفع حاجبـاي دهشـة عندما يلقي إلـي بنبأ مثير... سـاعتها يصبح جـذلًا كطفل صغير:

«أمال بس عاملين لي صحفيين على الفاضي؟!».

صديقـي هـذا - أيها السـادة - طبيـب نابغ فـي مهنته، يكافـح ويدرس ويسعى نحو حياة أفضل له هو نفسه، إذا زاد سعر البنزين قرشًا، راح يصرخ من الغلاء الذي استشرى وأمسك بتلابيب البلد وراح يبحث عن الأسباب الخفية وراء الأزمة الاقتصادية التي سـنقع فيها بعد حين... وإذا ارتفع ثمن السيارات كان هذا دليلًا على أن القيامة ستقوم، وأن اقتصاديات البلد آخذة فـي انهيـار أكيد وأن... و ... وما علينا، فما إن سـمع سـمير بالفكرة عندما عرضتها عليه، حتى ارتجفت عضلات وجهه المكتنز الطفلي وهو يقول:

«دي فكرة ممتازة جدًّا...».

وما كدت أفتح فمي بكلمة، حتى صاح في انفعال:

«دي... دي حاتبقى قنبلة الموسم... تعرف يا بني».

وظل سـمير متحمسًـا أشـد الحماس طيلة الأسـابيع التي مرت منذ أن عرضـت عليـه الفكرة، حتى تلك الليلة، عندما دق جـرس التليفون في بيته بعد منتصف الليل، ووصل إليه صوتي وأنا أقول:

«حالة ولادة عسرة يا دكتور... الحقني أنا في عرضك!».

بعد دقائق كان الدكتور سمير يقف أمامي بقامته المديدة الفارهة وجسده الممتلئ وعلى وجهه ألف علامة للجد والرزانة...

ولقد تعود صديقي على مثل هذه النزوات... ذلك أننا، نحن معشر الفنانين والأدباء، لا نعترف بالزمن، فلا صباح عندنا ولا مساء ولا ليل ولا فجر، إننا - أيها السادة - قوم بلا شك ممتازون عن بقية خلق الله، ننام وقتما نشاء، ونصحو وقتما نشاء، نعيش يومنا والناس نيام والشوارع خالية، ونغط في النوم بينما الحياة تدب على وجه الأرض بكل عزمها... لذلك، فإن أصدقاءنا من غير الفنانين والأدباء يعلمون عنا هذا الشذوذ المستحب الباهر، بل إن صديقي سمير مثلًا، لا يهمه أن يدق التليفون بجوار فراشه في الثانية أو الثالثة صباحًا، ولا يهمه أن يكون قد انتهى لتوه من عمل متواصل بذل فيه قصارى جهده، إنه ما إن يسمع هذه الجملة: «ولادة عسرة يا دكتور!»، حتى يسرع كالمنوّم في ارتداء ملابسه من جديد، يقفز من فراشه في نشاط وكأنه تلقى نداء عاجلًا من مريض في حالة خطرة!!

وما إن وصل سمير ليلتها، حتى بادرته بقولي:

«ياللا بينا ندوَّر على القهوة!».

وبعد ثوان كنا ننطلق بسيارته ونحن نضرب في شوارع القاهرة على غير هدى، كنا نبحث عن مقهى ملائم للقيام بالتجربة فيه.

هل أنا مجنون؟!

ربما...

وسـواء وافقتم أم لـم توافقوا – أيها السادة – فأنا شخصيًّا أرى أن بي مسًّا خفيفًا... إذ كيف يفعل إنسان عاقل ما فعلته أنا في تلك الليلة؟...

كنت أطوف بسمير في أحياء القاهرة الشعبية كلها، من القلعة إلى الحسين إلى شـبرا إلى السـيدة زينب... كنا نطوف بتلك الأحياء والليل يمضي بنا، وأغلب المقاهي والمحلات بدأت تغلق أبوابها، ولـم أجد نفســي في واحد من تلك المقاهي العديدة التي شـاهدناها، لكنها كانت جميعها عند سـمير سـواء... هلل لعشـرات المقاهي في عشـرات الحـواري والأزقة، وهتف بحماسـة لأكثر من مقهى في أكثر من حي... كانت عيناه الشـبقتان إلى كل جديد تنغرسـان كالإبر في رأسـي بحثًا عن ذلك الشـيء الذي لـم يفهمه فيَّ أبـدًا... ذلك الشـيء الـذي كان يوقعه دائمًـا في الحيرة كلما تناقشـنا حول موضوع، شيء غامض كان يثير في نفسه القلق حتى يقول:

«**يا بني انا خايف عليك... حاييجي عليك يوم تتجنن!**»...

دون أن يعلم أني كنت دائمًا أكثر منه خوفًا على نفســي، وأشد منه حيرة من أحاسيسي...

وعلـى كل فقـد وجدنا أنفسـنا فجـأة ودون مقدمـات، ودون أن يقصد أحدنا، أمام مقهى غريب، في مكان أشد منه غرابة!

اللافتـة المعلقة فوق جدار منزل تهدم عند ناصية الدرب مكتوب عليها «درب الجماميـز»... الاسـم يبدو لي أليفًا، سـمعته من قبـل أو قرأت عنه، لكن متى وأين؟!... لـم أتذكر غير أن سمير تذكر على الفور فقال:

«**هنا عاش طه حسين فترة من حياته!**».

كان الـدرب يمتـد أمامي ضيقًا نصف مظلم لمسـافة لا تزيد على المائة متـر، ثم ينحبـس بعد ذلك ويختنق بيـن جداري جامع متـرب اللون وبيت قديم، وقد سـيطر الظـلام فيما بعد ذلك من امتداد، فبـدا الدرب وكأنه نهر يصـب في محيط مجهول... كل الأبـواب مغلقة إلا بابًا واحدًا لمقهى خلا مـن الناس تمامًا، مجرد ضوء ينسـاب من هذا البـاب إلى أرض الدرب في استرخاء كسـول، عند الباب عدة مقاعد ومائدة واحـدة، وصندوق صدئ للمثلجات، ورجل يجلس وحيدًا وقد أسند رأسه إلى كفه وراح في غفوة.

بجـوار المقهى وعلى صفه أبـواب دكاكين مغلقـة، فوقها بيوت نصف قديمة، بعضها أضيئت نوافذه، وبعضها أظلمت نوافذه، والسكون والهدوء يسودان هذه وتلك على السواء.

علـى الضفة الأخرى من الدرب صـف طويل من المباني الواطئة، كلها دكاكين صغيرة أنزلت ضلفها الخشـبية فـوق رصيف ضيق، رصفت أجزاء منه بالبلاط المكسور، وبقيت أجزاء أخرى متربة، عجنت مياه الرش ترابها فأصبحت طينًا صلبًا... ولا أحد بعد ذلك في الدرب، لا شـيء سـوى قطة تسـعى في كسـل بجـوار فـأر كان ينتقل من شـق إلى آخر في هـدوء وتؤدة المطمئن، وكأنه يؤدي زيارة عائلية.

همس سـمير في أذنـي بصوت يرتجف انفعالًا، وهو يشـير إلى المقهى المضيء:

«آهي دي كويسة قوي... إيه رأيك؟!».

وقبل أن أرد، كان سـمير يجرني من ذراعي جرًّا، غير عابئ باعتراضاتي الخافتة، وراح يحث الخطى نحو الرجل الجالس وحده.

■■■

ولابد لـي هنـا – أيها السـادة – مـن التوقف لثـوانٍ... فليس من عادة صديقـي الدكتـور سـمير أن يجر أصدقـاءه جـرًّا دون رغبتهم، فهو إنسـان مهـذب لا يتعدى الأصـول مهما بلغت درجة صداقتـه للآخرين... غير أن الـذي دفعه إلى هذا التصرف في تلك الليلة الذي جعله يجذبني من ذراعي ويجرني نحو الرجل على باب المقهى هو ترددي الذي بدا واضحًا في هذه اللحظـات... ذلك أني، ومنذ بدأنا جولتنا في تلك الليلة ورحنا نبحث عن مقهـى ملائم، منذ أن وجدت نفسـي أقترب من التجربـة الحقيقية، ويخرج الأمـر مـن دائـرة الخيال إلى حيـز الواقع... منـذ أن وجدت نفسـي أبحث بالفعـل عن مقهـى أعمل فيه جرسـونًا، منذ بداية تلك السـاعات وأنا واقع تحت تأثير إحساس غريب بالخوف...

أرجوكـم أن تنتبهـوا هنـا قليلًا حتى لا تسـيئوا فهم ما أرمـي إليه... فلم يكن خوفي خوفًا بالمعنى الدارج للكلمة، بل كان إحساسًا غريبًا أقرب إلى التـردد أو الرهبـة... وهو إحسـاس كان يـدفعني إلى التراجـع تـدريجيًّا، أو فلنقل التكاسل والرغبة في تأجيل التجربة فهذا أنسب... وقد شعر سمير بذلك ولا شك، وقال لي أكثر من مرة وهو يرمقني بجانب عينيه:

«ناوي ترجع في كلامك واللا إيه؟».

وكنـت أنفـي له هذا بشـدة أحيانًـا، وبسـخرية مصطنعة أحيانًـا أخرى، وأدخن باستمرار وأحرق السيجارة في عدة أنفاس!!

وكنـت متأكـدًا أن حمـاس سـمير للتجربـة ناتـج عـن حبـه لمصلحتي الشخصية، ورغبته في أن أقوم بعمل فذ يؤكد مكانتي كصحفي وأديب أقدم على تجربة جديدة... لكن حماسـه هـذا لا بد كانت تغذيه في نفس الوقت نـار أخرى، هي نار حبه الشـديد لكل غريب، وعشـقه اللامحـدود لمعرفة تفاصيل ما ينشر في الصحف والمجلات من أخبار ومواضيع مثيرة!!

المهـم... اقتحمنـا ليلتـهـا على الرجـل الجالس أمـام المقهى خلوته أو غفوته:

«سلام عليكم».

قالها سـمير بصوت مهذب لكنه أيقظ الرجل ونبهه إلى وجودنا... ولـم يكـن هناك أحد غيره... في الداخل رأيت عدة مقاعد من القش تناثرت هنا وهناك... على اليسـار «بنك» طويل من الرخام كسـر من طرفه جزء اسـودَّ لونه لكثرة ما لمسـته الأيدي... فوقه رصت أكواب وصوانٍ عديدة، وخلفه رف أو اثنان – لا أذكر الآن بالتحديد – خاليان... وفي الطرف القريب من الباب، كانت تقوم «النصبة» بوابورها ورمالها الساخنة وخزان مائها العالي ذي الصنبور الصغير، حولها، هنا وهناك، كنكات وأباريق مختلفة الأحجام والأشكال لصنع الشاي والقرفة والقهوة و... و... ونهض الرجل لسلامنا متثاقلًا منتفخ العينين، لكن عينيه نشـطتا فجـأة وهما تحملقان فينا بنظرات حادة مليئة بالشك، نظرات طردت حاجبيه إلى أعلى في دهشة واضحة.

«اتنين شاي وحياة والدك يا معلم!».

ولـم تبارحنـا عينـاه وهو يـدور حـول البنـك متجهًا إلـى النصبـة ليعد لنـا الشـاي... كانـت يداه تعملان فـي آلية، وعينـاه مشـدودتان إلينا ونحن نتهامس... كنت لحظتها أشعر كأني أنتقل من عالم إلى عالم آخر مختلف، بدأت أحس في تلك اللحظات بالرهبة تجتاحني، والشـك يسـاورني، وأنا أطـوف بعينـي في كل مكان، فـي الداخل والخـارج... نظـرت إلى أبواب الدكاكيـن المغلقة ورحت أتسـاءل: «أي قوم سـوف أتعامـل معهم؟!»... كنت واثقًا أن الرجل سـيتقبل العرض ثقة جعلتني أطلب منه الجلوس معنا بعد أن قدم لنا الشاي.

... وبـلا مقدمات، وكمن يلقي بنفسـه في المياه ليتعلـم العوم، قلت له ضاحكًا:

«مش عايز جرسون يشتغل معاك كام يوم؟!».

لـم يبتسـم الرجل ردًّا على ضحكتي، فقد بدا كأنه لـم يفهم شيئًا... فقط، ردد في برود وشرود:

«جرسون؟... كام يوم؟... مش فاهم!».

في كلمات سريعة، عرضت عليه الأمر كله...

بـلا لـف ولا دوران، أنا يا عـم صحفي أريد العمل معك لمدة أسـبوع، سبعة أيام تبدأ من صباح الغد، نظرات الشك في عينيك لا لزوم لها، فلست ضابطًـا للمباحـث ولا مأمـورًا للضرائـب وهـذه بطاقتي الشـخصية خذها واقرأ ما فيها... واضح أنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة فلا تطل النظر فيما

هـو مكتـوب بعينين حائرتيـن غبيتين، إن عينيك لا تتحـركان عن صورتي، تسـمرتا عليها في حيرة وكأنهما تريدان قراءة أفكاري... لن تخسـر شـيئًا، فسـوف أعمل معك منـذ الغد وكأني أجير عندك بحـق... ولك أن...كنت أتملى في وجه الرجل وأعرف مخابئه تدريجيًّا... اسـتهوتني ملامح الوجه الغبية فرحـت أتفحصها... الحاجبـان كثيفان، والعينـان نصف مريضتين، فيهما نظرة ميتة، والشفتان غليظتان فيهما شره واضح... الأنف ينسدل من أعلى إلى أسـفل في غلظة هرمية الشـكل، له فتحتان واسـعتان كانتا تنفثان دخان السـيجارة التي قدمتها له بغزارة وحديثي يتدفق وهو صامت، أحيانًا ينظر إلي، وأحيانا تتسـرب نظراته إلـى الباب ومن بعده إلى الدرب الخالي وكأنه يخشـى أن يدهمنا أحد، أو كأنه ينتظر أحدًا... فلا فرق في نظرته بين المعنيين.

انتهيـت مـن كلامـي، ولم ينته هـو من ترديـد نظراته ما بينـي وبين باب المقهـى... سـألته في قلـق: «إيه رأيـك؟!»، وقد بـدا لي فجـأة أن التجربة ستفشـل فـي لحظاتهـا الأولى فلا بـد أن الرجل لـن يقبل ما دام الشـك قد تسرب إلى نفسه.. فبالرغم من كل شيء، بالرغم من أني وضحت له مهمتي في جلاء، وتعمدت أن أشير له من طرف خفي أن في الأمر مصلحة له، وأن الناس سـيقرءون اسـم مقهاه في المجلة، وأن... وأن... و ... وبالرغم من كل هـذا، فقد كان واضحًا على وجهه أنه لم يفهم الموضوع فهمًا كاملًا... فقـد امتـدت يده أخيرًا لتسـحب الصينيـة من أمامنـا بما عليها مـن أكواب فارغة، ونهض قائلًا:

«والحكاية دي يعني لزومها إيه؟!».

اندفـع سـمير على الفـور – وفي حماس شـديد – يشـرح لـه الأمر من جديد، ويؤنبه على تردده، ويمنيه بالخير الذي سيعم عليه... وبالـ.....

وكأنما ضاق بنا الرجل، فقد قال فجأة ودون مقدمات، وفي صوت باتر وكأنه ينهي كل شيء:

«بس انا مش صاحب القهوة لوحدي، فيه أخويا ممدوح.....».

«سلام عليكم!».

وكأنه كان مع شقيقه على موعد... كان صاحب السلام في ذلك الوقت هو المعلم ممدوح، الشقيق الأصغر للمعلم محمد، لكنه كان واضحًا على ممدوح منذ أن وقف بباب المقهى، يحملق فينا، وينظر في سـاعته بدهشة، أنه صاحـب المكان الحقيقي، وأنه الآمر الناهـي... لم يكن ناعس العينين كالمعلم محمد، بل كانت عيناه واسعتين صاحيتين، وشعره الكثيف مصففًا بعناية، وذقنه حليقًا ناعمًا، ليسـت كذقن المعلم محمد نصف النابتة، وكان يرتـدي جلبابًـا نظيفًـا مخططًا ما زالت آثـار المكواة واضحـة عليه... وفي اللحظات التالية، كان ممدوح قد ابتلع دهشـته لوجودنا وخبأها في أعماقه بحنكـة الخبيـر وهـو يكسـو وجهه بتعبيـر جـاد، وكأن وجودنا لا يسـتحق الدهشة أو التساؤل، خطا الرجل نحو الداخل وتخطانا إلى ما خلف البنك الكبير وهو يقول:

«إيه يا محمد... لسه ما شطبتش؟!».

صاح المعلم محمد وكأنه يستنجد بشقيقه الأصغر:

«كنت مستنيك يا ممدوح... انت مش قلت إنك راجع تاني؟!».

ثم أردف وهو يومئ نحونا وكأنه يلقي بالأمر كله من فوق كاهله:

«أخويا ممدوح... آهو ده اللي تتفقوا معاه... هو صاحب المطرح!».

ثم غادر المقهى إلى الرصيف مسرعًا، وراح يجمع المقاعد، ويدخل صندوق المثلجات كتصرف يؤكد عدم علاقته بالموضوع.

غير أن المعلم ممدوح - أيها السادة - كان أكثر مرونة من شقيقه الأكبر... ممدوح موظف في الحكومة، يعمل في الصباح في الديوان، ويدير المقهى بعد الظهر... المال كما يبدو ماله، والكلمة كلمته، ولا مانع عنده بالمرة... ومن غير مؤاخذة، لا بد أن يتأكد من شخصيتي، ويستحسن أن أصحبه معي إلى المجلة... والحكاية في واقع الأمر مثيرة رغم أنه لا يقرأ المجلات أو الصحف فليس في الوقت متسع ولقمة العيش تشغل يومه كله من الصباح إلى منتصف الليل... ممدوح متزوج وعنده ثلاثة أولاد، أما محمد فلا يزال - رغم أنه الأكبر - خاطبًا... الكلمة تجر الكلمة والحديث يحلو ويطلب لنا ممدوح كوبين آخرين من الشاي، ثم يبتسم ويجامل... أهلًا وسهلًا على العين والرأس: **«بس يا ترى حاتكتب اسم القهوة في المجلة والخلق يقرأها؟!»**... المقهى بلا اسم مكتوب على واجهته، غير أن له اسمًا في السجل التجاري هو «قهوة السعادة»... العطفة الوحيدة في هذه المنطقة من الدرب اسمها«عطفة النيدي»... على ناصيتها يقع بيت يملكه مهندس في الحكومة اسمه عبد السلام أفندي... العقبى لأولادك يا محترم فعبد السلام أفندي صاحب هذا البيت الذي يقوم فيه المقهى له أولاد كثيرون، بنات وأولاد في الطب والتجارة والقانون وأطفال لا يعرف عددهم أحد ويقولون إن زوجته حامل... المسألة تُحل، والضحكات

تتتالى والمعلم محمد يصحو من غفوته تمامًا وترتسـم على شفتيه ابتسامة واسعة وهو يجر كرسيًّا ليجلس معنا معلنًا موافقته الفجائية على الأمر قائلًا في تبسط: «اسم الكريم إيه؟!».

ويصيح المعلم ممدوح وكأنه تذكر شيئًا:

«ما هو لازم تغير من غير مؤاخذة الهيئة؟!».

وكلمة وراء كلمة، والاطمئنان يحل محل الشك، والسلام يصبح حارًّا، واللقـاء عند الفجر أي بعد سـاعات، وليس في الأمر ما يسـتحق أن يخاف منه الإنسان فالدار أمان... ويصيح المعلم محمد في مرح:

«شـوف بقى يا سـي براهيم - اسـمي الجديد الذي اختاره سـمير - من النجمة، يعني خمسة ونص تكون هنا، الشغل شغل... آه...».

غادرنا الدرب بعد ذلك وبقايا الضحكات عالقة بشفاهنا، أصر سمير أن نغـادره من الطرف الآخر حتى نعرف معالـم المنطقة كلها، غصنا في ظلام الـدرب المختنق ما بين جـدار الجامع والبيت المقابل له، انثنينا إلى اليمين لنجـد أنفسـنا فـي خرابة تنفتح على شـارع الخليـج المصرى، عنـد ناصية الخرابة شادر للأخشاب...

هكذا علمت الطريق بالأمس...

وهكـذا وجـدت نفسـي أستيقظ قبـل أن يبزغ فجـر اليـوم على جرس التليفـون وهو يدق بجوار فراشـي بإلحاح، وصوت سـمير يصيح في أذني بانفعال شديد، ومرح أشد، وكأنه في صبيحة يوم عيد:

«انت لسه نايـم يا اسطى براهيم... قوم يا أستاذ معاد الشغل جه!!».

- 3 -

اجتاحت الدهشة درب الجماميز من أقصاه إلى أقصاه... تهامس الناس وتناقلوا الخبر المثير: «أبو النجا جاب صنايعي!»... تحولت كل العيون لتحاصر المقهى حصارًا محكمًا، وراح الجميع يتبادلون النظرات، وراحوا أيضًا يتبادلون التكهنات.

عند أول الدرب - من ناحية شارع الخليج - حتى نهايته المختنقة عند الجامع، كان الجميع يعلقون بالهمس حينًا وبالجهر حينًا آخر، فلا بد أن في الأمر شيئًا، ومن غير المعقول أن يصل الأمر بولدي أبو النجا - محمد وممدوح - فيستأجرا جرسونًا.

قال البعض عني إني ضابط للمباحث جاء ليضبط جماعة تبيع الحشيش في المنطقة، ونفى الذين يحبون الإثارة أكثر وقالوا: «أبدًا، ولاد أبو النجا بنفسهم حايبيعوا الصنف!!».

ركيزة الدهشة وأمها أن ولديْ أبو النجا لم يستعينا في حياتهما بأجير غريب، حتى والدهما - قالت بعض النسوة في الدرب: «إلهي يبشبش التراب اللي تحت راسه كان راجل طيب» - حتى أبو النجا الكبير كان

يعمل في المقهى بيديه، ولم يدخلها غريب في حياته، أو حتى بعد مماته... فلا بد أن في الأمر سرًّا!

لـم يكـن قد مضـى علـى وصولي إلـى الدرب سـوى دقائـق، كنت قد تركـت ميدان السـيدة زينـب خلف ظهـري ودلفت إلى الخرابـة المجاورة لشـادر الأخشاب ورحت أعاين هيئتي... قميصي قديم مزقته عند الكتف، والبنطلون وضعته تحتي طوال الليل ورحت أتقلب عليه، والحذاء دسسـته في طين الطريق ودست عليه عشرات المرات حتى ضاعت لمعته واتسخ، و... كيـف كنـت أفكـر في السادسـة صباحًا وأنا أسـير في المسـافة ما بين الميدان والخرابة؟!

لا أدري...

ما الذي كنت أحس به في ذلك الصباح الغريب؟

لا أدري أيضًـا وصدقونـي... هو شـيء كالحلم، كنت فـي أحيان كثيرة أتخيـل أن النـاس جميعًـا ينظـرون إلـيَّ، كل النـاس يحملقـون فـي هيئتي الجديدة، ويشيرون إلى قميصي الممزق وبنطلوني وحذائي غير مصدقين، كاشـفين حقيقتي وشـخصيتي... لكن أحدًا في الحقيقة لم يكن ينظر إليَّ، ولم ينتبه لوجودي مخلوق... وعندما تمهلت في الخرابة، راودتني رغبة في العـودة... وكدت أعود بالفعل من حيث أتيت لولا نظرات عامل دلف إلى الخرابـة من بعدي، وانتحى جانبًا، وراح يقضـي حاجته وهو يتفحصني... لا بد أن وقفتي طالت، وأن ترددي كان ظاهرًا يعلن عن نفسه، أو أن وجهي كان غريبًـا عن الناحية... كانت نظرات العامل نفاذة متسـائلة، حتى انتابني

الارتباك ولم أستطع مواجهة تلك النظرات وكأني مذنب يرتكب جرمًا، فتحركت على الفور في اتجاهين متضادين وفي وقت واحد... تحركت عائدًا نحو شارع الخليج المصري، وفي نفس الوقت دفعت ساقي دفعًا نحو الدرب، ورحت أسير بسرعة وكأن أحدًا يطاردني... لم أستطع الالتفات إلى اليمين أو اليسار خوفًا من شيء لا أدريه، وجدت نفسي في الدرب فأسرعت نحو المقهى ودلفت إليه دون أن أرفع وجهي عن الأرض... وقبل أن أنطق حرفًا، وقبل أن أسترد أنفاسي، وحتى قبل أن أفكر، كان المعلم محمد يصيح في وجهي بكل صوته وهو واقف خلف النصبة، وكأنه نام في مكانه منذ تركته بالأمس:

«كنت فين يا اسطى لحد دلوقت... اتأخرت ليه؟!».

لحظتها انتبهت حواسي جميعًا، وهبطت فوق رأسي كل ما حولي من مرئيات في دوي اهتزت له نفسي، فكأني كنت نائمًا واستيقظت فجأة وبلا مقدمات من حلم طويل. تبعثرت أفكاري وخواطري وتاهت وأنا أحملق في عيني الرجل المنتفختين، ولدت على شفتي ابتسامة لكنها ماتت بالرغم مني، فقد عاد الرجل إلى الصياح:

«وإيه اللي انت لابسه ده؟... حاتعمل لي أفندي في الحتة وتضحك علينا الناس؟... اقلع هدومك وخذ إلبس دي... يالله قوام!!».

قذفني بجلباب قديم وطاقية صوفية، واندفعت خلف النصبة أنفذ أوامره، خلعت قميصي وارتديت الجلباب بعد أن شمرت ساقي البنطلون ثم دسست رأسي في الطاقية... وجدتني أتحرك بلا إرادة... بلا وعي...

«نضف الترابيزة واغسلها بالميه!».

اختطفت قطعة قماش واندفعت أنظف بها رخام المائدة الوحيدة، وأطلق المعلم محمد سحابات البخور، ودفع إليَّ بالمبخرة قبل أن أنتهي من تنظيف المائدة:

«صباح الخير يا اسطى ابراهيم... نهارك فل بإذن الله».

«نهارك قشطة يا معلم محمد!».

كأنه يرفض أن يمهلني حتى أسترد وعيي وأحس بما حولي وأميز بين لهجة الغضب عنده ولهجة التحية... تناولت المبخرة من يده وأخذت أطوف بها في المكان... وكان لا بد أن أنادي، أن أصلي على النبي وأوحد الله بصوت عال منغم يسمعه الغادي والرائح والقابع في دكانه، حاولت النداء فاحتبس صوتي، وطاردني المعلم محمد:

«ما تنادي يا اسطى، ما تصلي على سيدك امال».

نظرت إليه بتوسل، واحتبس صوتي تمامًا وبردت أنفاسي وترددت بسرعة وقلبي يدق... ففي الخارج، وعلى الضفة المقابلة من الدرب، رأيت وجهًا تطل عليَّ عيناه من خلف زجاج دكان كان واضحًا أنه دكان مكوجي، فقد بدت الملابس المعلقة والمكومة في صرر فوق المائدة والأرفف وعلى الشماعات... كان الوجه لفتاة بيضاء البشرة واسعة العينين حادة النظرات مستقيمة الجسد، ترتدي فستانًا رغم أن قماشه بدا رخيصًا فإنه كان أنيقًا فوق الجسد المستقيم السرح... شعرها معقوص إلى الخلف، يشده في قوة شريط أحمر اللون، في قدميها شبشب رغم قدمه

كان يحتفـظ برونقه ولمعتـه، وكانت تحمل بين يديهـا إحدى ضلفتي باب الـدكان بسـهولة لتنقلها إلى الرصيف عندما وقـع بصرها عليَّ... ولا بد أن وجودي فاجأها، فقد ابتسـمت... في ابتسـامتها سخرية، وفيها أيضًا دهشة وجسـارة جعلتني أسـتدير هربًا مـن نظراتها الفاحصة... غيـر أني ما كدت أفعـل ذلك حتى واجهتني على الفـور نظرات المعلم محمد الذي اختطف مني المبخرة وراح يطوف بها في المقهى صائحًا منغمًا:

«صلى على النبي... ترضي النبي... تكسب!».

رغـم أن وجهي كان للداخل، فإني أحسسـت بوقع نظراتها فوق ظهري وكأنها سـياط هرولت نحو الحوض وفتحت صنبور المياه ورحت أغسـل الأكواب والملاعق وعيناي مسمرتان في الحائط أمامي، خلفي كان المعلم محمد يبخر كل مقعد في المقهى، ويصيح صيحاته المنغمة بصوت - رغم قبحـه - بدا لي جميلًا طازجًا... أحسسـت بوقـع قدميه خلفي وهو يقترب منـي ليـدور حـول البنك ويدلـف خلف النصبـة، وما إن اقتـرب مني حتى همس في صوت ثابت:

«دي سـعدية بنت المكوجي... بت كويسـة وعفيفة ولسـانها حلو وفي حالها هي وأبوها، بس عيبهم إنهم بيبيعوا كازوزة!».

وقبل أن أستدير إليه، وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة، جاء من الخارج نداء عال:

«يا محمد!!».

ولـم يرد محمد على صاحب النداء، وسـرعان ما زحفت يده لتسـحب الصينية وتضع فوقها كوبًا فارغًا أخذ يصب فيه الشاي قائلًا:

«الشاي ده للمعسلة!».

حاولـت ملاحقة حركاته السـريعة، فملأت كوبًا بالمـاء، وقبل أن أعود به، كان هو قد وضع كوب الشاي على الصينية وهو يصيح: «وبعدها معاك يا براهيم، اتحرك وخلي عندك همة، الزبون واقف مستني الاصطباحة!».

الغريـب في الموضوع - أيها السـادة - أن كلمات المعلم محمد كانت تؤثر فيَّ - منذ اللحظة الأولى، ولا أدري كيف - تأثيرًا مباشـرًا، كنت أطيع أوامـره دون كلمة وكأن مصير حياتـي برضاه، كنت أتحرك بلا إرادة كاملة، جزء كبير من إرادتي توقف تمامًا عن الاستقلال وأصبح تابعًا لكلماته.

كنت أندفع مع تيار الأحداث التي كانت تتتالى فلا تدع فرصة للتفكير.

وعندما سـحبت الصينية وحملتها إلى الخارج، شعرت كأني وقعت في مصيدة... ذلك أني لم أجرؤ على سؤاله عمن يكون هذا الزبون... وأين... و... وأوقعني اندفاعي المرتبك إلى الخارج في حيرة شـديدة، كان الدرب - في الدقائق التي بقيتها في الداخل - قد امتلأ فجأة بالناس... فعند ناصية الجامـع وجدت بائع الفول وقـد تجمع حوله الأطفال وراحوا يصوصوون كالكتاكيـت عندمـا تتجمع حول وعـاء الحَبِّ... بجواره وقـف بائع بطاطا وقد شـمر جلبابه عن ساقيه السوداوين القذرتين، ووضع قدمًا فوق إحدى يدي عربته، فتعرت سـاقه الأخرى حتى نهايتهـا، بينما الدخان يتصاعد من الفرن المليء بالبطاطا الساخنة.

وأغلب الدكاكين فتحت أبوابها، فتاة في الدرب تهرول بمريلة المدرسة - رغم أننا كنا في الإجازة السنوية!! - لكنها تحمل في يدها بدل الكتب عدة أرغفة وطبقًا مليئًا بالفول... الصينية في يدي ترتجف، وسطح الشاي يتمايل ويندلق ليصنع حول قاعدة الكوب بركة حمراء اللون... بائع الفول ينادي بصوت أجش: «اللوز...المدمس...»، وبائع البطاطا يصيح: «المعسلة!»... وأنا وسط الدرب بجلبابي وطاقيتي ويدي المرتجفة لا أدري إلى أين أذهب... عينا سعدية ترقبانني من بعيد وما زالت على شفتيها تلك الابتسامة الساخرة الغامضة... وكان لا بد أن تحدث معجزة - أيها السادة - لكي أخرج من هذا المأزق الذي وقعت فيه... فلمن أقدم الشاي؟!

وعلى كلٍّ فلم يطل الأمر... فقد حدثت المعجزة بالفعل عندما نادى نفس الصوت بنفس النبرات: «**يا محمد!**».

وكان المنادي هو بائع البطاطا، فاندفعت نحوه اندفاعًا وأنا أقول في صوت حاولت أن أجعله ثابتًا: «**صباح الخير يا معلم!**».

كان قلبي يخفق خفقانًا شديدًا، لم أستطع النظر في وجهه، وكانت يدي ترتجف وأنا أذيب السكر بالملعقة في حركات سريعة ومضطربة، ويد الرجل تدخل في نطاق بصري هالة سوداء قذرة الأظافر ضخمة الأصابع لتقبض على الكوب دون أن ترفعه من فوق الصينية: «**صباح القشطة... يا مرحب!**».

كالمنوم رفعت رأسي إليه لتلتقي عيناي بنظرات سددها الرجل من عينين ضيقتين وكأنهما ثقبان في مساحة من الأرض البور، كان وجهه الأسمر مليئًا بالأخاديد، له شارب هائش وذقن نابت، مضت ثوان افترَّ فيها

فمه عن ابتسـامة أظهرت صفين من الأسنان الصفراء، وقال الرجل بصوت مرحب: «اسم الكريم إيه؟...».

«محسوبك صا....... إبراهيم».

«عاشت الأسامي يابو خليل... أهلًا وسهلًا!».

والتصق لسـاني بسقف حلقي فلم أستطع الرد، تداخلت المرئيات أمام عينـي، والأصـوات في أذني وأنا أسـتدير عائدًا إلى المقهى لتلطشـني عينا سعدية بنظرة ساخرة مشفوعة بابتسامة أشد منها سخرية، ويزداد ارتباكي... وقبل أن أضع الصينية فوق رخامة البنك، وقبل أن أتنفس الصعداء، عاجلني المعلم محمد صائحًا وهو ينفخ في الفحم المتوهج أمامه: «الجوزة!!».

نظرت إليه غير فاهم وقد أمسكت الحيرة بتلابيبي، لكنه عاجلني قائلًا:

«شـغلتنا يا اسـطى مش عايزة لكاعة... الجوزة للمعسـلة برضه، خليك فاكر، ده مزاجه على الصبح كرسـي الدخان والشـاي... والفلوس بيدفعها علـى ودنه، تاخـد وتديني على طول ... قرش للشـاي، وقـرش للجوزة... يالله، اتلحلح!!».

■■■

وكلما مضت دقيقة، فَتحت دكاكين الدرب وانتشر الخبر، وكلما مضت لحظـة ارتفـع النداء من مكان في الـدرب طالبًا الشـاي أو القرفة، والمعلم محمد يصيح في حماس يزداد لحظة بعد لحظة:

«شاي على اتنين لبتاعة العيش!».

«العجلاتي... خد.... آدي الشاي بتاعه!».

«المكوجي اللي جنب الجامع، خد له قرفة على تلاتة!».

«الحلوانية عاوزة شاي كشري... احفظ مزاج الزباين كويس وفتح عينك يا اسطى!».

كان المعلم محمد يمارس سلطانًا يتلذذ له أيّما لذة، وكنت أنا أعمل قبل أن أفكر، لا مجال للتأمل أو النظر، الحياة تلتهم الدقائق، والوقت يندفع عدوًا، الأشياء تتقابل في صلابة ووضوح، والرؤية تتضح وسط المعركة التي كنت أخوضها تدريجيًّا... صف الدكاكين المواجه للمقهى أغلبه مكتبات قديمة تبيع الكتب القديمة والنادرة، والتي لا يحصل عليها المرء إلا بشق النفس... أمام المقهى مباشرة فتح المعلم فتح الله مكتبته وأخرج مقعدًا أمام بابها وجلس عليه...

«ده تستني عليه لما يطلب منك، هو بيدفع الحساب آخر النهار. إنما مراته تفطر وتشرب الشاي وتحط لك القرش في الصينية، تتغدى وتشرب الشاي وتحط لك القرش في الصينية... و...».

لكن نظرات المعلم فتح الله لا تصل إلينا إلا بعد جهد، يصيح من مكانه على المعلم محمد، ويصله الخبر همسًا في أذنه فيضيق عينيه ليصل ببصره إليَّ ثم يبتسم، وزوجته تصل بعد قليل ومعها ابنته، وجه آخر كأنه سقط لتوه من فرع أخضر، في الوجه شحوب يضفي عليه جلالًا أخاذًا، وفي العينين نظرات مرحة، لكن مرحها مقيد بألف قيد وقيد... وتبتسم الفتاة

أول ما تبتسـم لسـعدية، ثم تصبـح عليها وتتهامس معها ثـم تنظران نحوي وتغرقـان في ضحك مكتـوم... ويهمس من خلفـي المعلم محمد بصوت كالفحيـح: «**دي هنية بنـت المعلـم فتح الله، مش بتيجـي كتير، أصلها على وش جواز!**».

بجوار مكتبة المعلـم فتح الله دكان لم يفتح أبوابه بعد... «**صاحبه راجل عجوز بيبيع حديد خردة... يوم يفتح وعشرة لأ... وده وده محصل بعضه... عمره ما طلب كباية شاي!**».

بجـوار الـدكان المغلـق مكتبـة أخـرى، فـوق بابهـا شـعار: «**الثقافـة للجميع!**»... أمامها شـاب طويل أسـمر، نحيل حتى لكأن جسده صنع من ورق الكتب المعروضة على أرفف مكتبته.

«**تخلي بالك من عمران، هو بيطلب مشاريب وبيدفع قبل ما يمشي، إنما التلامـذة اللـي بيقعدوا عنده، شـاطرين في القراية والرغي بـس... آل يعني فالحين قوي!**».

وابتسمت...

هنا – أيها السادة – لـم أستطع سوى الابتسام، هنا توقفت الحركة اللاهبة مـن حولي لتتحرك الذكريـات من مكامنها فتفرز للحاضر رحيقًا يسـتحلبه المرء بلذة تفوقها كل لذة... بدت لي تلك المكتبة وكأنها قطعة من حياتي، كأنـي أعـرف تمامًا مـا بداخلهـا وما تحويـه... نظـرة واحدة إلـى صفوف الكتـب المتربة المكدسـة في غير نظام، تنقلكم فورًا مـن أعلى قمم الثقافة

إلـى أوطاها قـدرًا... من أرسـطو وأفلاطون إلى روايـات الجيب وقصص الحب المثيرة!!... ابتسـمت - أيها السادة - لأن أفكاري ولدت على باب مكتبة كهذه، في شـهور حارَّة قائظة كهذا الشـهر، بدأت من أول السلم يوم كنت أتخيل للسـلم نهاية، لمحات من الماضي مرت سريعة أمام عيني وأنا أرقـب صبيًّـا يتجه نحو المكتبة ليسـلم كتابًـا ويدفع قرشًـا ويحمل في يده كتابًا آخر يختفي به وسـط ركام البيوت المكدسـة في هـذه المنطقة... غير أن الوقـت - واعذروني - لم يكن مناسـبًا بطبيعة الحـال للتذكر أو التخيل واستجلاب صور من الماضي، كانت الحياة تشـدني بعيدًا عن نفسي شدًّا لم أستطع مقاومته... الزبائن في ذلك الوقت من اليوم يدلفون إلى المقهى في مواعيد محدودة وكأنهم قسموا المقاعد والدقائق فيما بينهم، وكأن كلًّا منهـم يخلي مقعده للآخر... وأشـياء جديدة في المهنة أعرفها... ووسـط الصيحات والنداءات وشقشـقة البنات والهمسات، كنت أقطع الدرب في سـرعة وعصبيـة، وعصبيتي تزداد كلمـا أحاطتني العيـون، والمعلم محمد يقـول: «ولا يهمك... مـا هو لازمن كده!»... غير أن شـيئًا حدث في تلك اللحظات، شـيئًا هبط عليَّ كصفعة مفاجئة فشد كل انتباهي وتركزت حوله كل أحاسيسي وأفكاري.

كنـت أحمل صينية عليهـا إبريق مـن القرفة وثلاثة أكـواب صغيرة وأنا أندفع إلى الخارج، عندما ارتطم جسـدي بشـيء صغير انقذف من الخارج بسـرعة... ارتجت الصينية فـي يدي وتمايلت وكادت تسـقط لولا يداه... وقعـت عيناي عليه، والتقتا بعينيه الدهشـتين، فغاص قلبـي على الفور بين ضلوعي.

- 4 -

«كنت فين لحد دلوقت يابن الـ...».

وامتـدت ذراع المعلـم محمد مـن خلف ظهري لتهـوي كفه في صفعة هائلة فوق الخد الصغير، وتناثرت خصلة شعر فوق الجبهة العريضة، لكن العينين الواسـعتين الدهشـتين لم تفارقا وجهـي... لا الوجه تألم، ولا الفم تأوه، ولا الجسد تقلص... ارتطم من أثر الصفعة بالحائط القريب، ثم ارتد مرة أخرى كأنه كرة من المطاط لا عظام فيها.

عندما يمتزج الذعر بالغضب بالدهشـة في مزيج واحد، يصبح المركب الجديد حاد التأثير على الغير بلا شك، ولقد رأيت كل هذا في عيني حسن الواسعتين وهما تسددان إليَّ نظراتها النافرة... كان يندفع نحو باب المقهى بسـرعة، ذهنـه الخالـي لم يهيئ لـه من المفاجآت شـيئًا، تأخـر عن موعده وسيمر الأمر بصفعة من المعلم محمد وسبة لأمه أو لأبيه وينتهي كل شيء ويسـتقر الحال... لكنه فجأة رآني، وكأن شيطانًا هبط عليه من الجحيم في حلم مزعج.

«يالله يا دانجر، خد الأسـطى إبراهيم معاك ولف بيه على الزباين، تقول لهم ده الصنايعي الجديد بتاعنا!».

انتشــر الذعر فاجتاح تقاطيع الوجه الصغير وتغلَّب على كل ما عداه في عيني حسن.

اكتملــت تفاصيــل المصيبــة وهبطت برمتهــا على رأســه الصغير، رأيت جلبابه يهتز مع ارتعاشة جسده السريعة الخاطفة، فلا بد أنه كان يرتديه على اللحم، جفونه ذات الرموش الطويلة تختلج، وأنفه يرتجف، وشفتاه غاضت منهما بقايا الدماء الباهتة، فاصفرت... لكنه بلا حول ولا طول، يستدير نحو الخارج مطيعًا أوامر المعلم محمد، وكان عليَّ أن أتبعه... مضى في الزقاق خطوات فمضيت خلفه، ثم رفع رأسه فجأة مستديرًا نحوي بكل ما في رقبته من ليونة، وقال: «**أنت حاتشتغل عندنا في القهوة صحيح؟**».

الكلمــات عاديــة، لكن النبــرة معذبة، والخــوف يتراقــص بجنون فوق الحروف، وحسن يقفز خطوتين إلى الأمام، يسبقني بهما ثم يستدير نحوي ويســير بظهــره ليراني ويتفحصني وكأنه ما زال غيــر مصدق... ووقعت في الحيرة، وارتعت أمام نظراته، وارتجفت يدي وأنا أصب القرفة للمكوجي، واشــتد ارتياعــي عندما اســتدار وهــو يقــول دون أن ينتظر منــي جوابًا على السؤال: «**نروح للتماثيلجية الأول!**».

لـم أفهم ما يعنيه، غير أني ســرت وراءه وكأني أســير فوق سحابة باردة، فلا شــعور ولا إحســاس معينًا، بل خليطًا من المشــاعر والأحاسيس كانت تتلاطـم في صــدري وكأنهـا بحر هائج... بــلا كلام ولا نقـاش فهمت كل مــا يفكر فيه حســن، تذكرت في تلك اللحظات ما قالــه لي المعلم ممدوح

بالأمس: «**عمرنا ما شـغلنا غريب أبـدًا ولا حد عتبها برجله، مفيش غير واد صغير اسمه حسن. وده برضه قريبنا، نسيبنا يعني!**».

كان حسـن يسـير خطوة ثم يلتفت نحـوي ليتفحصني بعينين شـديدتي اللمعان والعداء معًـا، وفي لحظة، كدت أقرر مقابلة العداء بالعداء، قررت - أيها السادة - أن أقوم بدوري كما يجب أن أقوم به... فرحت أقابل نظراته بمثلهـا، ولا أرد علـى أسـئلته العديـدة إلا في اقتضـاب شـديد... وكنا قد وصلنا إلى ناصية الجامع وانثنينا إلى اليسار ودلفنا إلى حارة السادات فيما بيـن الجامع ومئذنته، وسـرنا في طريق ضيق عند نهايتـه عدة أبواب تصدر مـن خلفهـا أصـوات لآلات كثيرة... مـا إن وصلنا إلى أول بـاب حتى قفز إليه حسـن ونفذ منه إلى الداخل وأنا أتبعه، وقفت وراءه عند مدخل الباب لتطالعنـي ثماني عيون التفتت كلها نحوي، وتوقف كل شـيء في الورشـة الصغيرة، وصاح حسـن في الجميع وكأنه يشـهدهم علـى جريمة ترتكب: «**ده الأسطى براهيم، الصنايعي الجديد بتاعنا!**».

قال أحدهم موجهًا حديثه إلى حسن: «**الله... أمال انت رايح فين ياد... حاتسيب المطرح؟!**».

ارتجـف صوت حسـن وعلـت طبقتـه واحتدت وهـو يقـول: «**لأ.. ده حايشتغل معانا بس.. حايساعدنا يعني!**».

كان واضحًـا أنه حائر، وأن جملته التي قالها لم يكن متأكدًا منها، تلعثم في البداية، ثم أطلق الكلمات سـريعة كالطلقات وكأنه يحمي بها نفسه من

مصيبة ستحل عليه... كنت أقف عند الباب يكاد رأسي أن يصل إلى نهايته، ووجدت نفسي أتمتم بارتباك واضح: «**صباح الخير يا اسطوات!**».

«**صباح الفل...اسم الكريم إيه؟!**».

قالها أحدهم وهو يبتسم مرحبًا، وصاح حسن ملاحقًا كلمات الرجل: «**ما قلت لك الأسطى براهيم...يالله يابراهيم شوف الأسطوات يشربوا إيه؟...ده الأسطى رمضان، وده الأسطى فاروق، وده الأسطى عبد السلام، وده الأسطى محمد الصغير...خلي بالك كويس، في الدكانة التانية الأسطى زكي...تعال ورايا**».

واندفع حسن إلى الخارج، لكني تسمرت في مكاني، كنت أتصبب عرقًا وأنا أستمع إلى صوته...كان صوتًا غريبًا، كان رفيعًا، لكن فيه نغمة خشنة لا تخطئها الأذن... توقف حسن عند الباب عندما رآني متسمرًّا في مكاني وراح ينظر إليَّ بعينين يطق منهما الشرار، ارتبك ولم يدر ماذا يقول أو يفعل، لكنه أبى في الوقت نفسه أن ينهزم أمام هذا الجمع، فعاد إلى الصياح بصوت أكثر خشونة وحدة: «**ما تشوف الأسطوات يشربوا إيه يا بني آدم!... ما لك لخمة كده؟... اتلحلح شوية وخلي عندك همة!**».

وكأنما انفتحت له طاقة في السماء، أو كأنه ولد في ليلة قدر... أوحت إليه لهجته الآمرة الغاضبة بشيء آخر غير التحدي.. وبدا في تلك اللحظات وهو يعاود الصياح وإصدار الأوامر كأنه ظل مسخوط للمعلم محمد أبو النجا: «**جرى إيه يا اسطى، ما تتلحلح امال!**».

ولم أتمالك نفسي من الضحك أيها السادة، لم أتمالك نفسي، ضحكت وضحك معي كل الرجال، لكن حسن لم يضحك، بدا له الأمر جدًّا لا هزل فيه، قطَّب ما بين حاجبيه فبدا قريب الشبه من المعلم محمد إلى حد كبير، شد قامته القصيرة وفزَّ بكل جسده نحوي وهو يشوح بيده كمن يهم بصفعي، لكنه عاد فارتد إلى الخلف عندما أيقن أن قامتي أطول منه بكثير وأن يده مهما قفز فلن تطولني بحال...أحس لحظتها ولا شك أني حائط عال يقف أمام أحلامه التي برقت فجأة وسط ظلام دهشته وحيرته، فاكتفى بالصياح، وعاد يردد بنفس الصوت الغاضب الغريب: «**الأسطى فاروق مزاجه شاي بالحليب، والأسطى عبد السلام بيشرب قهوة مظبوط في كباية، مرة الصبح ومرة بعد الظهر...والأسطى رمضان...**».

وصدقوني- أيها السادة- كان كل شيء يجذبني إليه جذبًا شديدًا، كنت أمامه أشعر وكأن شيئًا مجهولًا يسلبني إرادتي ويسيطر عليَّ ويحتويني في أعماقه احتواء لا مفر منه، رغبة عارمة أكيدة تنتابني لأنحني على حسن وأطيب خاطره وأربت على كتفه وأبوح له بالسر ثم أضمه إلى صدري وأطمئنه على عمله ورزقه...شيء كالبكاء يفور في صدري ليرتطم كالموج الهادر بإحساس غريب، انبثق هو الآخر مرة واحدة وفي نفس الوقت ليدهمني ويحتويني، وجدت حياتي وماضي بل مستقبلي أيضًا مجرد ذكريات وأحلام لا ظل لها إلا في خيالي...بدا لي الأصدقاء كأنهم أصدقاء زمان مضى، وبدا لي عملي وكأنه شيء تحقق في حلم طويل... أحدد لكم أكثر وأقول إنه شيء كالعشق كان يجذبني نحو هؤلاء الناس، دقات قلبي تنتظم لأول مرة منذ زمان بعيد، تهدأ وتستريح من عناء اللهث

وراء الحياة...الوجـوه تبـدو لي أليفـة قريبة تحيا على راحتهـا وبلا تصنع، ملامحها غير مشـدودة، نظراتها لا انفعال فيها ولا مواراة...و...ولن أطيل عليكـم فلعلكـم تدركون جيـدًا كل ما أريـد قوله، ولعلي نسـيت في غمار حماسـي هـذا وانفعالي الشـديد بعـض التفاصيـل الصغيرة، غيـر أن الذي أتذكـره عن يقين هو أني قررت في تلك اللحظة الغريبة، وأنا أعيش وسـط تلـك الأحاسـيس المتناقضة، قررت للمـرة الثانية، وفي إصـرار وعناد، أن أخوض المعركة وأن أحياها.

■■■

ولـم يكن أمامي سوى هذا الطريق، كان حسن قد أعلن عليَّ حربًا لا هوادة فيها منذ اللحظة الأولى، وكان من السهل الانتصار عليه بأن أطلب من المعلم محمـد أن يأمـره بالكف، أو بالعودة إلى البيت أو...أو أي شـيء، غير أن هذا الطريق لـم يخطر ببالي قط، أليس هذا غريبًا؟! ولـم يكن قراري هذه المرة من أجل إتقاني لدوري أو تفرغي للتجربة التي بدأت أعيشها حقًّا، أبدًا...بل كان القرار ملتصقًا أشـد الالتصاق بحياتي...كانت المسـألة تبدو لي مسألة مصير يجب أن أواجه فيه كل العقبات، وأن أنتصر فيها على كل السدود...

وكان عليَّ أيضًا أن أدخل المعركة أمام نفسي...

كان الخوف يتسلل إلى قلبي في أحيان كثيرة ويسيطر عليَّ سيطرة كادت تدفعنـي لخلع الجلبـاب والطاقية والفرار مـن درب الجماميز كله...وكان علي أيضًا أن أدخل المعركة أمام عشرات العيون التي راحت تتفحص ذلك الغريب الذي اقتحم عليهم دربهم وحياتهم دون إنذار سابق.

هو شيء كالعداء لكنه ليس عداء بحال من الأحوال، هو شيء قريب من الحذر والترقب... كان الجميع بلا استثناء يدهشون فيما بينهم وبين أنفسهم لكنهم كانوا يحاولون كتمان هذه الدهشة، كانوا يراقبونني من بعيد لكنهم يتظاهرون أمامي باللامبالاة، وكنت إذا ضبطت نظرات أحدهم أو إحداهن يصيبني الارتباك بقدر ما يصيبه أو يصيبها... كنت أمتاز عليهم بالكثير، لكني افتقدت هذا الإحساس بالامتياز وأنا أحتك بحسن وأحبه دون أن أعي، ثم أدخل مع هذا الصبي الأعزل في المعركة، كنت أستعمل فيها كل أسلحتي بلا رحمة...ثم أشعر بالرغم من ذلك أن لحظة فراري آتية لا ريب فيها، وأني سأخلع الجلباب وأفر من المقهى والدرب كله وأكفي نفسي شر هذه المعركة التي كانت تصيبني فيها سهام خفية تنبثق من أعماقي أساسًا وتقرب من لحظة الهزيمة!

أرجو - أيها السادة - ألا يضايقكم هذا الاستطراد فأنا في حاجة ملحة إليه لأوضح كل ما كان يعتمل في نفسي، ولا تعجبوا إن بدا لكم الأمر متناقضًا غير محدد الملامح، ولا تهزوا رءوسكم فلست أخادعكم ولا أخدعكم، أبدًا، فهذا بالضبط ما كنت أحسه في تلك اللحظات من بداية التجربة... كنت أشعر بالأبيض والأسود معًا وفي وقت واحد، بالحار والبارد معًا في لحظة واحدة، كنت أنا ولست أنا في آن... وباختصار... كنت جرسونًا وصحفيًّا في قالب يتحرك جيئة وذهابًا في الدرب العريق!

■■■

كان حسن بعد أن غادرنا ورشة التماثيلجية... والتماثيلجية - أيها السادة - كلمة مصدرها البعيد «مثل»، ومصدرها القريب «تمثال»، وليس في اللغة ما يقال

عنه تماثيلجية... فهؤلاء العمال هم صناع التماثيل، تخصصوا في صنع التماثيل النحاسـية التـي تباع في الأسـواق، تماثيـل للفراعنة، وأخـرى للحيوانات و ... والمهم أننا غادرنا الورشـة وحارة السادات ورأسي مزدحم بقائمة من الطلبات كان علي ألا أنسـاها أو تفقد ذاكرتي أحدها... غطسـنا في درب الجماميز الذي كان يشغي بكل ما فيه من نساء وعيال ورجال... وكان حسن يدفعني أمامه دفعًا بلا رحمة وهو يقدمني للزبائن صائحًا وكأنه يشتمني بأفظع الألفاظ:

«ده الأسطى براهيم الصنايعي الجديد بتاعنا!».

فـي صوتـه - عدا الثورة والغضـب والاحتجاج - قـرف واضح تصنعه ليثبت به وجوده وتعاليه على الأمر كله... عند بائعة الخبز أضيف إلى قائمة المشـروبات في ذهني بند جديد، وعند الحلوانية أضيف بند آخر، وناداني العجلاتي متفحصًا هيئتي وهو جالس على مقعد بجوار باب دكانه:

«اسمك إيه يا اسطى؟».

«محسوبك براهيم!».

وقطع الحديث نداء المعسلة:

«يا حسن!».

«أيوه جاااي....».

صاحها حسن وهو يتدحرج مسـرعًا نحو بائع البطاطا، وعاد العجلاتي يسـدد إليَّ نظراته ويبتسـم عن صفين من الأسنان الذهبية المتآكلة، بشفتين بدتا وكأنهما تقبلان الهواء بنهم، ثم قال:

«صباحك فل يا بو خليل، هات لي شاي سادة!».

وأضيف إلى القائمة الطويلة بند آخر...

وأنا - أيها السادة - مصاب بداء النسيان، أنا لا أستطيع أن أحمل في ذهني تفاصيل أشياء كثيرة تحدث لي، لا أستطيع تذكر موعد مع صديق إلا بشق الأنفس... وأصبح من المستحيل تمامًا في ذلك الصباح أن أتذكر طلبًا واحدًا من تلك القائمة التي بدأت بأربعة طلبات عند التماثيلجية، غير أني اندفعت أعبر الدرب مسرعًا وأنا أحاول استعادة كل ما طُلب مني، غير أني ما كدت أخطو نحو المقهى خطوتين، حتى سقطت على كتفي يد ثقيلة استوقفتني... نظرت خلفي ليصدمني وجه رجل طويل عريض، مجسم القسمات بارزها، له نظرات تنبثق من عينين غريبتين وكأنهما تعودتا طوال عمرهما على البحث في الأماكن المظلمة، كانت نظراته تخترق عيني وكأنها مسامير، ارتجفت وصوت الرجل الأجش يقول لي من بين شفتين نصف مغلقتين:

«اسم الكريم إيه؟»!

«محسـ.. محسوبك براهيم!».

«أمال لما انت اسمك براهيم صحيح مش بترد ليه؟... من الصبح وأنا بانادي عليك يابراهيم ولا انت هنا!!».

كنت أرتجف وأنا أواجه نظرات هذا الرجل الذي بدا لي على الفور وكأنه أحد المخبرين... أيقنت أن مأزقًا جديدًا قد أقع فيه بين لحظة وأخرى قد انفتح تحت قدمي... وكان حسن قد عاد ليقف بيني وبين

الرجـل وفي عينيه شـماتة وسـعادة، راحت عينـاه تتطلعان إلينا في شـغف وهمـا تنزلقـان فـي مقلتيـه يمنة ويسـرة وكأنهمـا بليتـان يعبـث بهما طفل عفريت... وابتسـامة الرجل تزداد اتسـاعًا، ونظرات الشك في عينيه تمزق كالسـكين الحاد جلبابي لتشـير إلى البنطلون الذي أرتديه... طال الصمت ويد الرجل على كتفي لا تنزاح ونظرات حسـن تزداد مرحًا وتشـفيًا و... ثم صرخ قائلًا:

«ما لك اتكتمت ليه كده... ما ترد يا أخينا؟!».

وقبل أن أرد بدا أن الرجل قد نفد صبره فقال:

«قول لي... إنت اشتغلت قهوجي قبل كده؟!».

برقت عينا حسـن، ومضت لحظات أخرى مشحونة، فماذا أقول للرجل الذي كان ينتظر مني الجواب وهو يدق في عيني نظراته النفاذة... أحسست لحظتها أن كل شـيء سـينهار فورًا، أحسست وكأن سحابة تلفني وتسبح بي في سماء الدرب، ثم تقذفني من حائط إلى حائط... تلاعب الغضب برأسي وكـدت أتحدى الرجـل وأقول: «وانت ما لك؟... بتسـأل ليـه؟...»، لكني تراجعـت ورحـت أبحث فـي ذهني عن جواب مناسـب لسـؤاله الذي ظل معلقًا دون جواب... ثم جاءني صوت حسن وكأنه يأتي من أغوار عميقة:

«ما ترد يا براهيم وتخلي عندك همة، إنت لسانك مقطوع والا إيه؟!».

كان حسن يصيح، بل يصرخ بصوت لف الدرب كله وكأنه يشهد الرجل والناس والدنيا كلها على أني لا أصلح. واسـتفزني حسـن، نظرت إليه بغل شديد وأنا أقول للرجل خلال ابتسامة اغتصبتها اغتصابًا:

«أبدًا يا معلم، دي أول مرة أشتغل فيها قهوجي!».

«أمال كنت بتشتغل إيه قبل كده؟!».

لاحقني السؤال قبل أن أسترد أنفاسي أو أبتلع لعابي، لكني كنت - في عناد - أشدد على مخارج كل حرف وأنا أقول:

«كنت باشتغل براد!».

وما حدث بعد ذلك لا يد لي فيه...

جاء الأمر كله وكأنه إلهام هبط عليَّ من السماء، نسيت كل شيء، وغصت حتى الأعماق في حياتي الجديدة، تدفقت الكلمات من فمي تدفقًا حارًّا، وكلما ماتت في عيني حسن نظرات الشماتة، أحسست بالزهور وطعم الانتصار الحلو:

«كنت... كنت باشتغل براد ودراعي انخلع بعيد عنك.. الدكتور قال لي ما ترجعش للصنعة تاني، ما لقيتش قدامي إلا كده... أهو كله أكل عيش يا معلم!».

ولفظت نظرات الشماتة في عيني حسن آخر أنفاسها، وبدا أن الرجل قد اقتنع بما قلت، لكنه عاد ينفضني بنظراته نفضًا دون أن يرفع يده عن كتفي، لكني عاجلته وابتسامتي تزداد اتساعًا:

«تلزم أيها خدمة يا معلم؟!».

وانزاحت اليد عن كتفي، وقال الرجل قبل أن يستدير عائدًا إلى دكان الحلوانية حيث كان يجلس بجوار الباب:

«أيوه... تجيب لي شاي... شاي كشري!».

والتقت نظراتي بنظرات حسن لبرهة، لكني سرعان ما استدرت هربًا من عينيه، كانتا - أيها السـادة - تضجان بصراخ مكتوم... هرولت مسرعًا نحو المقهى وأنا أشـعر بالسعادة والنشوة، وبجانب عيني رأيت سعدية تتهامس مع هنية ابنة المعلم فتح الله، وكانت الفتاتان ترمقانني بعيونهما وتبتسمان، فـازداد اندفاعي نحو المقهى، في نفس اللحظة التي أحسسـت فيها بشـيء يندس بسـرعة البرق بين سـاقي ويعرقل اندفاعي... تطوح جسدي كله إلى الأمـام وترنحـت، رحـت أهوي نحـو الأرض كقطعة حجر لـولا صندوق المثلجـات الـذي تعلقت به في آخر لحظة... سـقطت علـى ركبتي ودوَّت في أرجاء الدرب ضحكات السخرية تلهب ظهري كالسياط، دوت في كل مكان فيه... غير أن أكثر الضحكات وضوحًا كانت ضحكات سعدية وهنية المرحة الصاخبة... لكني عدت فوقفت على قدمي من جديد، التفت ورائي ووقع بصري على حسـن، كان يقف بعيدًا عني، على وجهه ابتسـامة، وفي عينيه ذعر لا يخفى على أحد، وكان صوت المعلم محمد يجلجل في رهبة ودهشة وغضب هائل:

«إيه اللي انت عملته ده يابن الأبالسة؟!».

- 5 -

لم تعد يدي تهتز وأنا أحمل الصينية بأكواب الشاي أو القرفة أو فناجين القهوة... كنت كلما مرت لحظة، ازدادت معرفتي بأسرار المهنة وطبائع الزبائن، تردد اسم إبراهيم في الدرب أكثر من مرة فلبيت النداء وتنبهت إليه وكأني ولدت بهذا الاسم، ومع مضي الدقائق والساعات وتبادل الكلمات اختفت تلك الابتسامات الساخرة، وحلت محلها ابتسامات أخرى فيها من الدهشة قدر كبير... راحت العيون تتقاذف النظرات عبر الدرب كلما سنحت الفرصة أو جاء الوجه في الوجه أو طلب الأب شايًا يعدل به مزاجه.

عندما فعل حسن ما فعل لم أغضب منه ولم تصبني الثورة... أحسست للضحكات في نفسي بوخز أليم، التقت عيناي بعيني سعدية فرأيت فيهما جسارة وإصرارًا لم تفلح بسمتي الشاحبة في اكتساب عطفهما... شدتني على الفور نظرات هنية ودق قلبي دقة واحدة عنيفة... فأنا – أيها السادة– إنسان خيالي، من عيوبي أني أحيانًا أخلط الواقع بالخيال فلا أستطيع التفرقة بينهما... نظرات هنية تنكسر تحت رموش راحت تصفق تصفيقًا مرتعشًا، لكنَّ عينيها منذ تلك اللحظات بالذات لم تفارقاني رغم مرور

الدقائق والسـاعات، كان وجـه هنية من تلك الوجوه المريحة المسـتريحة التي تشـدكم علـى الفور إلـى أحضانها، وتشـعركم بالقربى منهـا والمودة لأنها أليفة إليكم قريبة منكم، في عينيها نظرات دافئة حنون، وفي ابتسامتها بسـاطة وكأنها تتربع على الشفتين في اسـترخاء، رداؤها ينسدل فوق جسد اسـتنام بين الطيات، لكنه في بعض الأحيان يتقلب في رعشـة هانئة مغلفة ببسمات خجل واحمرار وجه!

ألم أقل لكم؟!

أنـا إنسـان خيالـي، أختطـف الأشـياء مـن قلب الواقـع وأحلـق بها في سـماوات أفكاري ومثلـي ونظرتي للحياة... لذلك، فسـرعان ما اختطفت نظـرات هنيـة وابتسـامتها، ورحت أنسـج حولهـا كل ما يمكن أن ينسـجه خيالي من أوهام تغذي «التجربة» وتجعل لها طعمًا!!

واحذروا مني – أيها السـادة – فأنـا أكاد أكذب الآن وأندفع في الكذب والتوليف ما شاء خيالي أن يكذب أو يولف... لكنني بالرغم من ذلك أقاوم مقاومة شـديدة، فأنا على أي حال لست إنسـانًا سيئًا، وليس فيما أصبو إليه من كذب شـيء يضر بأحد... لكنه إحساس المذنب بالرغبة في الدفاع عن نفسه وتبرير ما ارتكب من ذنوب... سأقول لكم الحق، وأنتزع الصدق من نفسـي انتزاعًا لا رغبة لي فيه، لقد سررت لنظرات هنية أيما سرور، انتابتني رعشـة انتصار فاضت بها نفسي فملأتها بالثقة والتفاؤل... سؤال يلح على ذهنـي الآن وأنا أواجه في نفسـي ذلك الكذاب الـذي يريد أن يتلاعب بكم وبالحقيقة معًا... هل كنت مخلصًا فيما فعلته مع هنية بعد ذلك؟!

أنا لم أفعل شيئًا... صدقوني وأقسم لم أفعل شيئًا!

صرخة اعتذار أخرى لكن لا تهتموا بها ولا تستمعوا إليها، لقد تلقفت نظرات هنية تلقف الخبير... وفي الثواني التي تلت ما فعله بي حسن مباشرة، كنت أرتجف بالانفعال وأنا أتخيل ذلك العنصر الرائع في التجربة، والذي سيعطيها لونًا جديدًا وطعمًا آخر.

الحب!!

سال لعابي في شره الذئب الجائع، ورددت على النظرات بالنظرات، وعلى الابتسامة بابتسامات... وكلما مضت لحظة، كسبت فيها موقعًا جديدًا... وعندما طلبت مني أم هنية - زوجة المعلم فتح الله - كوبًا من الشاي، حملته لها على أنظف صينية، وغسلت الأكواب بنفسي، واقتحمت جلستهم تسبقني ابتسامة عريضة، ثم سددت عيني إلى عيني الصبية فأرخت نظراتها اضطرابًا... وهمست أنا غير موجه حديثي لأحد:

«صباحكم قشطة إن شاء الله... أيها خدمة!!».

رفع المعلم فتح الله عينيه عن كتاب كان يعبث به ويربت عليه بأصابعه متفحصًا وكأنه يستشف ما بداخل ثمرة بطيخ مغلقة: «صباحك فل يا اسطى براهيم، نورت الحتة!».

«الله ينور عليكم يا معلم فتح الله!».

حديثي موجه إليه، ونظراتي موجهة إليها، والابتسامة تصافح الابتسامة، والأم ترقب كل شيء من طرف خفي، ولا تعترض... تبتسم هي الأخرى وكأنها تبارك وتدعو للأمل أن يأتي، وللستر أن يحتضن ابنتها.

ولا أترك فرصة دون أن أنتهزها...

بائـع الثلـج يغزو الدرب مـن أوله بصياحـه وكركرة عربتـه الصغيرة... حرارة الشمس تلهب الألواح البيضاء وتذيبها وهو يعدو صائحًا في العيال والمارة أن يوسعوا له الطريق.

قطرات المياه تتسـاقط ناصعـة لامعة كحبات لؤلؤ سـائل وتترك خلف العربة شـريطًا من القطرات سـرعان ما يجف وتمتصه الأرض العطشى من حرارة الشمس، ويصيح بي المعلم محمد:

«**التلج يا براهيم!**».

ويضـع الرجـل في صندوق المثلجـات قطعة بقرش، ثـم يلقي بالقرش فـي عبه ويمضي صائحًا في الناس والعيال أن يوسـعوا له الطريق فالألواح تذوب، وشـيطان الرغبة يراودني، فأكسر من الثلج قطعة صغيرة أضعها في كوب لامع الجدران مليء بالماء تسبح فيه قطعة الثلج بجلال... وينظر إلي المعلم محمد بجانب عينه دهشًا:

«**حاتعمل إيه يا اسطى؟!**».

ولا أرد عليه... كنت مشـغولًا بما أنـا مقدم عليه، أقراص الطعمية أمام هنية وأمها كادت تنفد، كوب شاي انقسم بينهما إلى نصفين... نصف للأم والنصف الآخر لذات العينين الساهمتين ويهبط عليهما كوب الماء المثلج كأنـه هدية من السـماء، اتسـعت حدقتا الأم دهشـة، واتسـعت حدقتا هنية بالسـعادة، والكوب يأخذ مكانه أمامهما بين أقـراص الطعمية وبقايا الخبز الطازج... والأم تتمتم غير مصدقة:

«مية بالتلج!.. مية بالتلج؟!».

«بألف هنا وشفا!».

قلتهـا وكأني أقدم لهما بطاقة تحمل اسـمي وعنوانـي ووظيفتي وأتقدم لهمـا بطلـب حـلال... ذلك أن الابتسـامة اتسـعت على وجـه الأب والأم معًـا فـي ترحيب غيـر مبالغ فيه، وعلـى غير العـادة - كما أخبرنـي المعلم محمد - أصبح المعلم فتح الله في ذلك اليوم كريمًا جوادًا يطلب الشايات والقهـوات ويدعو الأصدقاء والزبائن... وكلما نادى الأب أو نادت الأم: يا براهيم... سارعت لتلبية النداء قبل أن يتم: **«أنا خدام»!**

ويهمـس المعلم محمد وهو يقترب مني ويتحدث داخل أذني في قلق: **«إيه حكاية التلج دي؟».**

الدنيـا حـر، ومياه الحنفية سـاخنة يا معلـم... الخوف يتلاشـى والقلق يـذوب والرهبة تنمحي ليحل محلهـا الاطمئنان والثقـة... المعلم محمد يعارض فلو فتح للزبائن هذا الباب لما اسـتطاع أن يغلقه مرة أخرى وكيف تأتـي المقهـى بعد ذلـك بمصاريفها، لكني مرح سـعيد أسـمع كلامه بأذن وأفرغه من الأذن الأخرى وأقفز هنا وهناك ألبي النداءات وأحمل الطلبات وكأن طاقة سماوية فتحت لي أبوابها، يرتبك الرجل ويعود إلى مكانه خلف النصبة مبتلعًا اعتراضه، يبدو عليه القلق والحيرة لا يدري ماذا يفعل...

ما الذي كان يحدث وقتها؟ ما الذي كان يحدث؟!

لا أدري... أبـدًا لا أذكر شـيئًا بالتحديد عن تلـك اللحظات فقد مضت وتاهت في زحام أحداث اليوم الكثيرة... أغلب الظن أن الإنسان لا يمتص

من السـعادة أو الإحسـاس بالفـرح إلا بقدر ما يحتاجه، كأنهـا مخدر إذا ما زال تأثيره زالت الراحة وعاد الألـم أشد وطأة مما كان...

كنـت في تلك اللحظات بالذات- أيها السـادة- أدخل منطقة التخدير، لا تعنيني مراحلها بقدر ما يعنيني انتظار الغيبوبة الآتية بعد ذلك!

عيناي حائرتان!

عيـن هنا أو هنـاك، والعين الأخـرى عند هنيـة وبجوارهـا، لا تبتعد... شربت أمها نصف الكوب البارد ثم أعطتها النصف الآخر، فرفعت الكوب إلى شفتيها في نفس اللحظة التي ارتفعت إليَّ فيها عيناها...ورأيت العينين تبتسمان ابتسامة تعلن للملأ عن نفسها...وعندما هبط الكوب مغادرًا طرف الشـفتين، لـم تهبـط العينان عن وجهي، وإنما سـرت منهما الابتسـامة إلى الشـفتين وفاضت على الوجه كله فغمرته...سـال لعابي وقفز قلبي بالفرح الغامر وأيقنت على الفور أن التجربة ستكون مثيرة، وأني سأعيش مع حياة الناس قصة حب تبدو لي على البعد لذيذة كل اللذة!!

«إيه...أين أيام الشقاوة!».

هكـذا حدثـت نفسـي، فنظـرات هنية- كالسـحر- كانـت تنقلنـي إلى الماضـي وتعبـر بي السـنوات في لـمح البصر، لتسـتقر عند أحاسـيس طال البعد عنها، والوحشة لها!!

الحقيقة- أيها السادة- أني لست ذئبًا بمعنى أو بآخر، فأنا إنسان أهتدي فـي حياتي بمثل عليا لا أحيـد عنها...غير أني أسـتطيع أن أعرف-إلى حد كبير- ما الذي تفكر فيه السيدة أو الآنسة التي أتحدث إليها.

أستطيع أن أخمن وأفرض وأخرج من الفروض بنتائج يقينية نادرًا ما تخطئ.

وأنا- أيضًا-لست قديسًا بطبيعة الحال ولست منزهًا...أنا كغيري من الرجال أعشق في المرأة أشياء معينة، وأكثر الأشياء التي تبهرني هي البساطة...

وكانت هنية-طبعًا-بسيطة!!

قد أدعي أمام الناس الصدق والأمانة، لكني لا أحافظ عليهما بيني وبين نفسي بالقدر الكافي...أسعد كثيرًا لصداقة امرأة، وتشتد بي السعادة إذا ما دخلت في أعماقها وجست خلالها وعرفت مخابئها...هذا يرضيني ويكفيني لكني غالبًا ما أخرج من تلك الأعماق لأبحث عن أعماق أخرى، بحماس ولذة، يفوقان حماسي ولذتي الأولين...

و...و...و...و...و...و.

وعلى كل حال فالصدق في مواضيع كهذه له أكثر من وجه.

لقد كنت شبيهًا بحسن وأنا صغير...هذه ملاحظة عابرة تقطع تسلسل الموضوع حقًّا، لكنها خطرت ببالي، وربما يفسر لكم هذا سر حبي له وتعلقي به...فأنا إنسان أعجب إلى حد ما بشخصي وأحبه، لكني لا أوافق نفسي على كل تصرف أتصرفه أو أقدم عليه...وليس من مبادئي ومثلي أن أعيش قصة حب زائفة، أنا لا أستطيع ذلك أبدًا... لذلك، فعندما دق قلبي أمام هنية دقة واحدة عنيفة، استولت علي الدهشة تمامًا، فكيف يدق قلبي، وهل من الممكن أن أحب بهذه السرعة؟!...

و... وعلـى أي حـال فالأمـر هنا صعب التفسـير، لكن الـذي أذكره أن شـيئًا مجهـولًا كان يدفعني إلى الخـوض مع هنية في قصـة تعطي للتجربة حيـاة نابضة، أو حتى قصـة تبقى للذكرى... ولـم تكـن التجربة هي العامل الأول - قطعًـا - في اندفاعي هذا نحو هنية، أو بمعنى أصح في قراري هذا الـذي اتخذته بخوض التجربة حتـى الثمالة كما يقولـون... فقد كان هناك عامل مهم آخر... إحساس كهذا الذي يسيطر على الإنسان وهو مقدم على شيء مجهول، كأنه - بالضبط - يدخل مكانًا لم يره من قبل قط، ولا يعرف ما بداخله من مفاجآت سـمع عنها آلاف المرات، وعشـقها على البعد لأنه موقـن بجمالها وروعتها... هو نوع من حب الاسـتطلاع أيضًا سـيطر علي حتـى عندمـا لم أجد جوابًا لسـؤال راح يتـردد في ذهني بـلا انقطاع: وماذا بعد؟!... وماذا بعد؟!... وماذا بعد؟!...

وقعت في الحيرة حقًّا. لكن حيرتي لم تطل كثيرًا، كانت لذة الاستطلاع واكتشـاف المجهول عندي أقوى من أي شيء آخر... وجد ضميري مبررًا لما كنت مقدمًا عليه، فنام واستراح!!

ولـم يطل الأمر بها أو بي... إحسـاس بذاتي أعطاني ثقة جعلتني أتحرك وكأني فارس غزا بلدًا وراح يتمايل فيها مزهوًّا... كنت أعمل وألبي الطلبات وأسـرع إلـى كل الناس في ضجيـج يلفت النظر، دب النشـاط في أوصالي وانتابتني نشوة غامرة وأنا أسمع صوت أم هنية ينادي عبر الدرب:

«سي براهيم... سي براهيم!».

فـي لمح البصـر كنت أعبـر الـدرب لأنحني فـوق الصينيـة والأكواب الفارغة، وأصافح بالعين نظرات هنية المتكسرة...

«أيها خدمة تاني... أيها خدمة والنبي!».

«إلهي أفرح بيك تديني شوية مية أحسن ريقي ناشف!».

«عنيه...».

مـن جديد رحت أكسـر من الثلج قطعـة وضعتها في كوب مـاء كان يضوي تحت وهج الشـمس اللافـح... بدأت أدخل عتبة تجربة من نـوع آخر... التردد يمسك بتلابيبي، وسؤال يلح على ذهني كسوط عذاب لا يكف عن ملاحقتي.

ماذا بعد؟!

ولا أجـد الجـواب إلا فـي خفقـات قلبي التـي كانت تشـتد كلما مرت لحظـة، كنت أشـعر وكأني أنزلق إلى بئر بـلا قرار، بئر كانـت تدفعني إليها عينا هنية الساهمتان المتطلعتان إليّ من بعيد... في أعماق البئر عالم كعالم الأسـاطير، هناك قصور الحب المذهبة وأطباق الفاكهة النادرة!... اختفت نظرات الدهشة والسـخرية، وحل الاطمئنان في العيون محل الشك والود يجـذب القلـب إلى القلـب، والكلمة الحلـوة تفتح أمامـي كل الأبواب... وأصبحـت نظـرات هنيـة تحتويني احتـواء، أصبـح ترحيبها كأنـه ضمات أحضان ملهوفة.

قطعـت المسـافة مـن الدرب إلى ورشـة التماثيلجية عشـرات المرات دون أن أكـف، عـرفـت طبـائع الزبائـن فكـان يكفـي أن يصيح العجلاتي:

«**يا براهيم!**»... لأصيح بدوري: «**شاي وصلحه للمعلم منصور!**»... وكلما مضـت لحظـة، وكلما تحركت في الدرب، علا صوتي وملأ الأسـماع وأنا أردد بين الفينة والفينة ما يطلبه الزبائن وكأني ولدت لأعمل جرسونًا.

بجـوار المقـهـى تقـوم مكتبــة السـعيدية، صاحبها - المعلـم كامل - لا يشـرب سـوى زجاجات الاسـباتس المثلجة، ويطلب لـكل زبون طلبًا، ويلعـب الطاولـة وينفـع المحل بمـا لا يقل عن ثلـث دخله فـي اليوم، بعد المكتبة السعيدية تقف «الحلوانية» في دكانها الصغير تبيع الحلوى للصغار والسـجائر للكبار وتشـرب الشـاي في اليوم أربع مرات... المسـافة ما بين الحلوانيـة والعجلاتـي هي عـرض الدرب بالتمـام، فالدكان أمـام الدكان، والوجـه طوال النهار في الوجه، والحلوانية أرملـة في منتصف العمر مات زوجها فوقفت في دكانه تبيع وتشترى وتعيش وحيدة شريفة لكنها لا تسلم من الطمع... والأسـطى منصور شـهرته في الدرب أنـه رجل ذواقة، يحب مـن الطعـام كل أصنافه، فهو أكـول نهم إلى الحياة، والنـاس أحيانًا لا تجد مـا تقوله، وفي الثرثـرة متعة وفيها أيضًا فوائد منها كشـف المخبوء وفضح المستور!!

أمـام مكتبـة عمـران تجمـع لفيـف مـن الطلبـة وراحـوا يتناقشـون بصـوت عـال فـي الأدب والفـن، ويفاضلـون بين هـذا وذاك مـن الكتاب والأدبـاء، لكـن عيونهـم لا تكف عن تسـلق الجـدران بين لحظـة وأخرى محاولين كشف ما وراء النوافذ من أشباح كانت تظهر وتختفي في حركات سـريعة وعصبية لا تلاحقها سـوى الابتسـامة واليد التي تمسـح الشعر في

سلام يظنه الحبيب خافيًا عن الناس، وكل العيون ترمقه... فتاة تعبر الدرب مسرعة، تحت إبطها كتاب أزرق ضخم، ويهمس المعلم محمد في أذني:

«أهي دي البت الدكتورة... بنت أصحاب البيت!».

ويخفت صوته أكثر، ويزداد ميله نحوي هامسًا وكأنه يدلي إليَّ بسر رهيب:

«لو طلعت عندهم فوق حتلاقي بعيد عنك الروس والإيدين والرجلين منطورة في كل حتة... أصلها بتدرس... بتذاكر مع جتت البني آدمين اللهم احفظنا!».

وجرت عيناي خلف طبيبة المستقبل... فتاة في العشرين طويلة ملفوفة القوام، سريعة الخطوات، تضم إلى صدرها الكتاب وتترك لشعرها العنان وتنظر للناس من خلال عينين وضعتهما فوق السحاب!... اختفت الدكتورة عند ناصية الجامع، فنهض شاب كان يجلس أمام مكتبة عمران منذ ساعتين لا يكف عن تقليب الكتب والمناقشة والصياح والصراخ والإدلاء بالآراء في صوت يسمعه الجميع، وعيناه لا تتعبان من تسلق الجدران والتعلق بالنافذة التي تعلو باب المقهى... أسرع الشاب في سيره واختفى هو الآخر عند ناصية الجامع، سائرًا في نفس الطريق، دون أن يرى نظرات الصحاب التي تبودلت من بعده، ودون أن يسمع أحدهم وهو يصفق طالبًا مني **«حاجة ساقعة!»**.

ارتدت عيناي نحو هنية لأرى على وجهها علامات كرب وغضب، لفحتني عيناها بنظرة كالسوط، ثم ارتدتا عني إلى بعيد لتراقب الحارة في

غيرة تعلن عن نفسها بلا مواراة، وكأنها تقول إن الشرط نور، حتى ولو كانت الغادة طبيبة لا سبيل إليها من جرسون مثلي مهما طال النظر والترقب!

وابتسـمت بـدوري وأنا أحمل «الحاجة السـاقعة» إلـى طالبها الجالس عنـد مكتبـة عمـران مندفعًا فـي طريقي بنشـوة... لكني توقفت وتسـمرت قدماي في الأرض وأنا أحملق في «الإسناوي» الذي ظهر فجأة وكأنه نبت مـن أرض الـدرب بقوة سـحرية... توقفـت وأنا أحملق فيه بدهشـة وحذر وترقب... وكان قلبي يدق!!

- 6 -

رأيته أمامي وقد انتصب في مدخل المقهى وكأنه فرع طويل سقط لتوه من شجرة جرداء، كان يطل عليَّ بوجه داس الزمن بقدمين غليظتين فوق ملامحه فطمسها بعضها في البعض وتداخلت، على خده الأيمن أخدود عميق شديد السواد، أخدود صنعه العمر بعد أن امتص الحياة من تحت الجلد فتغضن، على رأسه لاسة التصقت بالجبهة والتحمت بها فسرى لونها المحترق بعرق الجبهة وتراب الطريق إلى قماشها، دُفنت الأذنان تحت اللاسة فاختفى نصفها الأعلى... ووسط هذا الوجه كانت تبرق عينان تفيض منهما الحياة في توحش وشراسة... أكثر ما يميزهما – أيها السادة – تلك الحيوية البادية في إنسانيهما الشديدي السواد والعمق حتى ليخيل للناظر إليهما أنهما بئران لا قرار لهما.

وقف الإسناوي أمامي بجسده النحيل الذي ينسدل على جانبيه ذراعان طويلان، كأذرع القردة، تصل أطراف كفوفهما إلى ما بعد الركبة بقليل، يحمل أحدهما صفًّا طويلًا من الكتب القديمة وقد تشبثت أصابع الكف بجلباب ممزق يكشف عن نصف الصدر الذي تميزه ضلوع خطت من تحت الجلد وكأنها علامات تعذيب مر عليها زمان طويل... سدد

الإسـناوي إلي نظرات مليئة بالدهشـة، راح يتفحصني من أعلى إلى أسفل مرة ومرتين وابتسامته تزداد اتساعًا، ثم صاح بصوت مشروخ صدئ: **«يبقى الكلام اللي قالوه صحيح يا بو النجا!»**.

ابتسـمت هنيـة وتهامسـت مـع أمهـا وتغامـزت مع سـعدية وأشـارت نحـوي من طـرف خفي، تحرك الإسـناوي مقتربًا مني فحجـب عني هنية، رفـع المعلم فتـح الله عينيه من فـوق الكتاب الذي كان يحمله وارتسـمت على وجهه ابتسـامة من يعرف مقدمًا ما سـيدور أمامه من أصوات... صاح المعلم محمد بصوت محتج: **«ما تدخل وانت ساكت يا إسناوي!»**.

لكن الإسناوي لم يدخل، ولم يسكت... فتح فمًا خلا إلا من سنتين في مقدمة فكيه، إحداهما على يمين الفك الأعلى، والأخرى تقف شامخة على يسار الفك الأسفل، وبينهما خواء يتلاعب فيه لسان الإسناوي بحرية...

«بقى جبت صنايعي يا بو النجا؟!».

«ما تتلم يا إسناوي!».

«اسمك إيه يا جدع يا طويل يا هايف انت؟!».

كان يوجه حديثه إليّ، وكان لا بد لي من الرد بأدب:

«محسوبك براهيم يا معلم!».

«أنا الإسناوي... عارف مين هو الإسناوي؟!».

«اللي ما يعرفك يجهلك يا معلم!».

«طب خد الكتب دي شيلها عندك لحد ما أجيب اللقمة وآجي!».

أسرعت في حمل صف الكتب إلى ركن المقهى، صفق الإسناوي بكفيه في ابتهاج وهو يستدير ناحية الدرب، ويطالع كل من فيه بصوت ساخر:

«أبو النجا جاب صنايعي يا ولاد... القيامة حاتقوم وحياة النبي!».

وانفلت الإسناوي يهبط الرصيف إلى الدرب فظهر وجه هنية من جديد، لم تتبع عيناها طريق الإسناوي كما فعلت كل العيون، لكنها نظرت إليّ وكأنها تشجعني، فالتفتُّ إلى المعلم محمد أسأله: **«هو الإسناوي بيشرب إيه؟!»**.

«شاي وجوزة... الشاي بتعريفه والجوزة كمثل!».

اختفى الإسناوي من الدرب دقائق وترك وراءه على كل فم تعليقًا، وعلى كل وجه بسمة، على كل لسان حكاية... قال لي المعلم محمد بصوت مرتفع واضح النبرات: **«إوعى تاخد على خاطرك منه... ده هوه كده إنما قلبه أبيض!!»**.

لم أرد عليه فعاد إلى الحديث مكملًا بنفس الصوت المرتفع الواضح النبرات: **«ده كان غني قوي، أول من تاجر في الكتب القديمة في البر كله... فتح الله وكامل دول كلهم صبيانه... إنما عيبه الفنجرة... أصله فنجري قوي، اللي في جيبه مش بتاعه... وغير كده بعيد عنك الهلس ما ينفعش أبدًا... ده مرة....»**.

رحت أسمع المعلم محمد بأذن، وأتتبع الحديث الدائر في الدرب بالأذن الأخرى... وتصطدم عيناي بوجه حسن ذي العينين الشديدتي اللمعان... كان حسن - أيها السادة - لا يزال منزويًا في مكانه منذ أن فعل فعلته معي، كان لا يزال واقفًا بجوار الحوض وكأنه في منفى يتطلع من وراء

أسواره إلى ما يجري في العالم خارجه... منعت المعلم محمد من ضربه، وحكمـت عليه بغسـل الأكواب والملاعـق وكنس المقهى ورشـها بالمياه كل سـاعة... استسلم، لكنه راح يراقب كل شيء بهاتين العينين الواسعتين الشـديدتي اللمعان، ولم يطل الأمر بالمعلم محمد أو بالناس السادرين في سـيرة الإسناوي فقد عاد هذا بسرعة وهو يحمل في يمناه رغيفًا انطوى بين أصابعه الطويلة على قرطاس ظهرت فيه البقع وكأنها تعلن عن عدد أقراص الطعمية في داخله... وقف في منتصف المقهى وراح يحدجني بنظراته من جديد، لكنه ما لبث أن صاح بصوته المشروخ الصدئ:

«لسه ما عرفتش أنا مين؟... أمك اسمها إيه؟».

ورد عليه المعلم محمد في حدة:

«وحاتطلع مين ياخي؟... ما تتلقح بأدبك وانت ساكت!».

وكأن الإسـناوي لم يسـمع شـيئًا، فتح فمه وراح يضحك ثم أخذ يزعق بكل صوته وهو يتطوح يمنة ويسرة ملوحًا بذراعه وكأنه يخطب في جمع من الناس:

«أنا المعلم إسناوي يا ااد... شايف المعلمين اللي فاتحين مكتبات دول وعامليـن كتبيـة وبيفهموا؟!... كلهـم صبياني، أنا معلمهـم الكبير... الواد فتـح الله اللي زي العجـل ده أنا اللي علمته الكار، فاهم؟ يمكن انت عمرك ما مسـكت كتـاب في إيـدك، ويمكن لا تعرف تقـرا ولا تتنيـل تكتب، إنما كار الكتـب ده أنا صرفت فيه ألوفات، وكسـبت فيـه ألوفات... مكانش في مصر دي كلها إلا العبد لله... كنت مشـغل أفندية ومسـتوظفين عندي على العربيـات، كانوا يطلعوا من الديوان واللا المدرسـة ويسـرحوا بالكتب في السيدة... لكن كله راح في الهوا... أنا نزهي، أحب أفنجر وأصرف والفلوس

مـا تهمنيش ولو كانـت ألوفات...عرفت بقى أنا مين يااااد؟... إجري هات لي المزاج وابقى خلي بالك مني حبتين...إجري يابن المشدقة!».

أسـرعت لأعـد الصينيـة، وأسـرع المعلم محمـد يعد الشـاي، ووضع حسـن فوق الصينية كوبًا مليئًا بالماء، وجلس الإسـناوي على مقعد بجوار صـف كتبـه القديمة وأخذ فـي التهـام الرغيف بأقـراص الطعميـة بصوت مسـموع...تحول في لحظة من إنسـان إلى آله تمضغ...رأيت عينيه – أيها السـادة – تتعلقان بالسقف ولا تغادرانه أبدًا...أصابعه تعمل بحنكة ودراية تقطـع الخبز وتحشـوه بالطعمية وترفعه إلى الفـم الخالي الذي كان يمضغ بـلا انقطاع وفي انتظـام غريب، نبتت قطرات العرق على جبين الإسـناوي وتكاثـرت ثم راحـت تنزلق كالفيضان فـي أخاديد وجهه لتمتـزج باللعاب الذي كان يسيل من جانبي فمه إلى الذقن لتتساقط منها على رغيف العيش وأقراص الطعمية وتمتزج بهما...حملت صينية الشـاي إليه وأسرعت أعد الجوزة دون أن تهتز فيه شعرة، دون أن يتحرك أو ينطق، فقط...كانت تصدر عنـه في بعض الأحيان أصوات غريبة كانت تنقطع بين الحين والحين كلما تكـورت اللقمة في حلقـه لتنزلق منه إلـى المعدة...برقت فـي ذهني فكرة فأسـرعت إلى صنـدوق المثلجات وكسـرت قطعة من الثلج أسـرعت بها إلـى كوب الميـاه بعد أن غسـلتها جيدًا...لكنه لـم ينتبه. انتهـى من الطعام ومسـح كفيه ببعضهما فلمعتـا من أثر العالق بهما من أقـراص الطعمية، ثم رفعهما إلى وجهه فمسح بهما العرق واللعاب...وامتدت يمناه على الفور إلى كوب الشـاي، وامتدت يسـراه لتقبض على الجـوزة التي كنت أحملها بجواره...وراح يرشـف من الشاي رشفة، ويجذب من الجوزة نفسًا، حتى أتى على الشاي وتعميرة المعسل...فتجشأ.

بعدها فقط رأى كوب المياه!!

رآه ناصعًـا لامعًـا تتهـادى قطعة الثلج فوق سـطحه في خيـلاء... ففغر فمـه، ورفـع حاجبيـه دهشـة... ظـل صامتًا لثـوان وكأنـه غير مصـدق، ثم اختطـف كوب الميـاه وهو يصيح: «**إيـه اللي جرى في الدنيـا يابو النجا... مية ساقعة؟!**».

راحت عيناه تترددان ما بيني وبين المعلم محمد وكأنه يسأل عن الفاعل، صـاح فيه المعلم محمد وهو يـردد بصره هنا وهناك وكأن جريمة ارتكبت: «**ما تطفح وانت ساكت... حاتعمل لنا زفة؟**».

وقد عمل الإسـناوي زفة بالفعل، وقف بباب المقهى والكوب في يده، وراح يرشـف المياه المثلجة في صوت منغم ومسـموع، وسـرعان ما أفرغ الميـاه في جوفه، فتنهد ارتياحًا، ونظـر إلى الكوب فرأى قطعة ثلج باقية لم تذب بعد، فصاح في سعادة:

«**واد يابراهيم... حط لي شوية مية فوق حتة التلج دي!**».

وقتها ابتسمت هنية في وجهي كما ابتسم الجميع وهم يرقبون الإسناوي في شغف.

مـلأت كوب المياه مـن جديد، وحمل الإسـناوي كتبه ودفع لي قرشًـا وازدرد كوب المياه، وابتسم في وجهي وهو يردد:

«**تعيش يابو خليل... واد عترة بصحيح... إنت منين؟!**».

لكنه لم ينتظر مني جوابًا، فقبل أن أفتح فمي كان قد حمل صف الكتب من فوق المقعد، وانزلق مسرعًا إلى الدرب، واختفى منه تمامًا.

- 7 -

انتصف النهار منذ ساعتين وهجع الجميع وخلا الدرب من المارة... كاد أن يصبح مهجورًا والشمس تصليه بنار الظهيرة اللافحة... جفت مياه الرش وانبعث في الجو رائحة عطنة، سال العرق ونعست العيون وأوت في مداخل البيوت الكلاب والقطط وصغار العيال... وهدأ كل شيء وأسن، ومالت الشمس بعد ذلك وسحبت فوق الدرب رداء من الظل الخانق!

دقت ساعة الجامعة في الراديو الثانية والنصف، وقرئت نشرة الأخبار، وتُلي بعدها التعليق، وامتصت الحرارة كل القوى فهمدت، وترك المعلم محمد مكانه خلف النصبة لأول مرة منذ الصباح، وجلس في ركن المقهى على مقعد ومدد ساقيه على مقعد آخر وأسند رأسه إلى الحائط وغرق في سبات عميق.

بعدها وجدت نفسي وجهًا لوجه مع عيني حسن.... وحدنا!!

وضعت الخرطوم في صنبور المياه ورششت الدرب أمام المقهى عدة مرات لا طلبًا لنسمة ندية وإنما هربًا من هاتين العينين الواسعتين اللتين كانتا ترمقانني بنظرات صامتة. اختفى المعلم فتح الله وزوجته وبقيت هنية

وحدها داخل المكتبة. كما اختفت سعدية من دكانها وبقي أبوها يواصل كواء الملابس...وراحـت هنية تطـل بين الحين والحين من وراء صف كتب كان موضوعًـا في المدخل وهي ترميني بنظرات سـاهمة غارقة في الأحـلام... استيقـظ ضميـــري لثوان فرحت أفكر فيما يمكـن أن يحدث لو أن صبية مثل هنية أحبتني حقًّا... لكن الأمر لم يأخذ مني وقتًا فقد بدت لي المسـألة بسيطة كل البساطة، لذيذة كل اللذة، وما دامت الغاية تبرر الوسيلة فلا حرج، وكانت غايتي هي الفن وخدمة الناس ونقل حياة الناس للناس!!

رحت أتلقى ابتسـامات هنية بصيحات حب كانت تعلو وتهمس مرة... فكرت في كل شـيء ورتبت أكثر من خطة وقد أخرج معها غدًا أو بعد غد، وقد أستطيع...أستطيع.......

في هنية شيء يجذبني إليه جذبًا حنونًا، لكنه قوي لا طاقة لي بمقاومته، أنا أبدًا لم ألتفت إلى هذا الشيء ولم أفكر فيه كثيرًا فقد كنت أحسه وأعيشه، قليـل مـن الخوف ينتابنـي فماذا إذا كشـف الناس الأمر، وكيـف أدافع عن نفسي، وكيف...وكيف....و...

ولا داعي للإطالة، والإسـهاب، فقد كنت فرحًا بالتجربة سـعيدًا بها، ما حدث في الصباح انتصار ولا يجب عليّ أن أهون من أمره، عدت إلى المقهى وجلسـت في الداخل على مقعد وفردت سـاقي وسـرحت بعيني في فضاء الـدرب الملتهب...مضـت لحظات أفقت بعدها على صوت قدمي حسـن وهمـا تتلصصان مقتربتيـن مني، ترك الصبـي مكانه بجـوار الحوض وراح يقترب مني ببطء شديد...أرمقه بجانب عيني وهو يتمسح في البنك الكبير،

وينظـف رخامته أو ينقل كوبًا من مكانـه دونما غرض أو فائدة...التعب يهد جسـدي هذا، وسـاقاي يسـري فيهما تنميل يختلط بآلام راحت تنشر قدمي نشرًا...لكنها كانت بالنسبة لي آلامًا ألذ من الراحة آلاف المرات.

أصبح حسـن على بعد خطوة مني، واسـتدار ناحيتـي وأخذ يحملق في وجهي دون حراك...أحسست بالحرج ولم أجد سوي الابتسام فابتسمت، أشرت إلى المقعد المجاور: «**ما تيجي ياحسن تقعد!**».

اقتـرب دون كلمـة وجلس بجواري على طرف مقعد وقد تدلت سـاقاه في الهواء، وبالكاد لامسـت أطراف أصابعـه أرض المقهى...التفتُ نحوه ونظرت في عينيه فخفض بصره وراح يعبث بأصابع قدمه الحافية في تراب الأرض من جديد.

«**إيه رأيك فيّ بقى يابو علي... ...مبسوط مني؟!**».

قلت ما قلت دون معنى، إحسـاس بالحرج يختلط برغبة عنيفة في ضم حسن إلى صدري، كان في جلسته هذه مسكينًا مهزومًا نحيل الجسد، يبدو للعين كالشـبح الممصوص، ليس فيه سـوى وجه تقاطيعه رسـمت لتكون مثالًا للبراءة، تتوسـطه هاتان العينان الغريبتان...وكنت أبتسم ابتسامة باهتة عندما رفع حسن رأسه نحوي قائلًا: «**إلا انت بتاخد كام يومية يابراهيم؟**».

فوجئت بسؤاله فضحكت بصوت عال والتفتت هنية نحوي وابتسمت، لكن حسـن لم يبتسـم ولم يضحك وظل معلقًا عينيه بوجهي في انتظار رد على سؤاله.

اعتدلـت في جلسـتي نحـوه فلم يخفض بصـره هذه المرة بـل واجهني بنظرات واضحة مريحة ...أشـعلت سيجارة فقال على الفور: «**انت شربت تلات علب سجاير لحد دلوقت...بتجيب الفلوس منين؟!**».

أسـقط في يدي واضطربت حقًّا وضحكت كذبًا وتلجلجت لكني قلت له مراوغًا: «**إنت عندك كام سنة دلوقت ياحسن!**».

«**حداشر...لكن إنت بتاخد كام يومية؟!**».

حاولت الهرب منه دون جدوى، يبدو للعين أصغر من سنه بعامين على الأقل، هو نحيل – أيها السـادة – صغير الوجه بحيث لا يمكن لأحدكم أن يعطيه أكثر من تسع سنوات ولو يومًا واحدًا...رد على سؤالي حقًّا لكنه قفز منـه ليحاصرني بسـؤاله مرة أخرى...ماذا أقول لـه وأنا لا أعرف كم يقبض الجرسـون وكيـف يعيش يومه...خفست أن أذكر له رقمًا يكشـف جانبًا من سـري، ولم يكن أمامي سوى محاولة الهرب مرة أخرى: «**بتروح المدرسة ياحسن؟!**».

«**في الشتا...لكن هم بيدوك كام يومية؟!**».

تمنيت أن يصفق أحد أو يستيقظ المعلم محمد أو تحدث كارثة لتنقذني من عيني حسـن وسـؤاله الملح...لكن شيئًا في ذلك الوقت لم يحدث في الـدرب الذي ظـل غارقًا في الأسـن والسـكون، بقي كل شـيء على حاله وارتفع شخير المعلم محمد!!

اتضحت نظرات هنية وكشـفت عن نفسها في براح...أصبحت نظراتها صريحـة – أيها السـادة – كل الصراحة...تدعو ولا تصد، ترحب في هناء،

ويزداد إلحاح حسن بجوار أذني وهو يلحظ انصرافي عنه: «**هم بيدوك كام يومية يا براهيم...هيه...بتاخد يومية كام؟**».

قالها وكأنه يسد علي كل مسلك للهروب، قالها بصوت عال لا بد لي أن أسمعه، ونبرات واضحة بحيث خرجت كل كلمة تحمل معنى محددًا لا تأويل فيه، وبدأ يغزوني على الفور ذلك الإحساس بأني في معركة لا بد لي أن أنتصر فيها...فقلت لحسن: «**تفتكر أنا أستاهل كام ياحسن؟!**».

بلا تردد قال: «**لو أنا يعني معلم وصاحب قهوة...لو عندي يعني قهوة يعني...وباشغل صنايعي زيك كده يعني...لو يعني أنا كده يعني، أديلك 25 قرش في اليوم!!**».

ذكر الرقم وكأنه يضعني به في مصاف الآلهة...لكنه لاحقني على الفور: «**لكن انت بتاخد كام صحيح؟!**».

«**وانت بتاخد كام ياحسن؟**».

..تحول الموقف إلى كرة رحنا نتقاذفها فيما بيننا...رد علي حسن وهو يعتدل في جلسته: «**سبعة صاغ ونص...لكن انت.....**».

صمت ولم يكمل....

كان يبدو عليه وكأنه أيقن أن لا وسيلة لمعرفة أجري، بدا يائسًا.

يأسه مرسوم في تلك الخطوط التي راحت أصابع قدمه الحافية تصنعها وسط التراب...غمغم ببضع كلمات لم أسمعها، ثم سألني فجأة: «**انت ناوي تقعد على طول؟!**».

اختفـت مـن عينيه كل نظـرات التحـدي، انطفـأ بريقهما فبدتـا ذابلتين حزينتيـن، ظـل يرفع بصره إليّ ثم يخفضه إلـى الأرض وكأنه يريد أن يقول شيئًا، تمتمت شـفتاه بلا كلام، لم ينطق بحرف...ووجدت نفسـي أسـأله بدوري: «**تفتكر أنا انفع قهوجي ياحسن؟**».

بـدا حديثه وكأنه يكمل كلامًـا قاله من قبل، كان يتحدث بهدوء وخجل شديدين، كان وكأنه يتوسل:

«أصـل انا يعني ليّ اخوات كتير...سـتة...وأبويا كبير في السـن وخالي شـغل...ويعني انـا اللي...يعني انا باشـتغل في الصيف يـوم بحاله...لكن يعني لما الشـتا ييجي وتفتح المدارس، باروح المدرسـة الصبح يعني وبعد الضهر هنا...حاكم انا البكري!».

«إنت في سنة إيه ياحسن!».

«السنة اللي فاتت كنت كل يوم اشطب القهوة مع المعلم ممدوح، أطلع من المدرسـة الساعة تلاتة وعلى طول يعني...نشطب واروح البيت...و... نجحت السنة اللي فاتت لكن أبويا بيقول السنة الجاية مش رايح!».

«ليه ياحسن...ليه؟!».

«أصـل يعني سـنة تالتة فيها مذاكرة كتير، وكمان لما بـاروح اذاكر بعد التشـطيب بتفضل اللمبة والعة يعني وبتسـحب جاز...وأصـل يعني لما انا باشتغل نص يوم يعني...باقبض نص يوم بس!».

أحسست كأنـي مشـلول، رحت أبحث بسـرعة عـن كلام لأقوله فلم أجد...ابتسـمت وضحكت وربت على كتف حسـن وتحرك لساني داخل فمي لكن صوتي لـم يخرج، رحت أعبث في شعر حسن فنهض ودار حول نفسـه حتى واجهني، أحسست بالألم كالسكين يمزق صـدري، تحركت شـفتاي في محاولات يائسـة للحديث فلم أستطع، كنت أريد أن أقول شيئًا في أعماقي لا أدريه، كان هذا الشيء كالجنين يريد أن يخرج إلى النور لكن دونه آلاف العقبات...ابتسم حسن وهو يقول:

«**أنا باروح السيما كل يوم تلات**»...ثم دار حول نفسه مرة أخرى وجلس بجواري على المقعد ورفع إلي وجهه وأخذ يردد:

«**تيجـي تخـش معايـا سـيما سـتار يـوم التـلات الجاي...تيجـي؟!... تيجي؟!...**».

عبثًا حاول الصبي أن ينتزع منـي كلمـة، كنت كالأبلـه...فمي مفتوح ولا شـيء يخـرج منـه، وراح هـو يهز سـاقيه من جديـد فيهز معها جسـده كله هـزات رتيبة كهزات بندول السـاعة: «**سـاعات أختـي الصغيرة بتيجي معايـا!**»... ما الذي يمكـن أن أعرفه عن الناس؟...ما الـذي أريده حقًّا من مقهـى أبو النجـا بدرب الجماميـز؟... «**الجمعة اللي فاتت شـفنا فيلم آه يا نـاري!**»... إلـى أين أسـير وأيـن المفر من ذلـك الخوف الـذي راح يعربد فـي صدري من جديد، خوف مبهم من شـيء مبهـم... «**إنت أهلاوي وللا زملكاوي؟!**»... عاد حسـن إلى النهوض من جديد ووقف قبالتي مبتسـمًا

ثم تحولت ابتسـامته إلى ضحكة: «إيه يا براهيم،ما لك؟!»... وبآلام كآلام المخاض خرجت الكلمات من فمي تتعثر كأنها صرخات:

«لكن انت لازم تروح المدرسة يا حسن... لازم تتعلم».

انفجـر حسـن ضاحكًا بلا وعي، ثـم كتم ضحكته بكفه وهـو ينظر نحو المعلـم محمـد مرعوبًا، وظـل المعلم محمد في نومـه فاختفى الرعب من عينيه وهبطت اليد عن الفم وعاد إلى الوجه مرحه، وقال حسن:

«إحنا في إيه وللا في إيه ياجدع... إنت مسطول يا براهيم؟».

«انت لازم تروح المدرسة... لازم تتعلم... لازم... لازم!».

«أبويا بيقول لأ!».

«لكن انت لازم تقول آه... لازم...».

«باقول لك ابويا بيقول لأ!».

«إنت مش بتحب المدرسة؟».

«ما هو أنا أصلي لما باشتغل نص يوم... باخد نص يوم!».

«وماله... حتى ولو كنت حا.....».

«لكن انت ناوي تقعد معانا على طول صحيح؟!».

قاطعني بسـؤاله فجأة، لكـن نبراته هذه المرة كانت قـد خلت تمامًا من أي قلق، بدا حديثه بعد ذلك خاليًا من العصبية، عندما ابتسمت له استجاب

لابتسـامتي بلا تردد، قلت له وأنا أحول حديثي إلى همس: «**فيك من يكتم السر يابو علي؟!**».

اقتـرب مني حتى لفحت أنفاسـه وجهـي وقال في لهفـة وتأكيد: «**والله والله والله ما تخاف، وإن شا الله أنطس في عينيا ما تخاف!**».

وضعت يـدي على كتفيه ورحت أتملى في تقاطيع وجهه، وأحسست أني أبتسم هذه المرة من قلبي، فجاوبني على الفور بابتسامة أشد اتساعًا من ابتسـامتي، فقلت: «**اسمع... أنا مش حاقعد معاكم إلا جمعة واحدة بس... إيه رأيك؟!**».

وعلى عكس ما كنت أنتظر - أيها السـادة - اختفت الابتسـامة من وجه حسن، وجمدت النظرة في عينيه وهو يقول بلهفة:

«**وحاتروح فين يا براهيم؟**».

«**الدنيا واسعة يا حسن**».

«**لكن انت دورت على شغل؟!**».

«**أبدًا...**».

«**طب مش لما تلاقي شغلانة في حتة تانية؟!**».

هززت رأسي غير مصدق، أحسست كأن شيئًا ثقيلًا يجثم على صدري، ما الذي يريده حسن؟... ما الذي يقصده؟

«**مش انت عاوزني امشي من هنا يا حسن؟!**».

«أبـدًا وديـن النبـي وان شـاالله أنطـس فـي عينيـا أبـدًا... دا انــت حتى يعني......».

وكف حسـن عن الحديث، ثم سـاد بيننا الصمت للحظات كنت أرقب خلالها ابتسـامة حسـن وهي تولد من أعماق تقاطيعه وتشـبع بها عيناه، ثم شملت كل الوجه فبدت مشرقة كالنور الباهر...

«ما تخافش عليّ يا حسـن.. باب الله واسـع... والـرزق كتير ومحدش بيموت من الجوع!».

وانتفض حسـن وهو يتنهد من أعماقه بارتياح، لم يقل شـيئًا لكنه انفلت فـي خفـة ثم دار حول البنـك الكبير ووصل إلى النصبة فلـم يعد ظاهرًا منه سوى رأسه، وكان يقول:

«تشرب شاي يا اسطى؟ انت ما شربتش شاي طول النهار!».

وراح على الفور يعد لي كوبًا من الشاي!

- 8 -

«إيه يابو خليل.. انت نسيتنا واللا إيه؟!».

«أهلًا يا اسطى فاروق... أيها خدمة!».

قلتها وأنا أنتفض واقفًا... فقبل أن أشعل السيجارة، وقبل أن أرشف رشفة واحدة من كوب الشاي الذي أعده لي حسن في لون الحبر وقدمه لي فوق صينية كأي زبون محترم، قبل أن أستريح لإحساسي بالتعب وهو يتحول في عظامي إلى خدر كان يسري في مفاصلي... كان الأسطى فاروق يبتسم وهو يطلب مني:

«اتنين شاي وواحد قرفة وكباية القهوة بتاعة الأسطى عبد السلام!».

«عنية حاضر، هوا يا اسطى!».

«وما تنساش والنبي يا براهيم كام كباية مية نبلع بيهم اللقمة!».

«حاضر!».

عاد الأسطى فاروق من حيث جاء، وانفلت حسن بسرعة يعد الطلبات أمام النصبة، ورحت بدوري أجهز الصينية وأكواب المياه... لحظتها

بالـذات، تذكـرت أني لـم أذق طعامًا منذ أن اسـتيقظت مـن النوم، وتنبهت إلى أني عطشــان... فتحت صندوق المثلجات وحملت قطعة الثلج الباقية لأغسلها، كانت قطعة تملأ كف رجل، ووجدتني أنهال عليها تكسيرًا حتى فتتها إلى قطع صغيرة وضعتها جميعًا في أكواب المياه فراحت تتمايل على السـطح صانعة مع الجدران نغمًا رطبًا، قلت لحسـن وفكرة تنبثق في ذهني كالوهج:

«**جهز إنت الطلبات لحد ما آجي لك يا حسن!**».

نسيت جوعي وعطشـي وأنـا أحمـل الصينيـة وأندفع بها عبـر الدرب تلمـع فوقهـا أكواب المياه المثلجة، انثنيت إلى اليسـار متجهًا نحو ورشـة التماثيلجية...

«**المية يا اسطوات!**».

وجدتهـم متناثريـن في أركان الورشـة الصغيرة الضيقـة وهـم يمضغون الطعـام فـي صمـت، مـا إن دلفـت إلـى الداخل وصحـت صيحتـي حتى ارتفعـت نحوي كل العيون ثـم انزلقت إلى الصينية، تبادلـوا النظرات فيما بينهم واتسـعت عيونهم دهشـة، ثم قال الأسـطى رمضان بشفتيه الغليظتين البيضاوين:

«**إيه ده يا اسطى براهيم... مية بالتلج؟!**».

نفـس الدهشـة التي أصابـت الإسـناوي، الأيـدي تتخاطـف الأكواب وتزدرد المياه بسـرعة ولهفة... وتبقى في الأكواب بقايا قطع الثلج فيصيح الأسطى عبد السلام:

«والنبي يا بو خليل تناولني القلة اللي جنب الباب!».

ولكنـي لا أناولـه القلة وإنما آخذها وأصب بنفسـي فـي الأكواب حتى تمتلئ من جديد... نظر إلي الأسطى فاروق وقال:

«والنبي عترة يا بو خليل وحياة مقام السيد!».

«أنا في الخدمة يا أسطوات، إحنا عندنا أغلى منكم؟!».

«تعيش يا أمير...».

وسألني الأسطى رمضان:

«لكن أبو النجا سابك تحط تلج في المية إزاي؟!».

«كان نايم يا اسطى!».

انفجروا ضاحكين والأسطى عبد السلام يسأل:

«إنت منين يا براهيم؟».

«من هنا!».

«وطول عمرك في الصنعة دي؟».

لم يعد الكذب شيئًا يحسب له حساب...

«أبـدًا... دانا كنت براد يا اسـطى بـس... ربنا ما يحكـم عليكم، وقعت على دراعي انخلع، قعدت شهرين في المستشفى والدكتور قال لي....».

«يعني إحنا ولاد كار واحد؟!».

«آهي كلها لقمة عيش يا اسطى!».

«معلش يابو خليل، بكرة تتعدل وتبقى عال!».

غادرت الورشة الصغيرة وأنا أكاد أراهم من بعدي كيف يتحدثون عني، أكاد أرى نظرات الدهشـة في عيونهم، وأسـمع كلمات الإعجاب تنطق بها شـفاههم... كيف قلـت ما قلت؟... كيف نطقت بكل هـذا؟... لا أدري.. كل مـا أدريـه أني كنـت أندفع نحو المقهـى لأعد الطلبـات بحماس، وأني استقبلت نظرات هنية من أول الدرب بزفة... صحت بكل صوتي نشوان:

«قلبي من الشوق بيعرج يا جميل!».

ضحكـت هنية، وضحكت وأنـا أرصُّ الأكواب فوق الصينية من جديد، حملتها على كفي وأسرعت عائدًا بها إلى الورشة، اندفع حسن رافعًا يديه:

«عنك انت يا اسطى!».

لكني كنت قد ابتعدت عنه وتركته على باب المقهى يتبعني بعينيه، كنت أسير في الدرب متراقصًا متمايلًا إلى اليمين واليسار وكأني أسبح في بحور من السعادة... ما إن دلفت إلى الورشة حتى صكت أذني جملة كان يقولها الأسطى رمضان:

«حانفضل نلتّ ونعجن كل يوم كل يوم.... ما احنا لازم نرسى لنا على بر!».

وضعـت الصينيـة فـوق «التزجة» التي تتوسـط الورشـة وسـط صمت أطبق فجأة على المكان، تشـاغل الجميع بأكواب الشاي أو الطعام وراحوا يمضغون أو يرشفون، أدرت بصري فيهم فلم تطالعني سوى وجوه خفضت كلها وعيون تشـاغلت بأي شـيء... أحسسـت أن في الأمر شـيئًا؛ فرحت

أجمع الأكواب الفارغة وأقلب الشاي وأصب القهوة وأعجّل بالرحيل... غادرت الورشة وفي قلبي شيء غريب، شيء كالسر أسقطته جملة الأسطى رمضان في صدري، وتركته معلقًا بلا جواب...

■■■

غير أني - أيها السادة - نسيت كل هذا بعد ثوان، نسيته وأنا ألمح هنية تقف بباب المكتبة وفي يدها كوز نصفه صدئ ونصفه الآخر انطفأت لمعته، وكلما اقتربت من المقهى خطوة، اعتدلت هنية في وقفتها كمن يستعد للحركة، على بعد خطوات منها كانت سعدية تقف وعلى وجهها المغسول ابتسامة غريبة... لا بد أنها جاءت أثناء غيابي عن المقهى، شعرها لا يزال مشدودًا إلى الشريط الأحمر، وعيناها ترمقانني بتلك النظرة الجريئة المتفحصة... خطوة أخرى وتبادلت الفتاتان النظر من جديد، أسرعت متجهًا نحو المقهى وقد انتابني الارتباك، فناس الشارع قد بدءوا يظهرون والوجوه بدأت تطل من خلف الأبواب والنوافذ، ما كدت أخطو داخل المقهى حتى توقفت وقلبي يخفق... خلفي تمامًا كنت أسمع زحف الشبشب وهو يعبر الدرب في بطء شديد، أمامي وقف حسن منتصبًا خلف البنك الكبير وعيناه ترقبان في وعي وتوجس، على وجهه ابتسامة كانت تنبع من تحت الجلد المشدود، في الركن الآخر من المقهى كان المعلم محمد لا يزال غارقًا في تعسيلته، وشخيره يرتفع بين الحين والحين، زحف الشبشب يقترب ويقترب في لحسات طويلة لأرض الدرب، التفت إلى الوراء فطالعني وجه هنية، أمامي، بيني وبينها شبران أو ثلاثة، خلف الوجه مرقت الدكتورة بشعرها الهائش ونظراتها المتعالية وخطوتها

السريعة القلقة، ثم اختفت في عطفة النيدي في نفس اللحظة التي ظهر فيها الشـاب الذي تبعها في الصباح، سلم على عمران وسحب كرسيًّا في الظل وجلـس عليه وهو يمسـح عرقـه ويجيل بصره في الدرب السـاكن، فتحت فمي لأسـلم على هنية، لكن صوتها انسـاب إليّ في سكون الظهيرة الآسن وكأنه حفيف مياه تنحدر في غدير:

«سي براهيم... عطشانة!».

العيـن في العيـن، واليد حول اليـد وبينهما الكوز... رجفـة تصيبني مع تسـلل أصابـع هنية من تحـت أصابعي الملتفة حـول يدها والكـوز معًا... ابتسمت... وابتسمت...

«من عنية يا ست هنية».

«تسلم لي عينك إن شاالله... بس عاوزاها بالتلج!».

فرغ الثلج منذ ثوان فماذا أفعل؟!

«غالية والطلب رخيص يا ست هنية... واد يا حسن!».

«أيوه يا اسطى براهيم!».

لبى حسـن النداء في شـهامة من يقدر الموقف حق قدره، اندفع نحوي مسـرعًا ورفع إليَّ عينين تقولان: اؤمر... أخرجت قرشًا من جيبي ودفعت به إليه:

«روح هات بده تلج يا حسن... طيارة!!».

«هوا يا اسطى... هوا».

اختفى حسن، وارتفع شخير المعلم محمد، وخرج صوتي هامسًا:

«من العين دي قبل العين دي يا ست الكل!».

«تسلم لي عينيك يا سي براهيم... خش من الشمس بقه!».

أطلت سعدية من خلف زجاج دكانها في نفس اللحظة التي خفضت فيها هنية رأسها وطغى لون الدم على وجهها، وانفلتت عائدة نحو المكتبة.

دقت ساعة جامعة القاهرة الخامسة مساء وأنا في وقفتي عند باب المقهى أنتظر حسن وفي رأسي فراغ كبير، هنا - أيها السادة - في هذه اللحظات بالذات، كان يحدث لي شيء غريب... كنت أنسى حقيقتي وأمارس لأول مرة منذ الصباح إحساسًا مباشرًا لشيء بعينه، لم يكن إحساسًا غامضًا أو غير واضح، بل كان في قوته ووضوحه كالشمس التي لامست جدران البيوت في ميلها نحو الغرب... أحسست بميل شديد نحو هنية، واستجابة كاملة مخدرة لكل ما يحيط بالتجربة من معالم، لمحت حسن على البعد يعدو وبين كفيه قطعة الثلج لامعة، غسلت الكوز وملأته بالمياه ورحت مع حسن نكسر الثلج إلى قطع نبدرها فوق زجاجات المثلجات في الصندوق، حملت الكوز بمياهه الباردة وقطعة الثلج العائمة فوقها وعبرت الدرب في خطوات جسورة، مددت يدي إليها بالكوز وأنا أقول:

«التلج داب يا هنية!».

«الدنيا حر يا سي براهيم!».

«ما يمكن بيحب... حد عارف؟!».

وامتدت بيني وبينها يد تحمل كوزًا صغيرًا حجب الوجه عني، فخجلت وأنا أخطو إلى الوراء... صافحتني نظرات سعدية في حرارة وهي تقول:

«إحنا مالناش نصيب يا سي براهيم والا إيه؟!».

تلعثمت ابتسامتي فوق شفتي وارتبكت ولم أستطع التماسك بحال من الأحوال، أخذت الكوز من يدها، وضحكت هنية واهتز جسدها وراحت تتمايل من الضحك حتى سالت المياه على جوانب كوزها، أحسست بالدماء تلفح وجهي، والعرق يسيل من خلف أذني، فعدت إلى المقهى وأمرت حسن أن يملأ الكوز بالمياه والثلج... وصحا المعلم محمد وفرك عينيه وصاح:

«مين اللي جاب التلج ده؟!».

انتبهت على صوته فالتفتُ نحوه فبادرني قبل أن يصحو تمامًا من نومه:

«مش كده يا اسطى براهيم، القهوة على كدة مش حاتجيب مصاريفها؟!».

«يا براهيم!».

نداء لم يعطني الفرصة للرد عليه، صاح العجلاتي وقد عاد:

«الشاي يا بو خليل!».

قلت: «حاضر»... وراح المعلم محمد يعد الشاي، وأخذ حسن يكنس المقهى وبدأت الحياة تدب في الدرب من جديد، تعالت صيحات العيال وزقزقتهم، وهبت نسمة رطبة من ناحية شارع الخليج، ونسي المعلم محمد مسألة الثلج ولم يتذكرها إلا عندما كركرت عربة الثلج من جديد في الدرب، ووقفت العربة أمام المقهى، فصاح المعلم منبهًا:

«الصبح بقرش... وبعد الظهر علشان البيرة والكازوزة حتة بقرشين!».

لم يسأل بائع الثلج بكم نريد... أمسك بقطعة حديد سوداء اللون وراح يدق بها في لوح شفاف بدا في تلك اللحظات كأنه ثوب رائع لعروس من عرائس البحر... كان الرجل يعرف مقدمًا بكم سيبيع... لذلك فعندما صحت فيه وأنا أهبط الرصيف إلى الشارع: «كسر حتة بتلاتة صاغ يا معلم!»، عندما قلت ذلك توقفت يده في الهواء، ورفع نظره نحوي فبدا وجهه في ظلال الدرب وكأنه طلي بطبقة شديدة البياض؛ كانت شعرًا غزيرًا نابتًا في الذقن والشارب والوجنات ولم تخل منه الجبهة العريضة... دق المعلم محمد من خلفي بالماشة فوق رخامة البنك وقد فقد صبره وأخذ يصيح:

«جرى إيه يا اسطى... بشلن تلج في اليوم؟!».

أطلق بائع الثلج ضحكة اتسع لها فمه فبدا خاليًا تمامًا مظلمًا تمامًا إلا من لسان شديد الاحمرار لا يبدو منه للناظر سوى طرف مدبب كالحربة!... اهتز جسده وطوّح بذراعه في الهواء وهو يقول طربًا بكل صوته ليسمع أهل الدرب:

«أبو النجا ياخد بشلن تلج؟... ميت صلاة ع النبي، القيامة حاتقوم يا ولاد!».

ولم يطق المعلم محمد، فاحتد وهو يغادر مكانه غاضبًا:

«ما تلم لسانك يا راجل يا...».

ولم يلم الرجل لسانه بطبيعة الحال، تقهقر إلى الخلف فجأة ووضع قطعة الحديد بين فكيه، وشلح طرف ثوبه المهلهل، فبان جسده كله من

الداخل عاريًا... وتعالت في الدرب عشـرات الضحكات، وكأن الجدران والأبـواب والنوافـذ قـد لفظـت كل ناسـها في لحظـة واحـدة، واختلطت ضحكات الرجل الغليظة بشقشـقة الفتيـات اللاتي رحن يدارين وجوههن عن الرجل في خجل طروب، وكان بائع الثلج العجوز يرقص وسط الدرب طربًا، بينما نظر المعلم محمد نحوي معاتبًا وهو يقول:

«عاجبك كده يا اسـطى!... لم إيدك بقى شـوية أحسـن المعلم ممدوح يزعل!».

ولا أكذبكم القول - أيها السادة - كنت قد نسيت المعلم ممدوح تمامًا، ولم أتذكره إلا في تلك اللحظة فقط.

غاب عن ذهني تمامًا منذ جئت إلى المقهى في الصباح... نسيته ونسيت أنه يأتي إلى المقهى في السادسـة من مسـاء كل يوم ليبقى حتى آخر الليل، نسـيت أنه صاحب المقهى الحقيقي، وأن الكلمة كلمته، والأمر أمره... ثم تذكرت كل هذا في لمح البصر، فقلت مواسيًا المعلم محمد:

«التلج الزيادة على حسابي يا معلم... متخافش!».

ثـم التفت نحـو العجوز الـذي كان لا يـزال يردد في الـدرب صيحاته، ويطلق في وجوه الناس نكات بذيئة، وقلت في حدة:

«مـا تلـم لسـانك يا راجـل يا عجـوز انت... هـات بتلات قـروش تلج وخلصنا!».

لـم يعبأ العجوز بلهجتي، فأطلق من أنفه صوتًا سـاخرًا وقبيحًا... وكاد يبـدأ من جديد جولة أخرى يرقص فيها ويطلـق النكات، لولا أنه بدا وكأنه تذكر شـيئًا، فقد توقف فجأة وبلا مقدمات، واندفع نحو العربة وراح يكسر قطعـة ثلج أكبر من الأولى وهو يدمدم بكلام غير مسـموع... ناولني الثلج بسرعة وانطلق يعدو بعربته وسط ضحكات أهل الدرب وصيحاتهم خلفه، وكان آخر ما قيل عنه قبل أن يختفي في الطرف الآخر من الدرب:

«دلوقت يرجع يسب الملة والدين ويقول التلج ساح مني!!».

قالها المعلم كامل الكتبي وهو يدخل الدرب من ناحية الجامع، مخاطبًا المعلـم فتـح الله الذي كان قد وصـل لتوه مع زوجتـه، وكان المعلم كامل يشـير إلـى بركة الميـاه التي تبقت علـى أرض الدرب بعد رحيـل العربة... وكان الجميـع يطلقون ضحكات عالية مرحة، كانوا يضحكون ويضحكون حتى اغرورقت عيونهم بالدموع، والتقت عيناي بعيني هنية، كانتا باسمتين مشـرقتين تفيضان بالابتسام على الوجه كله، وزاحمني حسن في مرح وهو يأخـذ عني قطعـة الثلج ويحملهـا إلى الصنـدوق ويرتب زجاجـات البيرة والمثلجات... أحسست لحظتها أني أعيش في حلم غريب، كنت أضحك وقتهـا من أعماقـي، كنت أضحك وأنـا أريد أن أضحـك، وكان الناس من حولـي يسـتقبلون تلك السـاعة بحفاوة خاصـة، وبدا عندئذ ثـوب المعلم ممدوح النظيف اللامع – وكان يدخل الدرب من حيث غادره بائع الثلج – مفتوح الصدر كأنه يستقبل فيه الحياة.

- 9 -

قبل الغروب بقليل وقع في تاريخ مقهى أبو النجا حادث غريب.

كان المعلم كامل الكتبي - أغني أغنياء الدرب وأحد أعيانه، إن كان للدرب أعيان غيره! - كان قد أعجب بنشاطي ومثلجاتي الباردة وكوب المياه الذي تدندن فيه قطع الثلج بدلال يسيل له اللعاب... وسحب مقعدًا أمام مكتبته وصفق وطلب مائدة وطاولة لينازل أحد أصدقائه الجالسين معه، ثم قال بحماس شديد وأنا أضع الطاولة أمامه:

«اللعب على خمسة كازوزة!».

كان عدد المجتمعين حول المعلم كامل وصديقه ثلاثة أشخاص... وكانوا جميعًا يحملقون في وجهي باستعلاء فيه مسحة من تواضع، وفي عيونهم شك تعمدوا أن يظهروه، وعندما قال المعلم كامل: «حضر لنا خمس قزايز وسقعهم كويس»... أيقنت أن الأمر فيه امتحان وعندما أضاف مخاطبًا أصدقاءه بعد ذلك: «متخافوش... المية عند أبو خليل بحتة التلج، والطلب على ودنه!»... تأكدت أن هذا الامتحان سيكون عسيرًا، ولا داعي لإغضاب المعلم أو تقصير رقبته في الدرب وأمام أصدقائه الذين

لا بـد تعودوا على قضاء الوقت ولعب الطاولة في مكان أعلى مسـتوى من مقهـى أبو النجـا... وعلى كل - أيها السـادة - فقد خفضـوا أبصارهم بعد ذلـك وراحـوا يتابعون الزهر الذي كان يتدحرج فـي نقر منتظم ظل يدقدق في الزقاق منذ تلك اللحظة إلى ما بعد منتصف الليل بساعة أو يزيد...

ولكـن المعلـم كامـل بعـد أن خسـر الجولـة الأولى وشـرب كل منهم زجاجة مثلجة، دفع لي ثمن الزجاجات الخمس مبتسـمًا، ثم مد يده بقرش وهو يقول بصوت مرتفع، ورقبته مشرعة في الهواء كرمح يحمل رأسًا:

«مش خسارة فيك والنبي يا بو خليل!».

لحظتهـا - أيهـا السـادة - انتابتنـي أحاسـيس غريبة، امتـدت يدي إلى القرش الذي نفحني به الرجل وكأن شيئًا جللاً يحدث في حياتي، عشرات المشـاعر المتضاربة المتناقضة كلها في آن واحد، إحسـاس غامر بالسعادة يخالطه إحسـاس غريب بالسـخرية والرغبة في الضحـك وإعلان الحقيقة علـى الناس، احتقار شـديد لتلـك الرغبة ممتزج - وبقدر مسـاو - باحترام شـديد للقرش نفسـه، دهشـة ممزوجـة بالمـر.... لا .... لالا..، لا تطلبوا منـي أن أصف لكم ما أحسسـت به لحظتها، إنه أكبـر مني، أكبر من تعبيري القاصـر... غيـر أنـي أخذت القـرش وعدت إلـى المقهى وقد بـدأ اللعب - بحمـاس أشـد ممـا كان - على خمـس زجاجات أخـرى... وقفت أمام المعلـم محمـد وفي يدي القرش وأنا أنظر إليه ضاحكًا... سـألني عما بي، فرفعـت القرش أمام عينيه فارتفعت مع القرش عينا حسـن واقترب الصبي مني كقطة جائعة، رددت النظر بينهما ثم قلت في طرب واضح:

«المعلم كامل اداني القرش ده بقشيش!».

انقض حسن بمخالب يمناه فاختطف القرش من يدي وهو يقول مبهورًا: **«وريني كده!»**.

راح يحملق في القرش ويقلبه بين يديه، بينما كان المعلم محمد يسألني في شغف وغير تصديق:

«بتتكلم جد...إدالك قرش بقشيش بصحيح واللا بتهزر؟!».

وامتدت يد حسن تحمل القرش إليَّ من جديد، فقلت له باسمًا:

«القرش ده علشانك يا حسن!».

فارتدت يده في لمح البصر، وقبل أن أكمل جملتي، تقبض على القرش من جديد وتضمه إلى صدره في حرارة ووجهه يطق بشرر ضاحك...وقال لي المعلم محمد: **«وأنا يعني بلاش واللا إيه؟!»**.

كان يحدثني وعيناه الغريبتان تنهشان قبضة حسن التي تضم القرش، فابتلع حسن ضحكته الكبيرة ومادت السعادة من وجهه ولفظت عيناه تلك النظرات الحادة الحائرة...فقلت على الفور وأنا أقف بينهما:

«إنت مرة وهو مرة يامعلم محمد...المرة الجاية لك!».

وعادت إلى حسن ضحكته الكبيرة...

وكان هذا – أيها السادة – هو الحادث الغريب الذي وقع في مقهى أبو النجا قبل الغروب بقليل...

فسرعان ما غادر المعلم محمد مكانه خلف النصبة في حماس وضجيج وهو يزعق فيَّ تارة وفي حســن تارة أخرى، منظمًا الجو حول شـلة المعلم كامل، مرتبًا المقاعد صائحًا بين الحين والحين:

«تعالـى يـاواد يا حســن إكنـس الأرض حواليـن عمـك كامل...تعالى يـا براهيـم رش هنا مية تجيب طـراوة لعمك كامل...فيـه كازوزة كفاية في الصندوق؟...سقعها تمام قوي للمعلم كامل....و....».

ولسـت في حاجة - أيها السـادة - لأن أوضح لكم سـبب هذا الاهتمام المفاجئ بالمعلم كامل وتوفير أسباب الراحة له والرفاهية...لست في حاجة لأن أوضح لكـم سـبب كل هذه الزيطة التي صنعها المعلم محمد معلنًا في الدرب أن شيئًا خطيرًا قد حدث...غير أني في حاجة لأن أقول لكم إن هذا الاهتمـام لفت نظر الجميع، وكان أول من لاحظ الأمر هو المعلم ممدوح بطبيعـة الحال، فقد نهض من مكانه علـى الرصيف الآخر حيث جلس منذ جاء، وعبر الدرب إلينا واقترب من المعلم محمد وهو يجول ببصره في كل ما حوله ثم همس من بين شفتيه: «**إيه الحكاية دي؟!**».

وبادلـه شـقيقه الهمـس وهو يتحـرك هنا وهنـاك وعلى وجهه ابتسـامة سجنتها ملامح لا تريد أن تعبر عن الحقيقة:

«براهيم استفتح... عم كامل إداله قرش!».

وسـرى الاهتمـام إلى ممـدوح على الفـور، أخذ مني الخرطـوم وراح يـرش الأرض بعـد أن طلب مني الاهتمام بالمشـاريب وتسـقيع الكازوزة كمـا يجـب...راح الشـقيقان يصنعـان من الجلبة مـا هيأ الجـو تمامًا حول

شـلة المعلـم كامل ولفت إليهـم كل الأنظار...وكان لا بد أن يتسـاءل أهل الزقـاق وأن يتقصوا سـر هذا الاهتمـام المفاجئ... وقد علـم أهل الدرب بـكل مـا حدث - ولا أدري كيف - غير أن أول مـن عرف كان المعلم فتح اللـه... فمنـذ أن بدا هذا الاهتمـام وهو يتململ في مقعده ولا يسـتقر على حـال، نهض وراح وجاء ودخـل المكتبة وعاد منها حتـى وصل إليه الخبر فاسـتدعى صديقًا - لسـت أدري كيف - وسـحب كرسـيًّا وطلب الطاولة وجمع صديقين آخرين ولعب على أربع زجاجات.

لـم تمض دقائق حتى كانت المباراة الحقيقية بين صوت المعلم فتح الله وصياح المعلم كامل وتهليل الشـلتين والصراخ للعبة الخاسـرة والكاسـبة على حد سواء!!

كان هذا الذي يحدث في تلك الساعة من اليوم في درب الجماميز شيئًا غريبًـا، وكان لا بـد للناس من أن يلحظوا وأن يسـألوا أيضًـا... وكان لا بد للجميـع مـن أن يعرفوا أن مقهى أبو النجا يبيع الكازوزة مثلجة، وكان لا بد للبعض من أن يغامر ويجرب، وكان لا بد للبعض الآخر من أن يسـأل وأن يتأكد، ثـم لا بد له أن يطلب!!

وانبـدر الـدرب بالفتيـات الصغيـرات وقد جئن ليشـترين زجاجتين أو ثلاثًـا... ووصلت الطلبات إلى أربـع زجاجات ولا يهم الصنف، كل ما يهمهن: «بس يكونوا سـاقعين قـوي!»... بهت المعلم محمد عندما طلبت صندوقًـا آخر وثلجًا آخر فهرول يأتيني بالصندوق وجرى حسـن ليشـتري مزيدًا من الثلج... انتابتني نشوة عارمة ولـم أعد أكف عن الحركة واستقبال نظـرات هنية والرد عليها بأحسـن منها، زاط الزقـاق وامتلأ بالأطفال وعلا

الضجيـج وتـردد اسـمي علـى كل لسـان؛ فالذي يعطـش يطلب مـاء باردًا مـرة، وربما مرتيـن، لكنه في المرة الثالثة لا بد أن يسـتحي وأن يطلب طلبًا ويدفع قرشًـا... علم التماثيلجية بأمر الكازوزة فأرسـلوا يطلبون لكل منهم واحـدة... وامتـدت يد الأسـطى رمضان إلـى إحدى الزجاجـات والتفت أصابعه حولها ثم قال بدهشة:

«إيه الحكاية يا بو خليل، انت مش حاتخلينا نسهر الليلة بره الدرب وللا إيه؟!».

قلت ويدي تعمل في سدادات الزجاجات الباقية بسرعة وهمة:

«يا ألف مرحب، أيها خدمة يا أسطوات، تآنسوا وتشرفوا!».

ورفع إليَّ الأسطى عبد السلام رأسه وتحسس زجاجته ثم قال:

«ماشي كلامك يا براهيم... الليلة حانسهر عندك!».

وصاح الأسطى فاروق بنبرة مرحة:

«بس سقع لنا كام قزازة بيرة كده على مزاجك يعني... وروَّق لنا مدخل العطفة وخلي الوله حسن يرشه!».

عدت إلى الدرب فاستقبلني المعلم فتح الله، وكان يصفق بكل كفيه في فرقعة مدوية وهو يصيح لاويًا رقبته التي انتفخت ناحية المعلم كامل:

«الكازوزة الساقعة يا براهيم... يا براهيم... هو انا لا قي لعيبة يا خلق!!».

وكان الأصدقاء من حوله يرددون بين الصيحة والصيحة:

«إلعب التانية... إلعب غيرها!».

كان واضحًا أن المعلم فتح الله قد كسب الجولة، وأنه لا يريد أن يرد على أصدقائه، وأنه كان سعيدًا إلى حد يفوق الوصف، وأكثر ما كان يسعده في تلك اللحظات بلا شك أنه كسب وأن المعلم كامل يسمع النبأ...

ابتسمت هنية وأنا أجهز الزجاجات لأبيها، وأومأت بعينيها كأنها تقول شيئًا... كان أبوها وأصحابه يجلسون بمقاعدهم على أرض الدرب بينهم وبينها عرض الرصيف، وبالرغم من ذلك حملت الزجاجات إليها، ووضعتها أمامها، والتهمت عينيها ورحت أهمس وأنا أفتح الزجاجات في فرقعات كانت تدوي في الدرب كله:

«وآخرتها يعني!».

«آخرتها معاك إنت... حد يسمعنا!».

قالتها في غضب مغموس في فرح غامر، واستدارت ناهضة وهي تحمل إحدى الزجاجات إلى حيث يجلس أبوها، فرت مني في خفة تدعوني لمطاردتها من جديد، حملتها بقية الزجاجات إلى الرجال، وعدت إلى المقهى وأنا أرمق بجانب عيني ابتسامتها المتبادلة مع سعدية وعودتها إلى مكانها عند باب المكتبة... انهلت على الثلج تكسيرًا وملأت به أربعة أكواب حملتها من جديد إلى حيث كانت هنية، كنت في تلك اللحظات أشعر وكأن دمائي تغلي في عروقي، وكان انقضاضي عليها سريعًا ومفاجئًا، رأتني أفتت الثلج وأضعه في الأكواب لكنها أبدًا لم تظن أني عائد به إليها... ارتجفت وامتلأ وجهها بالدماء وتشاغلت أمها بطفلها الرضيع تلاغيه حتى لا تلحظ ولا تسمع، تبلبلت عينا هنية وتهدج صدرها وأنا أقول بصوت حازم خفيض:

«بالذمة يعني مش حرام العمايل دي؟!».

ردت مرتجفة وبصوت هامس لا يكاد يبين:

«أبويا يا سي براهيم... أبويا يسمعك!».

كنت آخذ الزجاجات من أمام الرجال لأعود بها إلى حيث الأكواب فأملؤها على مهل ودون أن أضيع من الوقت ثانية واحدة...

«أنا اتعذبت كتير...».

«اسم الله... من الصبح لقبل العشاء بساعة؟!».

«تصدقي وتؤمني بالله.... زي ما أكون أعرفك طول العمر!».

«أبويا يا إبراهيم... أبويا يسمعك».

رفعت الألقاب وزال الحجاب، وبقيت في يدي زجاجة واحدة... **«وما له لما يسمع... هو أنا طالب شيء حرام... أنا بحب!»**.

وامتلأ الكوب وفرغت الزجاجة وافترَّ ثغر هنية عن ابتسامة سحبت الدماء من الوجه إلى الشفتين، ورقصت العينان طربًا، واستدرت عائدًا إلى المقهى بنشوة من كسب معركة عمره... كنت سعيدًا فرحًا أكاد أرقص على أرض الدرب الذي تحول إلى مولد يملؤه الحديث والصياح والكلام والأغاني التي راحت تلعلع في الراديو لتسمع الجيران وجيران الجيران... غير أني ما كدت أخطو خطوة في طريق عودتي حتى تسمرت قدماي في الأرض وأنا أحملق في مدخل المقهى، حيث كان صديقي الدكتور سمير يقف بقامته المديدة الفارهة، ينظر إليَّ ويبتسم!!

- 10 -

كان صديقـي الدكتور سـمير – أيها السـادة – يضحـك، أو بمعنى أكثر دقة، كان يبتسـم ابتسـامة كبيرة تملأ وجهه وهو واقـف بباب المقهى وبيده مقعـد خـالٍ لسـت أدري من أين جـاء به... كان فـي وقفته هـذه كمن يريد أن يعلـن للنـاس جميعًا أنه يعرف شـيئًا لا يعرفونه، وأنـه يحمل في صدره سـرًّا مهولًا، وأن هذا الجرسـون ليس جرسـونًا، بل هو صحفي اسمه فلان الفلانـي بالمجلـة الفلانية، وأنه يقوم الآن في غفلة عنهم بتجربة سـتحدث دويًّـا كالقنبلة إذا ما سـقطت وسـطهم يوم يعرفون الحقيقـة التي يعرفها هو الآن، وحده، دونهم!!

كان سـمير سـعيدًا وأنـا أقترب منـه حاملًا المائـدة النحاسـية الصغيرة لأنقلهـا إلـى جواره، ثـم أنهال عليهـا تنظيفًا بنشـاط مبالغ فيـه وأنا أهمس بصوت واضح النبرات:

«اتفضل يا بيه، أيها خدمة؟».

ازدادت ابتسـامته اتسـاعًا وهـو يجلس علـى المقعد واضعًا سـاقًا فوق ساق، قائلًا من أطراف أنفه بأسلوب مبالغ فيه:

«عندكم كوكا كولا؟!».

وصديقي سـمير - أيها السـادة - كان يعلم أن قهوة «أبـو النجا» لا تبيع الكـوكا كولا، عرف هذا بالأمس ونحن جالسـان مع المعلم محمد... فقد طلب بعد الشاي زجاجة كوكاكولا فقال له هذا:

«والله إحنا ما نجيبهاش، فيه عندنا بسكال واسباتس إذا حبيت!».

حدث هذا بالأمس فقط، وهو لا بد يذكره فصديقي سـمير لا ينسى أبدًا تفاصيل السـاعات المثيرة... فما الذي كان يريده من سـؤاله هذا؟... قلت لـه بصوت مرتفع وأنا أكتم في صدري بركان الغيظ الذي انفجر في داخلي فجأة: **«والله يا بيه، عندنا بسكال واسباتس بس!»**.

لوى سـمير شـفته السـفلى في تمثيل رديء مبالغ فيه، فلـو أن طفلًا رآه وانتبه له في هذه اللحظة لعلم على الفور أنه يتصنع كل هذا وأنه يريد شـيئًا آخـر لا يُشـرب... المهـم أنه طلب زجاجـة وضعها أمامـه وراح يمتص ما فيها على مهل وهو يحدجني بنظراته تارة، ويجيل البصر في الجالسـين في الدرب طورًا آخر.

وكنت أتحاشى الاقتراب منه، لا لـخوف - أيها السادة - فلم أكن خائفًا بـل كنت قبل مجيء سـمير أحس وكأنـي أعيش في بيتي ومـع أهلي... بل لأني كنت موقنًا أنه لا بد أن يجاذبني أطراف الحديث استظرافًا من ناحية، وتوقيعًـا ببصمتـه على التجربة من ناحية أخرى... هو يريد أن يحكي شـيئًا بعـد انتهـاء التجربة وفرقعتها فـي المجلة... يريد أن يحكيه في اسـتخفاف قائلًا إنه كان هناك وإنه قال كذا وفعل كيت وإن...

وقد بدا على وجه المعلم ممدوح ظل ابتسامة سرعان ما ابتلعها وإن طفا زبدها على الشفتين بين الحين والحين كالموجة الهادئة... أما المعلم محمد فقد وجدها فرصة وصاح ثلاث مرات متعاقبات وبصوت مرتفع يسمعه كل من في الدرب:

«تخلي بالك من البيه هنا يا إبراهيم... تخلي بالك قوي!».

كان يريد هو الآخر أن يثبت لسمير أنه موجود في اللعبة... وأنه يفهم خباياها وأسرارها...

لكن الناس في الدرب تهامسوا فيما بينهم حول هذا الغريب الذي جاء، سألني المعلم كامل عن: «الأفندي ده!»، فقلت له إني لا أعرفه، وسرعان ما نسي الرجل الموضوع - كما فعل جميع الناس بعد دقائق - وانهمك من جديد في لعب الطاولة الذي وصل في تلك الساعة إلى ذروة حدته... وانشغل أهل الدرب في أحاديث كل يوم، كما انشغل الطلبة الذين تجمعوا أمام مكتبة عمران في تسلق الجدران بعيونهم، والمناقشة التي كانت تحمى وتمتد وتصل إلى درجة الصراخ دون أن يسمعهم أحد... وبانت في الجو سحابات شجار سينشب بين العجلاتي والحلوانية، فقد صاحت الحلوانية فجأة بكل صوتها وهي تحملق في دكان العجلاتي المقابل لدكانها تمامًا، وهي لا تحدث أحدًا بالذات:

«مش كل واحد يختشي ويتلم واللا إيه؟!».

قالتها وسط زيطة العيال والكبار ونداء بائع الدندرمة وصراخ صفارته المشروخة وأحاديث الطلبة عن الفرق بين سارتر وكامي... فلم يسمعها

كل النـاس، أو سـمعوها جميعًا والتفت البعض منهـم نحوها للحظة، لكن العجلاتـي كان قـد نهض ودلف إلى محله واختفى فيـه، وعادت الحلوانية إلـى دكانها الصغيـر، وتلخلخت الضجـة بريح صمت خفيفـة، ثم عاد كل شيء إلى حاله.

انهالـت الطلبات حتى أصبح من المسـتحيل علـيَّ أن ألاحقها، فخرج حسـن مـن مكمنه أمام الحوض وراح يسـاعدني في شـغف وعينـاه تنفثان بريقًا أخَّاذًا... كان سـعيدًا كل السـعادة... يمنحني بين الحين والحين نظرة امتنان وشـكر... اقترب مني والظلام يطبق برفق على الدرب، وشـب على أطراف أصابعه ثم همس:

«أسطى براهيم... يا اسطى براهيم!».

انحنيت عليه وأنا أحيط كتفه بذراعي وأسأله عما يريد.

كنـت أبتسـم لحظتها فـي سـعادة... فكل شـيء كان يبدو لـي في تلك اللحظـات رقيقًا كنسـمـات الهـواء التي راحت تهب مـن عطفة النيدى... ولا بد أن تلك الرقة وذلك الإحساس العميق بالسعادة قد سريا إلى حسن، فقـد رفـع ذراعه وأحاط به كتفي، وشـب علـى أطراف أصابعـه وهو يضع شفتيه في أذني قائلًا:

«إنت حاتقعد معانا بقية الجمعة يا براهيم... مش كده؟... لزي النهاردة يعني... لزي النهاردة!».

في صوته رجاء لا تخطئه أشد الآذان صممًا، وفي لفة ذراعه حول كتفي ود واعتـذار، نظرت إلى حسـن ولـم أجد ما أقوله، رحـت أربت على كتفه

وأنا أتمتم بكلمات كانت تتساقط من بين شفتي في غير قصد ولا ترتيب، صفق أحدهم فانفلت حسن مسرعًا يلبي النداء، فتنفست الصعداء وأنا أنظر إلى سمير بجانب عيني... لحظتها تحول شعوري وانتابني انقباض شديد، واختناق كان يدفع بالدمع إلى عيني دون سبب أو مبرر.

منذ أن رأيت «سمير» أمامي وملايين المشاعر والأحاسيس والانفعالات تضطرم في صدري وتفور وتغلي غليانًا... لست أدري ما الذي ألم بي ولست أعرف له تفسيرًا حتى الآن. كل ما أعرفه أني وجدت نفسي أهرب من نظرات هنية وأبتعد عنها فرارًا، حدث هذا دون مقدمات كأنه القضاء يُحَمُّ بلا مفر، وراحت هنية تتبعني بنظراتها في فزع خبيء يعلن للناس عن نفسه... وناداني سمير طالبًا زجاجة أخرى، ثم همس وأنا أضعها أمامه:

«إنت علّقت البت دي واللا إيه؟!».

ابتسمت ولم أبتسم، أجبت ولم أجب، في لحظة واحدة انشطرتُ إلى شطرين، وتمزق قلبي تمزقًا أوجعني، ونادى المعلم فتح الله مصفقًا:

«يا براهيم...».

هرولت إليه هاربًا.

«أيها خدمة يا معلم؟...».

حملق الرجل في وجهي على ضوء المصباح الخابي أمام مكتبته سائلًا:

«ما لك يا براهيم... إنت عيان؟!».

أربكني سـؤال الرجل فتسـاقطت الكلمـات من بين شـفتي بلا ترتيب، قلـت: أبدًا، وقلت: نعم، إني متعب، وقلـت أيضًا: «مفيش حاجة!!»... لم أعرف إن كان المعلم فتح الله هو الكاسـب أم الخاسر في تلك الجولة فقد كانـت عيناي تتخبطان في الحيطـان والأرض والوجوه والمقاعد والأقدام كالطائـر الجريـح دون أن أجـرؤ علـى مواجهـة هنيـة ونظراتهـا... كانـت تلاحقني في إصرار وكنت أشـعر بذلك شعورًا مباشـرًا وحارًّا وكأني أقف وراء عينيها... وعاد الرجل يلح:

«إيه يا براهيم ما لك؟... إذا كنت تعبان قول!».

حرارة الرجل جعلتني أتمالك...

«ده شوية مغص ويزول يا معلم...».

«إشـرب لـك كبايـة ينسـون سـخنة وانت تـروق... يـا محمـد... يا بو النجا!».

كان صـوت الرجـل يعلو ويعلو حتى أصبح صياحًا يسـمعه الدرب كله وهو ينادي على المعلم الذي خرج من وراء النصبة متسائلًا:

«إيه، ما لك يا فتح الله؟!».

«واحد ينسون على حسابي للأسطى براهيم!».

وقبـل أن يفتـح المعلم محمـد شـفتيه كان المعلم فتح اللـه يردد بنفس الصياح:

«بس توضبه علشان المغص اللي عنده يروح... وإذا كان ...».

مادت الدنيا تحت قدمي وأنا أرى «سمير» ينهض مسرعًا من مكانه وقد كست وجهه علامات الجد الشديد... فعدت مهرولًا نحو المقهى فقابلني في منتصف الطريق:

«ما لك؟... الشنطة معايا في العربية!».

قالها بصوت هامس لم يسمعه أحد... لكنه كان يقف قبالتي في منتصف الدرب تمامًا ويكاد وجهه أن يلاصق وجهي وكل العيون ترمقنا!!

انتابني الذعر فأنا أعرف صديقي الدكتور سمير - أيها السادة - أعرفه جيدًا... إنه من النوع الخدوم الطيب الذي لا يرفض طلبًا لصديق، ولا يطلب مقابلًا لخدماته، سمير - أيها السادة - قد يعالج صديقًا له بالأسابيع، ويعوده في اليوم الواحد مرات ومرات، ويسأل عنه في التليفون كل ساعة... أعرف صديقي سمير - أيها السادة - جيدًا، أعرف مقدار السعادة التي تجتاحه يوم يصيب أحدهم مرض يصبح عليه أن يشفيه منه، هو من ذلك النوع الذي تبلغ قمة سعادته ذروتها يوم يخدم الدرب، واشتد أكثر والتعليقات بدأت تترى من الجالسين حول المغص وأعراضه وآلامه وطرق شفائه، ثم، وأنا أرى هنية تغادر مكانها مسرعة وتسير في الدرب على عجل... فيخرج صوتي من بين أسناني في غيظ مكتوم:

«في عرضك... في عرضك روّح إنت أنا كويس!!».

ثم قلت في صوت عال وأنا أرفع يدي بالتحية:

«متشكرين قوي يا بيه، دي حكاية بسيطة... الحساب أربعة ونص!».

وعلى الفور مددت له يدي اليمنى، ووضعت اليسرى في جيبي ورحت أعبث بأصابعي في القروش العديدة التي كانت تملؤه... وارتبك سمير، فمن ميزاته - أيها السادة - أنه بالرغم من جسارته وإقدامه يصاب بالخجل لأصغر المواقف وأكثرها بساطة، وضع سمير يده في جيبه مغتاظًا وبلا وعي بعد أن أيقن ألَّا مجال لبقائه أكثر من هذا... أخرج بضعة قروش وهو يقول في غيظ لم يحاول أن يخفيه:

«عايز كام؟!».

كان قد سمع الرقم، لكني قلته له مرة أخرى... مد لي أصابعه بخمسة قروش ونظر في وجهي ولمعت عيناه ولاحت على وجهه ابتسامة تشفٍّ وانتقام وهو يقول هامسًا:

«خلي التعريفة علشانك، ما تستحقش غيرها!».

ثم ابتسم ومضى... وقال المعلم محمد وأنا أعطيه التعريفة:

«يبقى الدور الجاي لي كمان... إشمعنى أنا تعريفة يعني؟!».

أحسست كأن حملًا ينزاح من فوق صدري عندما اختفى سمير من الدرب... زايلني على الفور ذلك الإحساس العنيف بالتوتر وإن كان قد ترك فوق صفحة نفسي بصماته الداكنة... دق قلبي وارتجف وأنا أرى هنية تعود من طرف الدرب مسرعة، ولم يكن دق قلبي كالدق الذي اعتدته منه كلما خفق لشيء أو لحب، ولم يكن ارتجافه كذلك الارتجاف الذي تعودت عليه من قبل... كان هناك شيء غريب حزين يميز الدقات هذه المرة، وعندما كانت تقترب مني وتتجه نحوي على مرأى من الجميع،

انتابتني رغبة دافقة في ضمها إلى صدري... و... وتقبيلها أيضًا، لكني أردت ذلك بإحساس الواعي الذي يحول دون اكتمال نشوته كدر يعكر صفوه... وكاد قلبي أن ينفجر بالسعادة حقًّا وهي تمد لي يدًا تقبض أصابعها على ورقة صغيرة:

«خد سف شوية الكمون دول والمغص يروح منك يا سي براهيم!».

الحنان يتدفق من عينيها ويفيض على أرض الدرب ويرتفع فيضانه ليغرقني في سحاباته الناعمة، جف حلقي وارتجف صوتي وأنا أقول بلا وعي:

«عايز اشوفك يا هنية!».

«ما إنت شايفني أهه... سلامة الشوف!».

ابتسمَتْ وابتسمت وأنا آخذ منها ورقة الكمون...

«لازم اشوفك يا هنية!».

«بعد صلاة العشا حاروح أجيب العشا لابويا من البيت».

حدث هذا في الدرب علنًا وأمام جميع الناس، حدث دون قصد مني أو ترتيب فلم أفكر ولم أكن أحلم بأن من الممكن مقابلة هنية في تلك الليلة بالذات، تبادلت معها الحديث بصوت خافت لم يسمعه أحد حقًّا، لكننا كنا نتحدث ونقول شيئًا على أي حال... بجانب عيني رأيت الأم تنظر نحونا وفي عينيها إشراق يضيء ما حولها بالسعادة، وكان الأب متشاغلًا باللعب، كأنه لا يرى، أو كأنه يرى ويبارك... لم يطل بنا الأمر فقد عادت

هنية إلى المكتبة، وعدت أنا إلى المقهى وفي يدي الكمون والمعلم محمد يقدم لي الينسون... كنت لحظتها كمن يحلم تمامًا.

مط المعلم محمد رقبته من خلف البنك الكبير وعيناه تنطقان بالاستطلاع وتبدوان جاحظتين في شره وهو يتساءل:

«إيه اللي أخذته من هنية ده؟!».

قلت بصوت هادئ وكأني أقرر أمرًا لا غرابة فيه:

«ده كمون علشان المغص!».

«آه... الكمون كويس... بت حنينة ومتربية هنية دي!».

سففت الكمون وشربت الينسـون ورحت أتحرك كالنائم، استندت في لحظـة إلى باب المقهى، ورحت أرقب كل ما حولي وأمامي وكأنه حلم... كان الظلام قد حل وأضيئت مصابيح الدكاكين كلها واتسـعت دائرة الطلبة أمام مكتبة عمران، علا صوتهم وهم يناقشـون إحدى القصص في حماس لم يمنع عيونهم ولـم ينسها تسلق الجدران والتعلق بالنوافذ والشرفات.

ألقت الحلوانية بجملة أخرى إلى عرض الطريق في منتصف المسافة ما بينها وبين العجلاتي، فنهض هذا إلى الداخل بعد أن كان قد عاد إلى مكانه بجوار الباب وطلب شايًا وجوزة وراح يدخن ويرتشف... لحظتها - لحظة صياح الحلوانية بجملتها الأخيرة - امتد انتباه الناس لثوان تزيد على المرة الأولى قليلًا، فقد ألقت الحلوانية خلف جملتها الأولى بجملة أخرى، غير

أنهـا لزمت الصمـت بعد ذلك، فعاد الناس إلى حديثهـم فزاطوا ونسـوا كل شيء عن هذا الموضوع، لكن المعلم محمد همس موجهًا حديثه لي:

«الراجـل ده ديله نجس، متجوز ومخلـف وولاده مخلفين، وبرضه عينه زايغة يمين وشمال...».

ولـم أرد علـى المعلم محمد فلم يكن يعنيني في تلك اللحظات سـوى استمرار حديثي مع هنية وملاغاتي لها بالعين واليد والشفتين اللتين راحتا تهمسـان خفية عن الناس بكلمات الغزل والحب... لحظ الرجل انصرافي عنه فدق بالماشة فوق الرخامة دقات عالية وهو يميل نحوي أكثر:

«دي ولية مترملة... جوزها مات من سـنتين وواقفة في الدكان تاكل لها لقمة عيش، ما له هو وما لها؟... ما يسيب الناس في حالها؟!».

فـي تلك اللحظة عـاد العجلاتي إلى كرسـيه الكامن بجـوار باب دكانه علـى الرصيـف، كانت الجوزة لا تزال في يده وكان هـو لا يزال ينفث منها الدخان في حلقات متتابعة، جلس الرجل في هدوء ووضع ساقًا فوق ساق وراح يجيل عينيه في الدرب وكأن شيئًا لم يحدث.

وكاد المعلـم محمد أن يسترسـل في حديثه الهامـس، لولا أن هل علينا الأسطى رمضان من بعيد وهو يصيح:

«يابو خليل... يا براهيم!».

«أيوه يا اسطى رمضان... أيها خدمة؟».

«حضَّرت لنا القعدة؟!».

«هوا!... كله جاهز يا اسطى!».

«سقعت القزايز؟!».

«تلج وحياة النبي!».

«طيب احنا بنشطب وجايين لك بعد عشر دقائق، حانتشطف بس!».

اسـتدار رمضان عائدًا ونهض المعلم ممـدوح صائحًا وهو يغادر مكانه جامعًا طرف ثوبه النظيف في كفه الأيمن:

«مرحب يا اسطى رمضان... مسا الخير!».

التفـت إليـه رمضــان، وتبادل الرجـلان التحيـة، ونشــط المعلم محمد والمعلم ممدوح ورحت أصيح أنا في حسن:

«المقشة يااد ونضف مدخل العطفة ورشه بالمية!».

تســاءل المعلـم كامـل وهـو مسـتمر فـي لعبـه دون أن يرفـع عينيه عن الطاولة:

«هم التماثيلجية حايسهروا هنا الليلة واللا إيه يا براهيم؟!».

رددت عليه بالإيجاب وأنا أسـرع بحمل مزيد مـن زجاجات البيرة إلى الصندوق، رحت أساعد حسن في توضيب المكان وتهيئته ورص الكراسي وتحضير الأكواب، اشـتدت الجلبة في الدرب والتفتت كل العيون وتطلع النـاس إلـى ما يجري أمامهم في صمت ولم يعودوا إلى ما كانوا فيه إلا بعد أن جاء التماثيلجية واستقروا في أماكنهم كان التماثيلجية يتمايلون بأجساد نافرة العضلات ويسـيرون في تؤدة مَنْ يعرف قدر نفسـه ويقدرها، ناظرين

أمامهـم نحـو مكانهـم، لا إلى اليمين، ولا إلى اليسـار، يلقـون التحية على كل مـن في الدرب بـأدب، ثم يصـل موكبهم إلى حيث كانـت المقاعد قد رصت حول صندوق فـارغ للبيرة حل محل المائدة، فوق الصندوق كانت تتربع زجاجتان مزينتان بسـحابات ضبابية أضفـت عليهما جمالًا أخَّاذًا... امتدت يد رمضان إلى الزجاجتين، وارتسمت على وجهه ابتسامته... وقبل أن يفـرغ أحدهـم قطرة واحدة فـي كوبه، كان صوت الحلوانيـة يعلو للمرة الثالثة... لكنه هذه المرة كان يختلف في نبرته وصوته... ولم يكن الصياح وحـده هو سـلاح المعركـة... فقد كانـت الحلوانية تندفع فـي جنون لتعبر الدرب وتنشب أظافرها في عنق الرجل.

«والنبي لأفرَّج عليك اللي يسوى واللي ما يسواش!».

«دي ولية مجنونة... مجنونة!».

«يا راجل يا شايب يا عايب... هو انا حتة لحمة مرمية في الدرب للكلاب اللي زيك؟!».

«إنتي ولية مجنونة... مجنونة!».

«ياخي اختشي على دمك وشيبتك، دانت مخلف أكبر مني!».

«ولية مجنونة... مجنونة!».

«والنبي لافرَّج عليك اللي يسوى واللي ما يسواش!».

«مجنونة... ولية مجنونة!».

«كل يوم اقول يا بت اخزي الشيطان... ويمكن يعقل...».

«اتجننت ... الولية اتجننت... مجنونة!».

«إنت فاكر الحكاية سايبة... دانا راجل زيي زيك!».

«مظبوط كده... مجنونة... مجنونة!».

انفض الشجار وانتهى منذ ساعة وعاد الناس إلى ما كانوا فيه مرة أخرى، كان وجـه العجلاتي قد سـال منه الدم وأظافر الحلوانية تنهشـه وتصنع في صفحتـه طرقًـا متعرجة حمـراء اللـون، وكان الناس قد عادوا إلـى ما كانوا فيـه بعد أن زاطـوا وهاصوا وتجمعوا حـول الحلوانية التـي أخذت بخناق العجلاتي وراحت تكيل له مع الشـتائم والسـباب ضربات مبرحة لا رحمة فيها ولا هوادة... قصت على الناس قصة الرجل الذي لم يكف عن مغازلتها منذ مات زوجها... و ... وكان العجلاتي قد انهزم في المعركة شر هزيمة، وعاد إلى مكانه وعادت الحلوانية إلى مكانها وعاد الناس إلى ما كانوا فيه، بعضهم يضحك وبعضهم يعلِّق وبعضهم يقول إن العجلاتي يسـتاهل أكثر ممـا أخذ... انفضت المعركة بالأيدي لكنها اسـتمرت بالألسـن... عادت الحلوانيـة تقـص علـى الجميـع قصتها مـع الرجل الـذي خلع كل أسـنانه وبصـوت سـمعه كل من فـي الدرب، ثم راحـت تبدي رأيهـا، وتعلق على حادثة، وتسـبه بين الحين والحين، وهو جالس في مكانه لا يتحرك منه ولا ينطق سـوى جملة واحدة كان يرددها بمناسـبة وبدون مناسبة: **«مجنونة... ولية مجنونة»**... مرت ساعة ودخل الدرب شاب في الثلاثين أو يزيد قليلًا، ما إن رآه المعلم محمد حتى همس: **«أهو ده ابن العجلاتي!»**... ولـم تمض ثوان حتى أخذ الولد أباه وغادرا الدرب بعد أن أغلقا الدكان.

حدث كل هذا - أيها الســادة - في زمن وجيز، نشــب الشــجار واحتدم وســال الدم وتدخل الناس وقصت الحلوانية قصتها أكثر من مرة ثم انفض الشــجار وعاد الناس إلى أماكنهم وراحوا يســتمعون إلــى صياح الحلوانية وحديثها الثائر وهي تحكي للا أحد وتقص على كل الناس ما حدث.

في البداية - أيها السادة - هممت بالاشتراك في تخليص الخناقة وفض الشــجار لولا المعلم محمد الــذي لحقني في منتصف الطريق وجذبني من يدي صائحًا:

«ما لك إنت ومال الناس دول... حاتوسخ نفسك؟!».

ثــم ألقــى بنفســه على الفور فــي خضم الزحام مشــتركًا مــع الجميع في التخليص حينًا والتعليق حينًا آخر.

في البداية - أيها السادة - هممت باللحاق بالمعلم محمد رغم تحذيره لي، ثم عدلت عن ذلك نهائيًّا عندما رأيت المعلم فتح الله يغادر مع صحابه مكانهم ليذوبوا جميعًا في كرة الناس الملتمة حول الحلوانية والعجلاتي... ولحقت به زوجتــه... كان قميص العجلاتي قد تمزق وتعرى صدره وكان دمه قد سال فاشتد تجمع الناس لتخليصه من الحلوانية... كنت أقف بباب المقهــى عين على اللمــة وعين عند هنية التي ظلت فــي البداية مكانها أمام المكتبــة، لكنها ســرعان مــا نهضت وتحركــت ببطء فتحركت بــدوري... عيوننــا علــى الناس، وأقدامنا تســعى نحــو بعضنا البعض وكأننا نســبح في الهواء.

فـي ثوان - أيها السـادة - كنت قـد أصبحت أقف أمامهـا وجهًا لوجه، وكانت هي تبتسـم في خجل، وكنت أنا أبتسـم في جسـارة وكل منا يقترب مـن الآخـر ومـن الناس حتـى التصقنـا بالنـاس وببعضنا البعـض في نفس الوقـت... وسـط الزحام والحركـة وانشـغال الجميع امتدت يـدي لتأخذ يـد هنية فـي أحضانها، وامتدت يد هنيـة لتذوب في كفـي ذوبانًا... وكلانا يشرئب بعنقه وكأنه يتابع ما يجري وسط اللمة!

كيف حدث كل هذا الذي حدث؟... كيف؟

لا أدري...

كنت أشعر وكأني أعيش في عالم عشته من قبل، كأني رأيت هنية والمعلم محمـد والمعلم فتح الله وممـدوح والمعلم كامل الكتبـي ورأيت الخناقة التي تحدث بين الحلوانية والعجلاتي... إحساس غريب كإحساس الطفل الذي غاب كثيرًا عن بيته... أيقظني سمير من الحلم للحظات عكرت صفو إحساسـي وأوقعتني في حيرة سـرعان ما تلاشـت وذابت وانمحت عندما كانت أصابعي تضغط كف هنية، وذراعي تسـري إليه سخونة ذراعها الذي التصق بي...

وقد تركت يد هنية عندما بدأ الناس ينفضون وعندما كان كل واحد يعود إلى مكانه، عدت إلى المقهى وعادت هنية إلى المكتبة، لكن إحساسي هذا لم يزايلني طوال الدقائق التي مضت حتى أذن المؤذن لصلاة العشاء ولعلع صوته من فوق مئذنة الجامع فنهضت هنية لتحضر طعام العشاء لأبويها.

ولـم أكـن لأغفل عـن هنية في لحظة كتلـك اللحظة، فمنـذ أن قالت ما قالت وأنا كالملهوف أبحث عنها خوفًا من اختفائها وضياع الفرصة بالرغم من يقيني بأنها لم تكن لتنهض في غفلة عني... لقد مهدت هنية لانصرافها طويلًا، فنهضت وراحت وجاءت وتحدثت مع أمها وسألت أباها وأطالت النظـر نحوي حتى تأكدت من انتباهي فغادرت المكتبة وسـارت في اتجاه الجامع... سـارت هنية إلى حيث يضيق الدرب حتى يختنق فيه الضوء ولو بالنهـار... وكان علـيَّ أن أنتظر قليلًا ولا أتعجـل وأن أتفحص الوجوه هنا وهناك، ثم اقتربت بعد ذلك من المعلم محمد وأنا أهمس:

«**عاوز اعمل زي الناس!**».

فأشار إلى نفس الاتجاه الذي مضت منه هنية وهو يقول:

«**كده على طول، وبعدين تحود يمين تلقى الميضة قدامك!**».

كنـت أعـرف الطريق منذ الصباح، ولـم أكن في حاجة لإرشـاد المعلم محمـد أو سـماع مـا قاله فقد انشـغل ذهني والتهـب بالقلق وأنـا أرى هنية تختفـي فـي الظـلام البعيـد ولا تبيـن... اندفعـت إلـى حيث أشـارت يده مهرولًا، اندفعت مسرعًا خلف هنية التي كانت قد دخلت المضيق المظلم، واختفت فيه.

- 11 -

لـم يسـتغرق إحضار هنية لعشـاء أبيها كل هـذا الوقت الـذي غابته عن الـدرب...ولا حاجة للـف أو دوران أو وصف المشـاعر واللحظات، فقد مـر الوقـت كلـه بـي وكأنه حلـم لا حقيقـة، كنت أشـعر وكأنـي أعيش في أسـطورة خيالية تغني فيها النجوم في السماء وتدندن بالموسيقى، ويتحول كل صـوت حتى ولـو كان نباح كلب إلى نغم حلو ترتـاح له الأذن وتطرب لـه النفس...هـي لحظات لا توصف تلك التي اقتربـت فيها من هنية عندما انعطفـت إلى زقـاق ضيق ومظلـم وخال تمامًـا مـن الناس...وبالرغم من أنـي كنت موقنًا أشـد اليقين أن هنية كانت تنتظـر في تلك اللحظات لحاقي بهـا وحديثي معهـا، فإنني ترددت كثيرًا، ترددت حقًـا فماذا لو صرخت في وجهي؟...ماذا لو سـألتني عمـا أريد؟...ماذا لو رآنا أحد أو لحظنا إنسـان يعرفهـا أو يعرفني؟...وعندمـا توقفت هنية عن السـير واسـتدارت نحوي تلعثمت وتوقفت حركة ذهني وارتجف قلبي...لكن هنية – أيها السـادة – كانت تبتسم!

«مساء الخير يا هنية!».

«وبعدين يا سي براهيم...حد يشوفنا !».

لسـت أدري كيف نطقتُ بالتحية فقد انطلق لساني متعثرًا متخبطًا يقول أي كلام، ولـم تكن هنية تعني ما تفوهت به فقد كانت لهجتها المرحة تدعو وترحب...كانـت هنية سـعيدة في تلـك اللحظات، أنا واثق من ذلك أشـد الثقـة، فعندما مـددت يدي إلى يدها في ظلام الزقاق الذي اجتزناه إلى آخر وثالث ورابع...و... ولست أدري فقد كانت هنية تقودني، في تلك اللحظة التي لامسـت فيها يدي يد هنية، فرت يدها في دلال لتحتمي آخر الأمر في كفي وبين أصابعي!

«وبعدها معاكي يا هنية!».

لم أكن أعني ما أقول، فلم أكن أدري ماذا أريد أن أقول.

«وبعدها معاك انت يا سي براهيم؟!».

«هنية...أنا بحبك!».

قلتهـا دون وعـي أو تدبيـر أو تفكيـر، قلتهـا وكأن أحـدًا غيري هـو الذي قالها...فقد كان أبعد الأشـياء عن ذهني في تلك اللحظات أني صحفي وأنها ابنة المعلم فتح الله الكتبي...ولسـت أدري حتى الآن - أيها السـادة - كيف قلـت ما قلت وكيـف تفوهت بما تفوهت بـه، لم أكـن أدري أن تلك الجملة بالذات سـوف تقودني إلى طريق آخر غير الذي رسـمته لنفسـي...وأنا قطعًا لم أكن أعنيها، فلم أكن قد أحببت هنية بعد، غير أني أشـعر بإحسـاس غريب وطاغٍ، وكأن سحابة حالمة حملتني إلى السماء وراحت تسبح بي بين النجوم

في رقة وحنان...واستسلمت لإحساسي هذا، استسلمت له سعيدًا جذلًا ورحت أعب منه في شره وجوع...

لست أدري إذا كنا ليلتها قد خضنا في الوحل أو اخترقنا بركًا وبحيرات من الماء القذر، أو قفزنا من خرابة لنعبر أخرى، لست أدري...فالصورة الآن في ذهني تكتمل لجدران إما مهدمة وإما عتيقة أبوابها واطئة وكأنها في عالم سكانه من الأقزام...صمتت هنية ولم ترد، وطال بها الصمت ونحن سائرون وفي قلبي نشوة عارمة دافقة جعلتني أندفع في حرارة وراء ذلك الإحساس الغامض: «**بحبك يا هنية...بحبك ...مش مصدقاني؟!**».

وكأني أطلب منها ألا تصدقني!...

ولكنها رفعت إليَّ وجهها مشرقًا وعينين تفيض منها السعادة فيضانًا وراحت تتمتم هامسة:

«**في يوم يا سي براهيم؟...في يوم ده كله يحصل؟!**».

«**في ساعة...في دقيقة...في ثانية...من أول نظرة!**».

رفعت إليَّ هنية عينين براقتين لمعتا في الظلام، فقد كنت أضغط على كل حروف الكلمات في تأكيد وحماس وحرارة.

«**سي براهيم...أنا مش مصدقاك!**».

قالت جملتها هذه - أيها السادة - ببساطة، قالتها وهي باسمة فأغلب الظن أنها لم تكن تعني ما تقول، غير أني أحسست وكأن كل كلمة قالتها هنية صفعة تدمي صدغي...

«مش مصدقاني؟!».

نفثت عيناها بريقًا غريبًا في ظلام الزقاق الذي كنا نخترقه، وكان سؤالي أقرب إلى الاستغاثة منه إلى الاستنكار، أحسست وكأن هنية تمزق جلبابي وتشير إلى بنطلوني وتصرخ في الناس بحقيقتي، انتابني نفس الإحساس الذي أحسسته عندما أوقفني ذلك الرجل في الصباح في عرض الدرب ليسألني من أنا وما اسمي وما صنعتي و...و...وكنت أظن أن هذا الشعور اختفى حتى قالت هنية ما قالت فإذا به كامن في أعماقي رابض في ظلام نفسي... كنت أظنه اختفى وأني سيطرت على نفسي وعلى شخصيتي الجديدة، حتى قالت هنية ما قالت فتزعزعت هذه السيطرة وانهار هذا الظن ووجدت نفسي أردد كالمستغيث:

«مش مصدقاني؟... مش مصدقاني؟!».

ضحكت عيناها لحرارة سؤالي، لكن نظراتها لم تتراجع..

«لكن نفسي أصدقك يا سي براهيم... إنت جدع طيب وابن حلال... والناس كلاتها تحبك!».

ابتسمت في تحفز وأنا أستعيد سلطاني على نفسي، ولاحقتها مازحًا وقد بدا لي الانتصار قريب المنال:

«الناس بس اللي بتحبني يا هنية؟... الناس بس؟».

«يوه بقى... وبعدها وياك يا سي براهيم!».

«في يوم يا هنية... في يوم!».

«من ساعة ما دخلت الدرب والقلوب كلها اتفتحت لك!».

وقعت هنية دون أن تدري، رددت كلماتي بعد أن رددت سؤالها، تنفست الصعداء وأنا أشعر وكأن الكابوس ينزاح من فوق صدري، لكن هنية تنبهت فجفلت وهي تفر بيدها من يدي هامسة:

«حاسب أحسن حد يشوفنا!».

لكن ذلك - أيها السادة - لم يعد يعنيني في كثير أو قليل، فقد نسيت كل شيء، ووجدت نفسي أعيش تلك اللحظات وأنغمس فيها إلى قمة رأسي دون تفكير، كنت أضحك وأنا أسير بجوارها خفيفًا كالريشة، تدغدغ أعصابي نغمة حلوة من اللذة والسعادة وكأني اكتشفت فجأة الطريق إلى النعيم!

النعيم؟!...

ألم أقل لكم منذ البداية إني إنسان خيالي؟!

النعيم...

كلمة - أيها السادة - لم أعرفها إلا من الكتب أو أبيات الشعر التقليدي... كلمة - أيها السادة - لم أذقها من قبل ولم أقابلها وجهًا لوجه إلا في سطور الخطابات وموضوعات الإنشاء التي كنت أكتبها وأنا صغير في المدرسة... كلمة - أيها السادة - أيقنت لطول الوقت أنها ليست في عالمنا هذا، وأن وصفها الدقيق لن تعثر عليه إلّا في عالم آخر إن وُجد هذا العالم... لكني عشتها، أؤكد لكم ولا تسخروا مني فقد عشتها، ذقتها، ومذاقها ليس كالشهد أو العسل، هو أحلى بكثير... كأني كلي، بخيالي وواقعي وتفكيري وعواطفي تحولت إلى قلب يدق في سعادة...

حدث كل هذا فجأة... حدث على الرغم مني، ولم تعد المسألة بالنسبة إليَّ تجربة، سأعود إلى المجلة لأكتبها وأدونها وأكذب فيها على الناس، في القلوب - أيها السادة - لا تدخل التجارب، القلوب تحب وتنبض وتخفق بصدق... فهل من الممكن أن يصل الكذب حتى إلى قلبي؟!!...

ماذا أقول والكلمات لا تسعفني، إني أستعيد تلك اللحظات فيرتجف قلبي وترتجف الشعيرات النابتة على سطح جلدي لهول السعادة التي كنت أحسها... إنه النعيم، هناك، بجوار هنية، في أي درب أو زقاق أو خرابة... كنت صادقًا في تلك اللحظات أشد الصدق مرتاحًا أشد الراحة مليئًا بحياة هي والأسطورة سواء... وقد طال صمتي حتى تعلقت نظرات هنية بوجهي... وكان لا بد أن أقول شيئًا، لكن صوتي انحبس، تمنيت أن أجلس على أرض الطريق وأدفن رأسي بين ذراعي وأغيب عن الوجود، هل تصدقون لو قلت لكم إني تمنيت أن أموت ساعتها؟ لم أكن أريد من الحياة أكثر من ذلك، بل كان فيما أحسسته في تلك اللحظات، أكثر مما تحتمل حياة إنسان واحد...

«هنية...».

كنت أضحك وعيناي دامعتان، فالسعادة في قمتها لا تضحك، إنها تبكي... تمامًا كالحزن في ذروته لا يبكي، بل يشعر الإنسان بمنتهى الراحة!... نظرت إلى هنية ونظرت إليَّ، وفي لحظة، كانت يدانا تتخبطان في الظلام ثم تلتقيان في عناق حار...

لكنها ما لبثت أن انتزعت يدها من يدي بسرعة وهي تهمس:

«إوعى أحسن قربنا من البيت يا براهيم!».

لـم أكن لأصدق أن الحلم سـينتهي بهذه السـرعة... مـا إن نطقت هنية بكلمة البيت حتى أحسست وكأن شيئًا سيختطفها مني... قلت في لهفة:

«مش على طول كده يا هنية... أرجوكي... أرجوكي!!».

بذور الدهشـة تنبت في عينيها، ويدها تستسـلم لكفي في عصيان حائر، وأنا أردد دون وعي أو إدراك:

«هنية... من فضلك ما تسـيبنيش دلوقـت، أنا... أنا محتاج أقعد معاكي أطول فترة ممكنة، ولو ... ولو ... خمس دقائق!!».

استسـلمت يدها ليـدي تمامًا، لكن نظرات الدهشـة كانت تزداد اتسـاعًا وشـفتاها تنفرجان في غير تصديق وكأنها ترى شـبحًا غريبًا لا يخيف، وإنما يبعث على الحيرة، شـبحًا لا تعرف كنهه وإن كانت تحسـه... انتبهت لنفسي فقـد كنت أنا الذي يتحدث لا الجرسـون الذي يعمل فـي مقهى «أبو النجا»، دق قلبـي بعنـف حتى كاد أن يحطم فـي الداخل ضلوعـي، وغاضت الدماء من وجهي وأحسسـت بالبرد فارتجفت... من أنا؟!... ماذا أقول؟!... وبأي لسان؟... و ... وبإحساس الذي تعرى فجأة من ملابسه رحت أستر نفسي:

«يا هنية النفر مننا بيشـقى طول النهار، وآديكي شايفة... من ده لده على ودنه مفيش يا امة ارحميني... شوية معاكي يا هنية يروقوا البال ويريحوا القلب...».

لكن هيهات...

كنـت أقـف أمام نفسـي – لا أمام هنيـة – وجهًـا لوجه... عاريًـا تمامًا، وكنت أشعر حقًّا أني أحب هنية، فكيف يحدث هذا؟... كيف يحدث؟

أهـون على النفس أن يتمرغ الإنسـان في طين الطريق وسـط ضحكات الناس وسـخريتهم، من ذلك الإحسـاس الذي كنت أتمرغ فيه وأنا أنظر في وجه هنية ولا أراها...

تسـاءلت بينـي وبين نفسـي: هل مـن الممكـن أن يحدث هـذا في يوم واحد؟... بل في نهار واحد فاليوم لم يكتمل ثلثاه بعد؟!

ولم أجد الجواب... لم أجده - أيها السادة - حتى الآن...

في تلك اللحظات كنت أشعر وكأني أستيقظ من حلم جميل، ولم تكن لـي رغبـة في هذه الحياة سـوى العودة للنوم من جديـد... لم أكن أريد من الأمـر كلـه أن يزيد على كونـه حلمًا ولم أطمع في أكثر مـن ذلك... رحت أعـود إلى طبيعتي وأنا أنظر إلى هنية، وأحدق في عينيها... ورأيت لحظتها فـي العينين صدقًا بعـث الخوف إلى قلبي... كانت النظرات تشـطرني إلى شطرين... كانت تقسمني إلى الصحفي والجرسون وتفرق بينهما وتطالبني بالاختيار... فهل كان هذا ممكنًا؟!

وانتبهت أخيرًا على صوت هنية وكأنه يأتيني من أغوار سحيقة:

«سي براهيم... ما لك يا سي براهيم؟».

كنا نقف عند ناصية شـارع بدا في تلك اللحظات سـابحًا في ضباب من الأضواء المتناثرة لعشـرات الدكاكين والعربات... وكانت الأضواء تتكاثر وتتكثف أمام عيني حتى لتحجب عني الرؤية... وفي الشارع وعلى جوانبه كانـت الحياة تهدر بكل مـا فيها من عزم، الناس والعيال والباعة والأشـياء

جميعًا كانت تمتزج في كرة ملتهبة... وفي رأسي أفكار وفي قلبي أحاسيس كانت تلتهمني التهامًا... كالنار!

«سي براهيم...».

«أيوه يا هنية!».

«خطي الشارع قوام أحسن حد يشوفنا!».

عبرت الطريق خلفها كإنسان فقد إرادته ولم يعد له سوى أن يطيع، ما كدنا ندلف إلى زقاق آخر مظلم ضيق اختنقت في مداخله الأضواء والأصوات، حتى قالت هنية بنبرات خافتة حنون:

«إنت زعلت مني يا سي براهيم؟!».

«أبدًا يا هنية... أنا أقدر أزعل منك؟... ما أقدرش».

«سي براهيم... فيه حاجة مزعلاك!».

«إنتي بتحبيني يا هنية؟!».

قلتها في توسل... ولم تتردد هي لحظة واحدة... انداح صوتها في ثقة شديدة:

«ربنا هو اللي يعلم!».

كانت تقول نعم بكل قلبها، إن لم يقلها اللسان فقد قالها ارتجاف الصوت ورعشة الشفتين وتردد العينين ما بين وجهي والأرض والجدران والسماء بلا توقف... ولا أدري لماذا طفرت الدموع إلى عيني في تلك اللحظات وغارت وراء الجفون... رغبتي الوحيدة في تلك اللحظات أن أحتضن هنية

وأربـت عليهـا وأقبلها وأدفن رأسـي في صدرها... جَيَشـان عاطفي يتتابني فإذا بي أتقدم نحوها، كنت أريد أن أعتذر، كنت أريد أن ....

«تتجوزيني يا هنية؟!».

كنت أعنيها...

قلتها في فرح غامر وأنا أضغط يدها إلى صدري...

«هنية هنية... تتجوزيني يابت؟!».

قلتهـا وكأنـي أتحدى بها كل النـاس... أتحدى بها نفسـي وأتحدى بها عملي وأهلي وأصدقائي... كأني أتحدى العالم كله...

توقفـت هنيـة عن السـير وراحـت تتطلع إلـى وجهي، ثم هزت رأسـها وغمرت الابتسامة كل وجهها، وضحكت!

«بتضحكي على إيه يا هنية؟!»...

كتمـت ضحكتها وعادت إلى المسـير خافضة الـرأس... لكنها راحت تضحك من جديد!!

«هنية... عايز اعرف بتضحكي على إيه؟!»...

«أصل ساعات بيتهيأ لي إن إنت مش إنت!»...

قالتها في بسـاطة وسرعة وبسمة ووجه مشرق فلم تكن تدري ولم يكن ليخطر لها على بال أنها كانت تقول الحقيقة، وأني أنا لست أنا...

استيقظت من نومي فقد كنت قد عدت إلى الحلم من جديد، ساعتها توقفت عن المسير وقد أفقت تمامًا فكأن أحدًا صفعني وأنا نائم...

وأصبح الواقع وحشيًّا شديد الضراوة...

كفت النجوم في السماء عن الغناء والعزف، وأصبح نباح الكلب نباح كلب... كانت هنية تقف أمامي يبدو وجهها في ضوء الزقاق الخافت مائلًا إلى الشحوب، في سمرته ظل صفرة لا تخفى على العين، على رأسها منديل مطرز لا يزيد ثمنه على خمسة قروش وإن بدا نظيفًا لكن المكواة لم تمسه بطبيعة الحال... فستانها ينسدل بلا ذوق من الكتفين حتى منتصف المسافة ما بين الركبة والقدم، كان فستانًا أبيض اللون تناثرت فيه زهور فاقعة الألوان... في قدمها شبشب تآلف لونه مع لون قدميها العاريتين مع لون تراب الأرض... هل من الممكن أن أتزوج من فتاة مثل هنية؟!».

«بتبص لي كده ليه يا سي براهيم؟!».

«إيه اللي خلاكي تقولي كده؟».

«أقول إيه يا سي براهيم؟...».

شهقت ورفعت أصبعها إلى شفتيها كأنها تريد أن تعيد إليهما الكلام.

«تقولي إن أنا مش أنا يا هنية... إيه اللي خلاكي تقولي كده؟!».

ضحكت ودارت شفتيها بأصابعها... وبدا أنها ستتكلم لبرهة، لكنها لم تقل شيئًا سوى: **«أنا اتأخرت قوي!»**... ثم انفلتت تعدو وسط الأزقة... وكنت أقف وحدي وقد عجزت تمامًا عن الحركة!

- 12 -

أيها السادة...هل أستطيع أن أستأذنكم في التوقف هنا قليلًا؟

إني أشـعر وكأني ألهث...أشعر وكأن الزمن كان لا بد أن يتوقف طويلًا عنـد تلـك اللحظات الغريبة التي عشـتها وأنـا في الطريق إلـى المقهى مرة أخرى...

ولـو كنـت فـي حالة عاديـة مـن الوعي، لمـا اسـتطعت العـودة بطبيعة الحال...فالطريـق حتمًا كان معقدًا أشـد التعقيد، مليئًـا بالأزقة والحواري والـدروب والمنحنيات...غيـر أني لـم أكن كذلك، فقـد عدت إلى المقهى فـي زمن خيل إليَّ أنه أقصر كثيرًا مما يجب، وكأني عشـت هذا الطريق من قبل سنوات وسنوات فحتمًا - مرة أخرى - كانت غريزتي هي التي تقودني عبـر الأزقة والدروب وأنا أنفذ من جـوار الجامع وكأنها أضواء مولد لوليٍّ من أولياء الله الصالحين...

ما الذي كنت أحس به وقتها؟!

بالتحديد... لا أدري!

كل شــيء يزداد اختلاطه وتداخله...أين أنا؟ ومن أنا؟ وهل هذه الحياة حقيقيـــة أم هي نـــوع مـن أنواع الحلـم؟ وما الذي قلتـه لهنية؟...أنا أعنيه ولا أعنيـه فأنا صـادق وأنا كاذب، أنا محتال وأنا شـريف، أنـا صحفي وأنا جرســون في مقهى أبو النجا الكائن بدرب الجماميز في المنزل القائم عند ناصيـة عطفـة النيدي...تذكـرت الدكتور سـمير الـذي غادرني منذ سـاعة مهزومًا، فانداح في قلبي لحن غريب حنون وكأني لم أره منذ عشر سنوات أو كأني انفصلت عنه بلا رجعة...

تذكرت حســن الصغير، ذلك الذي سـاعدني بعض الوقت وكان سعيدًا لأنه أصبح يصنع شيئًا...ثم عاد إلى مكانه عندما راق الجو وخفَّت الطلبات، وأمره المعلم محمد بغسل الأكواب والفناجين وتحضير الصواني!

قبع في مكانه بجوار الحوض وراح يرقب كل شـيء بعينين لا تصدقان هـذا الذي يـدور من حوله...فـي بعض الأحيـان كان يهـم بالحركة عندما يسمع نداء أو تصفيقًا، لكن نظرة من المعلم محمد أو نظرة مني كانت تشله عن الحركة وتجمده في مكانه...

كل دقيقـة كانـت تمضـي، كانـت تقربنـي منـه وتشـدني إليه...نظراته، ابتسـامته الباهتة حينًا الراضية حينًا، همساته إليَّ بين الحين والحين عن كل شـيء وعن لا شيء...من هو حسـن هذا الذي كنت أراه من موقفي بجوار الجامـع يتدحـرج في الدرب لتلبيـة طلب وقد بدت عليه السـعادة لغيابي؟ طـوال اليوم وأنا دائـب التفكير فيه وفـي حياته ومسـتقبله وكيف يمكن أن أراه بعد عشـرين سنة؟...هل سـأراه ضابطًا كبيرًا، أم لصًّا محترفًا؟!...هل

سأراه أستاذًا في الجامعة، أم سأراه مجرد جرسون كما هو؟!...من يدري؟ كل شـيء كان يبـدو لي في تلـك اللحظات - أيها السـادة - محتملًا أشـد الاحتمـال، بل إني لم أدهش بالمرة عندما وجدت نفسـي أعكس السـؤال فأقول: كيف سـيراني حسن بعد عشرين سـنة؟!...كاتبًا لامعًا يقدره الناس ويحترمـون أعماله ويصدقونها ويتابعونها بشـغف؟!...أم مجرد جرسـون كهـل في مقهـى أبو النجا؟!...أو ربمـا بائع كتب فـي دكان صغير ما زالت رائحة المعلم فتح الله عالقة به؟!

من يدري - أيها السادة - من يدري؟!

كل شـيء كان يبـدو لعيني في تلـك اللحظات محتملًا أشـد الاحتمال... ذلك أن إحساسًـا غامضًا ورهيبًا كان يتسـلل إلى نفسـي بهدوء ليسـيطر عليها لحظـة بعد لحظـة...وكان يفعل!!...كأني عثرت على هنيـة بعد طول غياب، كأني كنت أحبها حقًّا بطول سـنوات عمري، لكني لم أعرف ذلك ولم أعه بل أعيشـه وأتنفسـه مع الهواء...كأنه شـيء كان ينقص حياتي، أو كوب ماء كنت أسعى إليه طوال عمر يقاس بطول صحراء ليست بها قطرة واحدة من الماء..

أنا يا سـادة أقـف الآن متأملًا تلك اللحظـات الغريبة فيقشـعر بدني ويكاد شعر رأسي أن يقف... لكني أيضًا أشعر بلذة لا تفوقها لذة وأنا أتحدث عن أي شيء في درب الجماميز...وأكثر الأشياء حبًّا لنفسي هي لحظاتي مع هنية...

وكما اسـتأذنتكم - أيها السـادة - فـي التوقف قليلًا لأنـي ألهث...فأنا أسـتأذنكم الآن في عدم التوقف فلست بقادر على ذلك...صدقوني، لست قادرًا!!

إن مجـرد تخيلـي لحالـة الزقـاق فـي تلـك الليلة يثير في نفسـي شـتى الأحاسيس.

كنت أنا الذي صنعت هذه الحياة التي تهدر أمامي بالمرح والسعادة!

التماثيلجيـة يبـدون مـن بعيـد وكأنهـم تماثيـل برونزيـة رائعـة لأبطال يجلسون حول مائدة في عصر مضت عليه قرون عديدة...شلة المعلم كامل ما زالت تطلق الصيحات المتحمسـة والتعليقات الصارخة وكأن كل رجل منهم يعيش آخر لحظات حياته...المعلم فتح الله يتوسط أصدقاءه. وعلى الأرض أمام المكتبة تجلس زوجته وهي تحمل طفلها الصغير الذي يرضع مـن ثدي يغطيـه طرف الطرحـة السـوداء... الأطفال الصارخـون والبنات السـائرات، والنسـاء السـاهرات، والتحيـات والسـباب والـكلام والنوافذ المضـاءة وخيـالات الظل تتلاعـب على حيطـان الغرف الواطئة الناعسـة الضـوء، والضحـكات الخافتة والأحاديث الناعمة، والشـباب الجالسـون أمام مكتبة عمران وعيونهم المفعمة بالحب، المتسـلقة للجدران، المتعلقة بالنوافذ والشرفات... كل شيء... كل شيء يكاد يلهبني بألف حب.

كنت أقف في مدخل الدرب أتملَّى في كل شـيء عندما وقف بجواري شابان، كانا غريبين فلم يعرفاني وكانا يتحدثان أمامي بحرية...

«إيه الحكاية... الدرب ما له النهاردة زايط؟!»...

«حقه يا جدع، كل ليلة كنا نعدي نلاقيه مِدخمس».

«كان زي درب الأموات!».

ورد الآخر وهو يتنهد مستديرًا مبتعدًا:

«بالك لو السكة كلها زايطة كده... كان الواحد يروح مرتاح!»...

وبالرغم من كل هذا، كان لا بد أن أعود إلى المقهى، أن أوقف سيل الأسئلة في نفسي وأغرق وسط الناس الذين كانوا في انتظاري...

«يا محمد... يا بو النجا... أمال براهيم فين؟!».

صيحة سمعتها من مكاني دون أن أميّز من الذي أطلقها. ما الذي يحدث عندما أتركهم وأعود؟... هل يعود الزقاق إلى ما كان عليه أم يظل على حاله؟... ما الذي سيقولونه عني عندما يكتشفون الحقيقة... حقيقة أمري؟... ماذا...؟ ما الذي...؟ ما ...؟

وانتزعت قدمي من الأرض انتزاعًا فقد طال غيابي وكان لا بد أن أسير... وما كدت أخطو خطوة نحو الدرب، حتى هلَّت شلة المعلم كامل مرة واحدة وكأنهم أفراد في كورال ضخم... كان واضحًا أن الدور انتهى، وأن واحدًا قد كسب، والآخر قد خسر...

■■■

«إيه يا براهيم... كنت فين؟!»...

لم أرد على المعلم محمد، فقد كنت في تلك اللحظة التي سمعت فيها سؤال الرجل أقف بباب المقهى مبهوتًا حائرًا، أكاد أنفجر بالدهشة والغيظ معًا... ذلك أني ما إن خطوت في الدرب خطوات حتى استقبلتني على البعد ابتسامة سعدية الواسعة وكأنها تبارك كل ما تعرفه... لم أخجل ولم

أهرب بنظراتي من عينيها، بل وجدتني أبتســم أنا الآخر ردًّا على ابتسـامتها التي اتسـعت حتـى لكأنها تقول: أنا أعرف كل شـيء... غير أن الابتسـامة سـرعان ما تقلصت على شفتي وضمرت ثم ماتت تمامًا.. فقد لمحت عند أول الدرب ثلاثة أشباح بدت من بعيد كالظلال الباهتة، أمامها نور، وخلفها نـور، وهـي تقف ما بيـن النور والنور، تقـف في ظلام الخرابـة الكائنة عند ناصية درب الجماميز... وما إن اقتربت عدة خطوات أخرى حتى بدت لي الأشـباح واضحة كل الوضوح... إني أستطيع أن أميز شبح صابر في وقفته تلك ولو كان يقف وسـط ألوف الناس... قامته القصيرة، ويده المدسوسة في جيبه الأيسـر، وهزة رأسـه نصف الدائرية، وكأنه رجل يتطوح في حلقة ذكـر... كما أسـتطيع أن أميز جسـد محمـود المربع الذي تعلـوه كرة ثابتة، ترتفع إلى مقدمتها بين الحين والحين يد تسـوي ما يعلوها من شـعر، عادة اكتسـبها في أيام الصبا... يوم كان شـعره هو كل مظهـره وأناقته وثروته في نظـر فتيـات الكلية... أما عادل... فكان يقف بينهمـا لا هو في قِصر صابر، ولا هو في سـمنة محمود... هو خيال يشرع إلى الأمام رأسه وكأنه يريد أن ينطح بها كل من يقابله...

هكـذا رأيتهم في تلك الليلة، وهكذا كانـوا في الواقع... فخطوة أخرى جعلتنـي أمـام بـاب المقهـى، وسـط المولـد الكبيـر المنصـوب فـي تلك المسـاحة الصغيرة، ونفـس الخطوة جعلتني أوقـن أن الثلاثة هم أصحاب الأمس القريـب، كانوا ينظرون إليَّ وهم يبتسـمون ويتحدثون حديثًا خافتًا تقطعه ضحكات أشد خفوتًا...

«بتبص على إيه يا جدع؟!».

كان المعلـم قـد انتابه القلـق... لقد غبت عن الـدرب دقائق طالت عما كان يُقَـدّر، ثـم عدت لأحملق في ناصية الدرب دون أن أُعنى بالرد عليه... أحسست به يتحرك من خلف النصبة ليرى ما الخبر، فلحقته قبل أن يغادرها وسددت عليه الطريق وأنا أبتسم قائلًا:

«حدش طلب حاجة يا معلم؟!».

«إنت كنت فين كل ده؟!».

قالهـا والشـك يملأ نظراته... قالهـا وعيناه معلقتـان بوجهي في إصرار عنيد... وكان لا بد أن أرد... وكانت الابتسامة لا تزال معلقة فوق شفتي:

«أبدًا... كنت باشرب سيجارة يا معلم!».

ارتخـت تقاطيـع وجهه فجأة وبـان عليه الهـدوء، وخبا فـي عينيه بريق الإصـرار والعنـاد، نبعـت من تحت جلـده الحائـل اللون ابتسـامة أغرقت الوجه وفاضت من العينين، ثم عاد إلى مكانه قائلًا:

«طب ومالك خايف كده؟ ودي فيها حاجة يعني؟!».

استدرت نحو الحوض ورحت أعبث في الأكواب والفناجين وأنا ألوك جملته في ذهني... الحجة التي سـقتها إليـه واهية كخيط العنكبوت، فماذا لـو دخنت السـيجارة في المقهـى؟ ومنذ الصبـاح حتـى الآن دخنت أمامه عشرات السجائر، فلم يكن من تقاليد مقهى أبو النجا ألا يدخن العامل أمام معلمه... توقفت لبرهة وأنا أتمعن في رده الغريب!!

أأكون قد فاجأته بالجواب فاقتنع؟!

لا بد أنه سيسـألني بعد ثوانٍ وسـيطلب تفسيرًا فلا يمكن أن يصل غباؤه إلى هذا الحد... لا بد أنه سيسـألني بعد قليل لماذا دخنت السيجارة بعيدًا، ورحـت على الفـور أبحث في ذهني عـن جواب ملائـم... «أصلي حبيت أتمشـى شوية في شـارع الخليج!»... أيكون الشك قد راوده في أني تبعت هنيـة! «... أبـدًا يـا معلـم... دا الهـوا في شـارع الخليج سـلاام... والجو حلو!»... ولا بد أنه سيصدق هذا لثوانٍ أيضًا لكنه سيعود ليسأل سؤالًا آخر يستفسر فيه عن ... عن ....

حركة ذهني تبطئ وتبطئ ثم تتوقف تمامًا عند شـيء هام، وكما يحدث في الأفلام البوليسـية، صاحبت الحقيقة في ذهني صرخات موسيقية كنت أحسـها في كل أعصابي... ما الذي يقصـده المعلم محمد؟! وقبل هذا، ما الذي فهمه من جملتي؟!

لقد قلت له بالتحديد: «كنت باشرب سيجارة!» فلا بد أنه ظن أن... أنني... أنه... وجاءني صوته وهو يهمس من خلف النصبة في سعادة وانشراح:

«معايا حتة كويسة، تحب أرصهالك على البوري؟!».

■■■

«مساء الخير يا ريس... هات لنا تلات كراسي هنا وحياة والدك!»...

«حاضر يا بهوات من عِنيًّا!».

عنـد الباب، كان الثلاثة يقفون باسـمين وهـم يلقون التحية محاولين بها أن يبدوا في أشد الحالات طبيعية...

قلت لهم: حاضر يا بهوات من عِنيًا، وأنكرتها على نفسي، قلتها بطريقة طبيعية وكأني لا أعرفهم... لكن بالرغم من ضيقي - أيها السادة- لوجودهم، لم أستطع كبت ذلك الإحساس الذي شملني بالفرح لحضورهم، كأني لم أرهم منذ سنوات... غير أن إحساسي هذا ذبل وكاد يموت وأنا أرى نظراتهم تنهال عليَّ نهشًا ساخرًا، انقبضت بالضيق لكني تمنيت لو استطعت مصافحتهم واحتضانهم، ثم تمنيت لو استطعت طردهم وهم يبتسمون تلك الابتسامة الأليفة التي تعودت ابتسامتي أن تلقاها دائمًا... اضطرب قلبي بالحنين واضطرب في الوقت نفسه بالغيظ... فما الذي جاء بهم إلى هنا، وفي ذلك الوقت بالذات؟!

وما الذي يريدونه من مجيئهم؟ ومن الذي أخبرهم بمكاني، ومن... و...

وكان السؤال الأخير حاضر الجواب، فلا بد أنه سمير...

كانت لحظات غريبة - أيها السادة - تلك اللحظات؛ لحظات مر بعضها فإذا بي أشعر عن يقين وكأني لا أعرف هؤلاء الثلاثة حقًّا، وكما يكتشف الإنسان فجأة أن تحت قدميه هوة بلا قرار، كنت أحس في بعض اللحظات أني لا أنتمي إليهم وهم لا يمتون إليَّ بصلة ما، أيّ صلة... أنا حقًّا هذا الذي قال وهو يستدير باحثًا عن مقاعد خالية: حاضر يا بهوات من عِنيًا؛ لأني كنت مؤمنًا تمامًا بما كنت أفعل... كنت سعيدًا به، بل كنت فخورًا - أيها السادة - أن أقول: حاضر يا بهوات من عِنيًا، ثم أنكر معرفتي بهم عندما سألني المعلم محمد همسًا:

«تبعك دول يا براهيم؟!»...

«مين؟ الأفندية دول؟ ولا اعرفهم!!».

أسـرعت بالمقاعد إلى حيـث وقفوا عند الضفة الأخـرى لناصية عطفة النيـدي، بجـوار التماثيلجيـة، لا يفصـل هـؤلاء عـن أولئك سـوى عرض العطفـة الذي لا يزيـد على ثلاثة أمتار... رصصت الكراسـي دون أن أرفع إلـى أحدهـم عينـي... أسـرعت بحمل المائـدة النحاسـية الصغيـرة إليهم ووضعتها أمامهم، ثم سددت عيني في عيني عادل وأنا أقول:

«أيها خدمة يا بهوات؟»...

«ما انت زي الجن اهه... أُمال سمير بيقول انك تعبان ليه؟!».

«أيها خدمة؟».

قلتهـا متجاهـلًا مـا قالـه عادل معتـدلًا فـي وقفتـي قاطعًا الطريـق أمام الحديث الذي أرادوا أن يدور بيني وبينهم...

«عندكم إيه؟!».

قالهـا عادل وشـفته السـفلى تتدلى بعيـدًا عن شـفته العليا في ابتسـامة مشـحونة بالتحدي لشيء لا أعرفه؛ نفس الابتسـامة التي تعودت أن ألقاها كل ليلـة بتحدٍّ يزيد الحياة من حولي اشـتعالًا؛ نفس الابتسـامة التي قابلتها بالأمس وأول أمس و... وإذا باليوم ينكمش فجأة ليصبح يومًا بعد أن كنت أحسـبه عمرًا، وإذا بالأحاسـيس تتضاغط في صدري حتى يضيق بها، وإذا بي أرد عليه في برود وكأنه سلبني أعز ما أملك:

«عندنا كل حاجة يا بيه، فيه كازوزة وقهوة وشـاي وقرفة... وفيه شيشـة إذا حبيت!».

«طيب هات لي شيشه!».

«والبيه؟».

قلتهـا لمحمود وأنا أراقب وجهه المربع وابتسـامته المائعة التي لا تنبئ عن شيء، فرد عليَّ وهو يرمقني بعينيه في حماس مخلص وساخر:

«هات لي شاي بس صلَّحه!»..

«والبيه يشرب ساقع ولَّا سخن؟!».

واسترخى صابر في مقعده وهو يقول لعادل:

«المكان ده حلو يا وله... شايف الطراوة؟»..

كانت عطفة النيدي تمتد أمامهم إلى مسافة لا تزيد على عشرين مترًا... يسدها من الطرف الآخر ظهر بيت تآكل جداره وتساقط طوبه.. وعلى طول المسـافة من الجدار حتى ناصية العطفة، بدا كل شـيء هادئًـا تمامًا، مظلمًا نصف ظلام، ليس هناك سـوى باب واحد هو باب بيت عبد السـلام أفندي الذي تصعد إليه فوق قطعة حجر صنعت سـلمًا إلى المدخل... ومن أعلى حائط البيت كانت أمواج هواء الليل الرطيب تهب موجة وراء موجة..

وقـد التفـت محمود إلى الداخـل عندما قال صابر ما قالـه عن الطراوة، وكأنه يريد أن يراها بعينيه، لكن عادل لم يلتفت ولم يتحرك بل قال بصوت حديدي النبرات:

«مـا تقـول للراجـل عاوز تشـرب إيـه الأول وبعدين اتكلم عـن المكان والطراوة!»...

«هـات لي... إسـمع... عندكم عرقسـوس... تمر هنـدي... حاجة من الحاجات الحلوة دي؟!».

«لا والله يا بيه... فيه بسكال واسباتِس بس؟»..

«وإيه البسكال ده؟ كازوزة برضه؟».

وأطلـق صابر ضحكـة جلجلت في المكان، ووراءهـا انطلقت ضحكة أخـرى من محمـود ظلت تعدو خلفها حتى اختفتا معًا وسـط زيطة الدرب وصيحاته، وقال عادل متمتمًا:

«هات له اسباتِس!».

«حاضر يا بيه!».

وصاح صابر قبل أن أتحرك:

«استنى عنـدك، لهو انت حاتشـربني على مزاجك يا أخـي، إفرض اني مش عايز اسباتِس... أما حاجة غريبة والله!».

كنت أعرف تمامًا أن كل هذا سـوف يحدث، وأن شـيئًا لا يمكن أن يمر دون نقـاش وأخـذ ورد، وأن عـادل لا بـد أن ينقـد ويتحدى ويخبط رأسـه فـي حائط النقاش الصلد، وأن صابر لا بد له أن يسـأل ويتقصَّى ويستفسـر وكأنـه جالـس فوق مصطبة في إحـدى القرى، وأن محمود سـينصت حينًا ويؤيد هذا ويؤيد ذاك سـائرًا فوق حبـل رفيع من المجاملات، واجدًا مبررًا

لكل شيء.. وحجة وراء كل تصرف دون أن يدلي برأي باتر أو صريح... كنت أعرف - أيها السادة - كل هذا... وغالبًا ما أحسست بالضيق، وفي بعض الأحيان كنت أشعر وكأن علاقتنا حلقة تضيق حول عنقي حتى لتكاد تخنقني... لكن الغريب أني لم أشعر بتلك الحلقة المفزعة في تلك الليلة، كنت أطل عليهم من أعلى مبتسمًا، أحس في أعماقي بسخرية شديدة، كما أحسست وفي نفس الوقت وبقدر مساوٍ برغبة جارفة في الجلوس وسطهم، والتصفيق بيدي ودخول المعركة مع عادل حول أي شيء... معركة لا بد أن تحدث، ولا يمكن إلَّا أن تحدث... هكذا استمرت علاقتي به لسنوات طويلة!!

وماذا بعد أيها السادة؟ ماذا بعد هذا الاسترسال؟!

حقًّا لست أدري... إن التعب الذي كان يهد جسدي في تلك اللحظات، والذي بدأت أشعر به فجأة، كان أخف بكثير من ذلك الضنى الذي أحسسته في صدري... ومنذ أن تركت هنية في مكان ما وسط ركام البيوت الشاحبة المطلة على طرف الدرب الآخر، وأنا أعيش في دوامة يزداد دوران مَوْجِها لحظة بعد لحظة... وكانوا هم - أصدقائي الثلاثة - لا يزالون سادرين في نقاشهم المتراوح بين الحدة والرقة صعودًا وهبوطًا دون توقف... وكان صابر لا يزال يردد بنفس النغمة المستنكرة الضاحكة:

«إفرض يا أخي إني مش عاوز اسباتِس... إنت مزاجي؟!».

وكان عادل يردد في عناد وإصرار:

«آهو اللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش!».

وكان محمود يردد بين قول هذا وذاك:

«أصل الأستاذ صابر بيحب يجرب!!».

وعاد صابر يردد من جديد:

«هو حايسقيني على مزاجه... أمَّا حكاية يا ولاد!».

وعاد عادل يقول:

«طيب على كيفك، هات له بسكال!».

«مش عاوز بسكال! هه!!».

«طب هات له اسباتِس!».

«ولا عاوز اسباتِس كمان!».

«ما تطلب بقى يا أخي وتريحنا!».

«مش حاشرب حاجة... هه... روح يا جدع هات لي قرفة!».

«حاضر يا بيه... حاضر!».

تركتهم ورائي وكأني أهرب من كابوس، مررت في طريقي بالتماثيلجية فلمحت زجاجتي البيرة أمامهم فارغتين، واجتذبني نداء الأسطى فاروق:

«إيه يا بو خليل، إنت نسيتنا واللا إيه؟!».

اندفعت نحوهم وأنا أرتمي وسطهم لالتقاط الزجاجتين الفارغتين صائحًا:

«أنا؟! أنا أنساكم؟!».

«طب هات لنا إزازتين تانيين!».

«من عِنيَّا!».

ما كدت أستدير عائدًا إلى المقهى حتى سمعت عادل ينادي:

«هس... هس... يا ريس... يا أخينا!».

وطرقعت أصابعه في الهواء فاستدرت عائدًا إليهم صائحًا ملء صوتي:

«أيوه جاااي... أيوه يا بيه؟!»

عندما وصلت إليهم كان صابر يقول بصوت رائق هادئ:

«والله فكرة يا ولاد!».

ولاحقني عادل:

«عندكم بيرة ساقعة؟!».

«موجود يا بيه!».

«ساقعة؟!».

«تلج يا بيه!».

«طيب هات لنا إزازتين، بس اسمع، لو ما جبتهمش ساقعين مش حانشربهم، فاهم؟!».

«عيب يا بيه... إذا ما كانوش تلج بلاش تفتحهم!».

واستدرت عائدًا عندما لاحقني بقوله:

«إلا قول لي.. إنت اسمك إيه؟!».

«محسوبك براهيم يا سعادة البيه!».

وساد الصمت...

ساد الصمت وعلا الوجوم وجوه الثلاثة فبدت بلهاء، كما بدت عيونهم فارغـة تنبئ عن حيرة لا تخفى... وسـرى الوجوم والحيـرة إلى قلبي أيضًا فبقيـت فـي مكاني جامـدًا كالتمثـال وجملتي الأخيـرة تتردد فـي أذني بلا توقف... كنت قد نطقتها بتوكيد من ولد بهذا الاسم، قلتها في بساطة وقوة وبـلا تـردد وكأني ولدت فـي درب الجماميز ونموت في مقهـى أبو النجا، قلتها بإحسـاس مـن يخاطب قومًا غرباء عنه... وبالرغم من سـخرية عادل التي بدت في ملامح سـؤاله ولهجته، فقد كان ردي جادًّا كل الجد، كان رد رجـل بلغت به الشـهامة حدًّا جعله يحترم من يحاول السـخرية منه، لا عن جبن، ولكن عن كرم؛ لأن الساخر في بيته!!

وأيًّـا كان الأمر - أيها السـادة - لقد كانت جملتي هذه تحمل إحساسًـا غريبًـا؛ إحساسًـا كالسـكين يقطع بـلا رحمة ما بينـي وبين هـؤلاء الأفندية الثلاثـة الجالسين أمامي في ظلال العطفة؛ إحساسًـا لا بـد أنه أثر على كل منهم نفس التأثير الذي تأثر به الآخران... فقد ظلوا جميعًا واجمين لدقائق هـرب فيها محمـود بعينيه إلى الـدرب وراح يرقب ما فيـه، كان يجلس في الطرف قابضًا على سلسـلة مفاتيحه بأصابع قلقـة وهو يرفع يده بين الحين والحين إلى شـعيرات رأسـه التي تغطي صلعًا زحف منذ سنوات... وكان صابـر فـي الطرف الآخـر، نصفـ ظهـره للـدرب ونصفه للحائـط المقابل لمنزل عبد السلام أفندي، وعيناه الضيقتان تبرقان في الظلام وهما تسددان إليَّ نظرات دهشـة غريبة وظل ابتسـامة تزحـف إلى شـفتيه لكنها سرعان ما تتراجـع... أمـا عادل فكان يجلـس بينهما أمام ظله المرسـوم على الحائط

خلفه.. كانت ملامحه جامدة وكأنه يواجه أمرًا لا يعجبه بحال ولا يستسيغه ولا يقبله ولا بد من الرد عليه بعنف وقوة. تحولت عيناه إلى فوهتين تطلقان نظرات متحدية سافرة العداء، غير أنه لم يجد ما يقوله، فراح يداعب كتابًا كان يحمله بين يديه، وازداد تدلي شفته السفلى، وتململ في جلسته ثم قال:

«إبراهيم؟ واشمعنى إبراهيم يعني؟!».

«هو حر يا أخي... أما حكاية يا ولاد... إنت حاتشارك الناس في أساميهم كمان!».

قال صابر ذلك فتساقط القرف من وجه عادل وهو يقول:

«طيب يا سيدي، تشرفنا يا سي زفت، روح بقى هات لنا إزازتين ساقعين... فالح قوي يا روح أمك!».

«حاضر يا بيه!.».

قلتها بجد متجاهلًا ضحكة صغيرة أطلقها كذيل لكلامه اللاذع... وعدت إلى المقهى.

- 13 -

اقتربت الساعة من الثانية عشرة - منتصف الليل - وما زال المولد منصوبًا... مضت على الدرب ساعات كان كل من فيه سعيدًا، همد الأطفال بعد طول صياح ولعب، وجلسوا على أبواب البيوت يتحدثون ويحكون الحكايات و«يتفرجون» على ما حولهم من حياة بدت عليهم جديدة كل الجدة.

ووقف المعلم محروس الفران أمام باب المقهى محملقًا في كل ما حوله غير مصدق، وراح يجيل بصره هنا وهناك وهو يردد كالمأخوذ:

«إيه ده؟ إيه الحكاية يا محمد يا بو النجا؟».

لم يرد عليه المعلم محمد، بل راح يعد له كوب الشاي وهو يصيح بي:

«البوري لمحروس يا براهيم!».

على الفور رحت أعد البوري وأجهز المعسل وقطع الفحم الملتهبة للزائر الجديد... رأيت محروس في تلك الساعة من الليل وهو واقف بجلبابه السميك وجسده النحيل ووجهه الذي كان ينز بالعرق... كان وجهه - أيها السادة - أحمر شديد الحمرة وكأنه قضى سنوات بلا عدد

تحـت قرص الشـمس الملتهب، رفع محـروس طرف جلبابـه وألقاه فوق كتفه فبانت سـاقاه النحيلتان، سـحب مقعدًا وجلس عليـه ومال إلى الأمام وغرق في صمت لم يطل، صب المعلم محمد كوب الشاي وهو يقول:

«ده محـروس الفـران، يـوم في الفرن ويـوم في القهـوة.. بينـام هنا، في المخزن!».

ولـم يقل المعلم محمـد أكثر من ذلك كلمة، حملـت الصينية والبوري ووضعتهمـا أمـام محـروس فتنـاول مني مبسـم البـوري ورفع إلـيَّ وجهه المحترق قائلًا:

«اسم الكريم إيه؟».

«محسوبك براهيم».

«مرحب... يا مرحب... مراحب!».

ابتسـم محـروس ملء فمـه وراح يزيح العـرق بأصبعه من فـوق جبهته ويلقي بقطراته إلى الأرض، جذب نفسًا من البوري وراح يسعل ويسعل ثم بصـق على الأرض وأخذ يدخن من جديد، وقعـت عيناه على كوب المياه المثلجـة فألجمت الدهشـة لسـانه لثوانٍ، لكنـه رفع الكـوب وازدرد ما فيه دفعة واحدة، ثم التقط قطعة الثلج بلسـانه وراح يمتصها بشـغف وهو ينظر إليَّ بعينين مشرقتين... ذابت قطعة الثلج فرشف محروس من الشاي رشفة ومال نحوي متسائلًا:

«جيت إمتى يا براهيم؟!».

الود يغلف كلماته والترحيب يزفها إليَّ، ولا أرد فقد لاحقه المعلم محمد:

«بعد إنت ما مشيت إمبارح ييجي بنص ساعة، جدع طيب وابن حلال!».

ساد الصمت برهة عاد بعدها المعلم محمد إلى الحديث:

«أصـل محروس بيـروح الفرن من نـص الليل لنص الليل، يشـتغل يوم ويرتاح يوم».

وقال محروس وهو يفرغ الشاي في جوفه:

«يا مرحب يا مرحب...منور الحتة والنبي يا بو خليل».

مضـت الدقائـق وجف عـرق المعلم محـروس الفران ودخـن البوري وطلب كرسيًّا آخر وراح يرقب الدرب بعينين ملتهبتين صاحيتين وهو يردد النظـر بيـن النـاس وبيني...طلب ماء فقدمت لـه كوبًا مثلجًا شـربه وصفق بيديه سعادة وهو يصيح:

«براهيم يا براهيم يا نوارة الحتة!».

انتهـى المعلم فتح اللـه من مبارياتـه وأغلقت الطاولـة وجلس الرجال أمـام مكتبه يدردشـون ويتندرون ويتحدثون حديث المسـاء الخافت حينًا، والعالي حينًا آخر عندما يريد أحدهم أن يوصل لجار بعيد رأيه في شيء... كذلـك أغلـق المعلم كامـل الطاولة وطلب شيشـة وجلس يدخنها وسـط الصحـاب وهو يلقـي ببصره نحـو المعلم فتح اللـه الـذي كان واضحًا أنه كسـب المباريات، بينما هو قد خسـر كثيرًا وكسب قليلًا. اختفى العجلاتي منـذ جاء ولـده ومضى به ولم يعـد، وبدأت الحلوانية في لمِّ شـعث دكانها والاسـتعداد لإغلاقه، امتلأت النوافذ والبلكونات بالبنات والنسوة وكلهن يقزقزن اللب ويثرثرن ويصحن بين الفينة والفينة:

«يا براهيم...تلاتة اسباتس...براهيم.. اتنين بسكال..براهيم...».

ويتدلى «السَّـبت» بحبل طويل، وأسـرع لأضع فيه الزجاجات وأتسـلم القـروش الملفوفـة فـي ورق قديـم قُطع من جريـدة أو كراسـة كانت ذات يـوم محل اهتمام تلميذ ومدرس... في ركن المقهى قبع حسـن فوق مقعد وتدلت ساقاه وتشابكت أصابع يديه وراح يرقب كل شيء في سكون...

لـم يفلح صيـاح المعلـم محمد فيـه أن يعود للبيـت ليأتي فـي الصباح مبكرًا...ولـم يفلح إلحاحـي عليه بأن يروِّح فقد أصر علـى البقاء بكلمات متقطعة وإصرار غريب.

ثم... ثم هدأ الدرب وشمله سكون كانت تتخلله همهمات المتحدثين والمدردشـين...وقفت بباب المقهى مسـتندًا إلى حائطه المتآكل، ورحت أرقـب المعلـم «ممدوح» فـي جلبابه الأبيـض النظيـف، وجلسـته المتربعة الصاحية.. على يميني كان التماثيلجية يتحدثون بحماس وصوتهم يخفت حينًـا ويعلـو حينًـا آخـر، ومن بعدهـم وعلى بعـد خطـوات كان أصدقائي يشربون البيرة وقد غرقوا إلى آذانهم في مناقشة حامية كانت أصواتهم تهدر أثناءها بانفعال وحماس.. و...

معذرة أيها السادة..

لا بد لي من التوقف هنا قليلًا...

....

....

إن قدمي تنزلق إلى بئر الكذب من جديد، ولساني يدور ويدور محاولًا الهرب، فالحقيقة أني ما قلت كل هذا الذي قلته الآن إلَّا لكي أهرب...

لم أكن أرقب المعلم «ممدوح» في جلسته المتربعة الصاحية كما ادعيت، كدت أكذت وأشط بكم في الحديث لأصف أشياء لم تحدث.. الواقع أني كنت أفعل شيئًا آخر، وبصراحة، كنت أتسمع إلى حديث التماثيلجية بانتباه شديد، حتى إني تسللت ساحبًا أحد المقاعد ثم جلست بالقرب منهم كي لا تفوتني كلمة مما كانوا يقولون.

فمنذ أن جهزت زجاجات البيرة لهم ولأصدقائي والأشياء تتحدد من حولي تدريجيًّا...كانت الساعة في ذلك الوقت تقترب من منتصف الليل، وكان السكون يهل والحركة تخف، وكلما هل السكون وخفت الحركة بان الكلام والنقاش وأصبح هو النغمة السائدة في الدرب، وقد كان أصدقائي يتناقشون ويتحدثون ويقولون أشياء كثيرة، لكن الغريب أنها أشياء ليست معادة ولا تتكرر الجملة فيها مرتين، لم يلفت نظري إلى حديثهم ويجذبني إليه أن المشكلة كانت بينهم وبين المعلم الكبير صاحب الورشة، لكن الذي لفت نظري أنهم كانوا يقولون شيئًا!

سمعت الأسطى عبد السلام يصيح في لحظة من اللحظات:

«**يعني حانفضل ساكتين للراجل ده لإمتى؟!**»، فكانت هذه الجملة هي البداية.. لقد انجذب إليهم انتباهي مرة واحدة، لم تكن جملة الأسطى عبدالسلام في حد ذاتها هي التي جذبت انتباهي، بل لهجته؛ صوته كان

حــادًّا باترًا، انفعاله محدد القســمات واضح النبرات، عــلا صوته حقًّا لكنه كان علو الواثق الذي يقرر أمرًا لم يعد يقبل كثيرًا من الجدل.

ورد عليه ساعتها الأسطى رمضان بنفس الحدة:

«طب ما ترسوا لنا على بر بقى يا اسطى!».

ورد الأسطى فاروق في هدوء:

«مفيش غير حل واحد، نتوكل على الله من بكره».

«ونسيب له حقنا؟!».

«إحنــا مش حانســيب يــا جدع، إنمــا إيه الفايده لما نســتنى معــاه ونرفع قضيــه عليه! مــا هو برضه حيلاقــي حاجات يعملها ويــزوغ بيها... حايلف على الوزارة والمفتشين والمحامين ويعيط ويتمسكن ويطلع في الآخر زي الشــعره من العجين... وبرضه حايفضل غالبنا... هي دي شــغلته بصحيح، مش التجارة ولا الورشة كمان!».

بــدت لي المناقشــة غريبــة، كان كلامهم يحمل معانــي واضحة محددة فكأن كل كلمة تلخص ساعات من الحديث المتصل...

لــم تكــن هناك حلقــات مفرغة يــدورون فيها كمــا اعتــدت أن أفعل مع أصدقائي كلما تناقشــنا أو تحدثنا حول موضوع... كنت دائمًا أشعر وكأني أعــود إلــى نفس النقطــة التي بدأنــا منها كلمــا انتابتنا حالة نقــاش حامية... بــل إنــي أســتطيع أن أراهن بعمــري كله أني كنــت أعرف تمامًــا كل ما كان أصدقائي يقولونه في نفس الليلة، بل في نفس تلك اللحظات وهم جلوس

على الضفة الأخرى من عطفة النيدي المطلة على درب الجماميز... أنا لم أسمع من حديثهم سوى جملة واحدة فقط، سمعتها مصادفة، وبالرغم من ذلك يبدو لي طريق المناقشة واضحًا أشد الوضوح... هو هو نفس الطريق الذي سرنا فيه من قبل ليالي وليالي، نفس الكلام ونفس الخلاف ونفس الجُمل ونفس الحدة والتشاتم والتعصب والتخبط... لا يمكن أن يتغير شيء وأراهن بعمري كله... ظللنا لثلاث سنوات طوال كنا نتقابل فيها كل ليلة!!

قبل أن أسحب الكرسي وأجلس بالقرب من التماثيلجية بقليل، علا في الدرب صوت عادل وهو يقول منفعلًا غاضبًا:

«ده عضو فاسد يجب بتره».

ولم أسمع بعد ذلك شيئًا، ولم يكن يعنيني أن أعرف من هو هذا العضو الفاسد الذي يجب أن يبتر من المجتمع، كنت على يقين أن «عادل» صديقي يتحدث عن شخص ما، أي شخص أخطأ في وزارة، مؤسسة، أو مجلة أو شركة أو ... أو أي مكان في بلدنا من الإسكندرية حتى أسوان... المهم أن سمات هذا العضو الفاسد لا يمكن أن تتغير، خطأ أو عدة أخطاء وقع فيها، ولا يهم «عادل» أن يكون مواطنًا شريفًا أو رجلًا طيبًا أو يكون قد غير مجرى صناعة أو فن أو صنع معجزة... لا يهم عادل هذا. كل ما يهمه في الموضوع أن الرجل أخطأ ويكفي، ومن يخطئ يجب أن يعاقب، حتى ولو كان خطؤه نتيجة الإنتاج والعمل، فعادل صديقي – أيها السادة – لا يعترف بالأخطاء ولا يقبلها مهما كانت صغيرة أو تافهة.

وعلـى العكـس منه كان صابر - أيها السـادة - رجلاً معتـدلاً، لكنه كان فـي تلك الأيام يعبر فتـرة غريبة من فترات حياته، إن أشـياء كثيرة تتغير أمام عينيه وتتبدل، إنه رجل آمن بمبادئ عظيمة ظل يعمل من أجلها سنوات دون أن يخطـر بباله أن في الإمكان تحقيقهـا، وإن تحققت فليس في الإمكان أن يلحقـها جيلـه، كانت تبدو له دائمًا بعيدة المنال، تبدو له في الأفق كسـراب أو نوع من أنواع الخيال... لكنه صحا ذات يوم ليجد السراب يتجسد والحلم يصبح أشياء محددة يكفي أن يمد يده إليها فيتحسسها ويلمسها، فانهار كثير مـن الحقائق في ذهنه فوق بعضها البعـض واختلطت وتميعت، وكان لا بد لـه من رفع الأنقاض وبناء شـيء جديد... هكذا - أيها السـادة - كان صابر في اليمين واليسـار معًا وفي آنٍ واحد، الجميل في هذا يعيشـه والجميل في ذلك ينادي به وتكفيه بعد ذلك هذه الجنة!

أما صديقي محمود - أيها السـادة - فقد كان دائمًا حمامة سلام لا تستقر على حال، هي أحيانًا تطير إلى اليمين وترقد فيه وتتغنى بمحاسنه، وهي أحيانًا تلتقط الحَبَّ من اليسار محلقة في سمائه... هو هنا هناك دون تحرج.

واعذرونـي - أيهـا السـادة - إن كان الحديـث قـد أخذنـي... فأنـا في الحقيقـة لـم أفكر في كل هذا في تلك الليلـة، فإن حديث التماثيلجية وقتها أخذني وامتصني بمجرد جلوسي بجوارهم وقريبًا منهم.

الأسطى الكبير صاحب الورشة لم يكتب معهم عقودًا، وكلما طالبوه بكتابة عقود لضمان حقهم ومسـتقبلهم، تملص وتهرب... كانوا يعرفون أنه يتهرب من أشـياء كثيرة، لكن الذي كان يعنيهم حقًّا هو حقوقهم، وكانوا يبحثون عن

حل للمشكلة... وقد انتهوا من البحث واستقروا على رأي وراحوا يدردشون حول الموضوع... أكثر ما يدهشهم في الأمر كله هو شخصية المعلم الكبير ذات نفسه... «**الغريبة انه اتغير بالشكل ده يا جدعان... هي الفلوس يتعمل إيه في الناس؟!**».

«**شوف يا اسطى رمضان. الراجل ما تكشفوش إلا فراغة عينه**».

طلبوا زجاجة بيرة أخرى وراحوا يمارسون جلسة المساء بعيدًا عن المشاكل:

«**فضلت تقول لنا ده راجل طيب، ده راجل طيب، لحد ما أكل حقنا!**».

«**وانا كنت اعرف منين، وحياة النبي ده لما كان بيشتغل معايا في ورشة السكاكيني كان راجل زي السكر... آهو كان زي حالتنا كده**».

«**كان بيقعد على قهوة البرج... كنت باشوفه هناك!**».

«**ماهو الراجل ما تكشفوش إلا فراغة عينه**».

«**يا خلق الله... لما كلمته آخر الجمعة اللي فاتت، باقول له يا اسطى الرجالة يعني عاوزة تحط تقلها عليك... قالي: حد منكم ناقصه مليم من يوميته؟ قلت له مش المهم النهارده، المهم بكره**».

«**هو البني آدم منا ضامن يومه؟ وما دام حقنا، ليه ما ناخدوش؟!**».

«**ويصرف على اللي بيصرف عليهم ازاي؟**».

«**سمعتوا يا جدعان اللي حصل الجمعة اللي فاتت؟!**».

■■■

وقد ســمعوا بلا شك حكاية الأسـطى رمضان، أما أنا فلم أسمعها، فقد كانت هنية تهل على الدرب من بعيد وشبحها يتراقص في ظلال الليل كأنها تعلن للناس فرحتها... كان الدرب لا يزال على حاله؛ الرجال جالسون هنا وهنـاك غارقون فـي حديث كسـول أو صمت متقطع... على يسـاري كان محروس الفران يجلس فوق مقعده وقد حنى جذعه للأمام ومبسم البوري لا يفارق يده، بينما شفتاه تمصانه بين الحين والحين في أنفاس سريعة وقد جحظت عيناه وهما ترقبان كل شـيء من حوله كأنه يريد أن يعوض ما فاته من أحداث اليوم... وكلما التقت عيناه بعيني هز رأسه محييًا وأطلق كلمة: «مرحب» عبر المسافة التي تفصله عني.

عـادت هنيـة إلى الدرب فارتـدت روحي إليَّ من جديـد، دخلت نطاق النور وكانت تحمل في يدها لفافة الطعام وتحمل على وجهها كل علامات الإشـراق... رأيتها تتبادل مع سعدية نظرات أشرقت بها العيون وتفاهمت، انحنت لتضع الطعام بين يدي أمها، وتهامست معها ثم ابتسمت الأم وابنتها معًـا، واسـتقامت بعد ذلك هنيـة لتعبر الدرب نحوي وفـي يدها كوز المياه الكبير، تقدمت مني أمام الجميع ووقفت أمامي وقالت بنبرة من قررت أمرًا لم يعد محل نقاش أو تردد:

«سي براهيم... حداك ميه ساقعه؟!».

«حدايا يا هنيه... من عنيه».

«تسلم لي عينيك إن شاالله».

رفع محروس الفران مبسم البوري إلى شفتيه وجذب منه نفسًا طويلًا واعتدل في جلسته وهو ينفث الدخان من أنفه في سحابات خفيفة... نظرت إليه بجانب عيني وأنا أنحني على الصندوق لإخراج قطعة من الثلج وكانت هنية بجواري، وكان هو يبتسم ابتسامة واسعة... اقتربت مني هنية حتى كادت أن تلتصق بي وهي تهمس:

«اتعشيت؟».

مرت عيناي بوجه محروس بسرعة وقلبي يدق، وارتفعت عيناي نحوها وأنا أقول:

«تصدقي بالله... أنا على لحم بطني من الصبح لحد دلوقت!».

ولم أستطع المقاومة، رحت أرمق «محروس» من جديد فالتقت عيناي بعينيه الفاجرتين... كان الرجل يبتسم، بل كان يضحك ملء وجهه النحيل، وكان مائلًا على جانبه ملتصقًا بالحائط وكل خلجة فيه تقول: لقد عرفت!!

أيقنت على الفور أن شيئًا لا بد سيحدث، أيقنت أن مصيبة ستحل بالدرب السعيد... ماذا يقول الناس لو عرفوا هذا الذي يدور بيني وبين هنية؟! نظرات الأم البعيدة لا تنبئ عن شيء سوى السعادة والفرح الصامت، الطفل نام في حجرها، ونامت فوقه لفافة الطعام التي أحضرتها هنية، أسرعت بغسل الثلج ووضعه في الكوز، فتحت الصنبور على آخره حتى امتلأ الكوز بالماء وسلمته لهنية... ووقعت أصابعها فوق أصابعي، ومرت لحظات هي في الحقيقة لمحات خاطفة، لكنها اختطفت روحي

وعصـرت قلبي وابتســمت هنية وهي تنســحب بالكـوز لتعبر الـدرب إلى حيث تجلس أمها.

وهنا - أيها السادة - حدث ما لم أتوقعه.

نهض محروس ووضع المبســم فوق المقعد وكان واضحًا أنه يريدني، هرولـت إلى الداخل فسـد علـيَّ طريقي المعلم محمد الـذي كان قد غادر مكانه، عيناه في عيني، صدره أمام صدري، أنفاســه تتردد وشـفتاه تتمتمان بكلام كثير لم أسمعه.. بل فهمته فقط!

«أبدًا يامعلم... كانت بتقول لي اتوصى حبتين بحتة التلج».

«وبعدها معاك يا براهيم، هو التلج ده ببلاش؟!».

وجدتني أرد على الرجل في حدة:

«والمشاريب اللي بياخدوها دي ببلاش.. دول زباين يا معلم محمد!».

«إزيك يا براهيم؟».

كان محـروس يقف خلفي وقد دس يديه في جيبي جلبابه ورفعهما إلى صدره فانشلح الجلباب وتعرى جزء من ساقيه.

«مرحب يا معلم محروس».

«والنبي إنت جدع طيب وابن حلال».

ارتجـف قلبـي وهوى بيـن ضلوعي كحمامـة مذبوحة، مر علـيَّ النهار وتبادلـت مع هنية عشـرات النظرات وتحدثنـا وتقابلنا وتبادلنا الإشـارات فلـم يلحـظ أحد في الـدرب ولم يعتـرض طريقنا مخلوق...ثـم جاء الليل

برجـل بدا من الوهلة الأولى متحفزًا للشـر باسـمًا له مرحبًا بـه.. ماذا يريد المعلم محروس الفران؟ وما الذي تعنيه ابتسامته الصفراء هذه؟! وإلى أي مـدى يمكن أن يتدخل وأن يثق وأن يوقن أن بيني وبين هنية شـيئًا؟ المعلم محمد أمامي ومحروس على يساري وعيونهما تنطق بما لـم أستطع تفسيره ولساني يتلعثم وقلبي يدق... وتلتقط أذناي تصفيقًا آتيًا من الخارج وصوت صديقي عادل ينادي بلهفة:

«يا براهيم.. يا براهيم...».

وكأنهـا نجدة هبطـت عليَّ من السـماء.. فقد صحت وأنـا أفر من وجه الرجلين: «أيوه جاااي».

تركتهما مهرولًا وقلبي يدق في انفعال وخوف، اندفعت إلى حيث كان الثلاثـة جالسـين في مكانهم، مـا زالت في زجاجتي البيـرة بقايا والأكواب لـم تفرغ؛ فلمَ النـداء إذن؟! النظرات مركزة على وجهي، ونسـمة تهب من العطفة، وأتنفس ملء صدري وأنا أغسل وجهي في الهواء الرطب وأهرب بعيني بعيدًا عن عيونهم المحملقة:

«أيوه يا بهوات.. أيها خدمة؟!».

«إيه حكاية البت دي؟».

كمن يستجير من الرمضاء بالنار، تساقط العرق ليغرق جسدي ويتساقط من تحت إبطي... تداخلت المرئيات أمامي وابتسـمت ابتسامة لا معنى لها وعاد عادل يردد بصوت خافت:

«سيبك من الشغل ده...علقتها إمتى؟!».

ضحك محمود ضحكة خجلة، ودارى شفتيه، واهتز جسده بالنشوة... وشب صابر في مقعده وهو يهمس بصوت خشن:

«بصراحة ياوله...إنت مكشوف قوي!».

«البت مش بتنزل عينها منه!».

«ودي تبقى جزء من التجربة يا روح امك!».

«والنبي حلوة!».

«إلاَّ حلوة.. دي زي الجمار يا وله!».

«كانت بتقول لك إيه؟».

«اسمع، الشقة تحت أمرك...بس إنت ياالله».

«ده خيبان...بلا نيلة!».

«هاها... ها...».

«واللا حاتعمل لي شريف في دي كمان؟».

«ما تقول يا بني آدم كانت بتقول لك إيه؟».

«ده باين عليه بيحب يا ولاد!».

«بيحب؟ هو ده وش نعمة؟».

«البت التانية تبقى مين؟».

«حاتقول واللا نسأل احنا؟!».

«براهيم.. يا براهيم!».

كان الأسطى رمضان هو الذي ينادي، نظرت إليه مستغيثًا...

«أيوه يا اسطى...حاضر...حاضر...».

التفت نحو الثلاثة وأنا أكظم ما في نفسي من نار كانت تحرقني...

«أيها خدمة يا بهوات؟».

«إستنى هنا... إنت حتاخدنا في دوكة؟!».

«لأ...سيبه يروح للزباين وبعدين ييجي!».

«أيها خدمة يا بهوات...أيها خدمة؟».

«جرى إيه يا بن الـ...إنت واخد الحكاية جد قوي!».

«أيها خدمة؟».

«تشوف الرجالة عايزين إيه وترجع...يالله قوام».

خطوة، وخطوتين، وفي الخطوة الثالثة كنت أقف أمام التماثيلجية وكل شيء يميد تحت قدمي من الانفعال والغيظ معًا، أيقنت أن ما تخيلته قد يحدث بين لحظة وأخرى، وأن عملًا كالذي فعلته هنية لا يمكن أن يمر على الدرب بسلام...كانت هنية - أيها السادة - تعاملني أمام الجميع وكأني عزيز تعرفه منذ أن ولدت، انتابني الدوار للحظة، ربما بتأثير التعب والجوع فقد كان جسدي يتمزق وساقاي لا تكادان تحملانني...تداخلت في عيني وجوه التماثيلجية حتى أصبحت وجهًا واحدًا بعشرات العيون والأنوف والآذان، هزرت رأسي وتنفست ملء صدري فأفقت وعادت

الصـورة إلى طبيعتها فإذا وجوههم جميعًـا نحوي، وعيونهم تحاصرني... مضت ثوانٍ قبل أن ينطق الأسطى عبد السلام وهو يحملق في وجهي:

«إيه يا بو خليل... مالك؟!».

«سلامتك يا اسطى».

«لونك مخطوف!».

«أبدًا...».

«العيال دول ضايقوك في حاجة؟».

كان يومئ برأسه نحو أصدقائي وباستهانة شديدة...

«مين؟ الأفندية دول؟».

«تعرفهم؟».

«المعلم محمد بيقول دي أول مرة بييجوا فيها هنا!».

«فيه حاجة مضايقاك؟».

«أبدًا يا اسطى.. سلامتك!».

«طب هات قزازة بيرة...وشوف عمك فتح الله عايز إيه...ده بيصقفلك من الصبح ولا انت هنا!».

«حاضر...».

قلتها وأنا أميل بكل جسدي عابرًا الدرب إلى حيث كان المعلم فتح الله يجلس مع صديق بعد أن غادره الآخرون... كنت أترنح وكأني شربت أطنانًا

من الخمر، بدا لي كل شـيء تغلفه غلالة دامسـة، بعدت الأصوات وكأنها كانـت تأتينـي مـن أغـوار بلا قـرار، كأن بيني وبين الناس آلاف الأميال... ما الذي سيحدث وكيف أتصرف وما الذي يمكن أن أقوله؟ ما إن استدرت مغـادرًا التماثيلجية حتى توقفت في ذهني جملة راحت تطن في أذني طنينًا معذبًا: «شوف عمك فتح الله عايز إيه»... التماثيلجية أيضًا لاحظوا، كشفوا السـر، عرفوا المخبوء، ولا تفسير لابتساماتهم سوى أنهم يعرفون، الدرب كله يعرف، أصدقائي يعرفون، محروس يعرف... و... ولماذا قال الأسطى عبـد السـلام «عمك» فتـح الله ولم يقـل المعلم فتح الله... أنا لا أسـمع، ولا أكاد أرى... هنيـة... هنية جالسـة بجوار أمهـا، عيناها معلقتان بوجهي والابتسـامة تملأ وجهها ولو علمت أن الناس يعلمون لاختفت من وجهها علامات السـعادة وحل محلها الشـقاء والألم، هذا أكيد... ماذا سـيقولون عنها، كيف تعود إلى الدرب بعد أن تلوك سـيرتها الألسـن... أنا أعرف أن الحب عند أولاد البلد حرام إلا في الحلال... أعرف كيف تصبح السـمعة ملطخـة، وكيف تجري الدماء لكل كلمة تقال، أو ربما نظرة تسـدد في غير موضعها...

«مالك؟ واقف كده ليه يا جدع؟!».

«أيوه يا عم فتح الله!».

عم فتح الله... مرة أخرى؟!

لماذا لم أقل يا معلم... لماذا تتلاشى إرادتي و...

«جرى إيه يا براهيم؟ إنت باين عليك تعبان».

وصوت عادل كالمطرقة يلح على أذني:

«يا براهيم... يا براهيم...».

والمعلم فتح الله:

«براهيـم»... وصيحة هنيـة: «براهيم»... ومن بعيـد كان المعلـم محمد يصيح: «ما تشوف ماله يا جدع!».. والأسطى رمضان: «براهيم»... وعادل: «براهيم»... وسـمير: «براهيم... براهيم»... سـمير هنا، سمير هناك، هنية، والدنيا.. وأمي... وأبي.. وا... و...

هـواء... هـواء... أريد أن أستنشـق الهـواء... أريد أن أحيـا... أريد أن أخرج من ذلك الجُب الذي اصطادوني فيه... إني أختنق، حلقي مسـدود، يد تعتصر عنقي..

«حاضر يا معلم... أيوه يا معلم...».

قلتها واستدرت عائدًا إلى المقهى والبيوت من حولي تتراقص وتتمايل، أسـتدير فيسـتدير حولـي ومعـي كل شـيء، الأرض والسـماء والأضـواء والوجـوه، وجوه وجوه... أسـير وأسـير... حلـم غريب، كابـوس... ماذا أصابنـي وما الـذي يصيبني؟ إني أرتعش من البـرد، أطرافي مثلجة، جلدي مشـدود، هـواء... هواء... نسـمة... النمل يزحف على صـدري بالآلاف، النمـل يقرصني، صراخ، صوات، نـواح، صفير، وطفل يزعق من بعيد، من عشرات السنين: ماما... ماما... يستغيث، هنية هناك... على الضفة الأخرى للنيـل، للـدرب، لا ... للنيل... هنية.. هنية تنهـض، نظراتها فزعة، وجوه، أفواه، أسـنان، عيناها واسـعتان. بحر. بحر عميق بلا قرار، صادقة، صادقة، أنا خائف، أنا كذاب، الجنية هناك، القصر المسحور، الجواهر...و...

«مالك يا براهيم؟! مالك؟!».

«دايخ... دايخ شوية».

كنت أراهم ولا أراهم، كنت أسمعهم من بُعد مئات السنين، أشباح تتحرك، أجساد تتداخل، يد حسن الصغير تتشبث بذراعي، وجهه وجهان... وعيناه أربع عيون... إني خائف..

«مالك يا سي براهيم؟!».

حسن مذعور، عيناه مذعورتان... الحقيقة... أنا كذاب...

«إيه العبارة؟!».

ممدوح يهزني من كتفي...

«خبر إيه يا براهيم؟!».

وجه محروس يلتصق بوجهي، فتحت فمي لأرد عليه، لكني شهقت، وانتفضت وارتددت إلى الخلف، وتساقطت قطرات المياه التي رشها المعلم محمد من وجهي...

«ليه كده يا معلم؟!».

خرج صوتي أخيرًا... إفراج، اهتز رأسي بعنف، بدأت الأصوات تعود إلى أذني بصرخات وصفارات رفيعة وصراخ طفل يعود مذعورًا: ماما... ماما.. والوجوه تنحدر، وحسن يقفز بفمه المليء بالمياه ثم يدفع المياه إلى وجهي، لاحقته بصفعة لم تطله فقد فر من أمامي ضاحكًا، دفعني ممدوح إلى مقعد جلست عليه ورحت أتطلع إلى الوجوه التي ازدحمت حولي،

وانفرجـت الوجـوه كلها تفسـح الطريق لآخر وجـه توقعتـه... كانت هنية تدفعهم مُفسحة لنفسها طريقًا، وقفت أمامي والذعر في عينيها:

«سلامتك يا سي براهيم!».

في يدها بصلة مدشوشة كانت تقربها من أنفي:

«خد شم دي».

طفرت الدموع من عيني بالرغم مني وأنا أحرك رأسي في الهواء مبتعدًا بأنفي عن رائحة البصل النفاذة...

«لأ يا هنية... لأ...».

وضعت يدها على رأسـي ودسـت البصلة في أنفي فشهقت متنفسًا من فمي لكنها لم تتركني...

أفقت تمامًا...

«بلاش كده يا جماعة وحياة النبي... بلاش اللمة دي».

علـم الدرب كلـه بالخبر، وتـرك الرجـال مقاعدهم، واشـرأبت أعناق النسوة وهن يتطلعن نحو المقهى بقلق...

«إبراهيم تعبان... جت له دوخة».

«شمموه بصل».

«بخوا في وشه شوية ميه».

«مـا هو طول النهار يا حبة عيني ما همـدش، رايح جاي زي المكوك... الله يكون في عونه».

«يا جماعة دي الدنيا زمته شويه.. خلوه يشم الهوا».

«إيه فيه إيه... عن إذنك يا أخينا... مالك يا صا... يا ... يا ...؟».

رفعت عيني لأجد الدكتور سمير أمامي وجهًا لوجه... في يده حقيبته، وخلفه كان الثلاثة يتطلعون نحوي وفي عيونهم قلق بدا في ذلك التجهم الجاد الذي ارتسم على ملامحهم... أمسك سمير برسغي وهو يتمتم:

«أنا لسه واصل سمعت الحكاية، رحت اجيب الشنطة من العربية... حاسس بإيه؟».

انتفضت واقفًا وأنا أقول مبتسمًا:

«جرى إيه يا جماعة... مفيش حاجة... مفيش حاجة!».

وأحسست بصدر هنية يحنو على صدري، وكفها ترتفع إلى ذراعي لتحيطه بأصابع حنون، كان وجهها قريبًا من وجهي، ورائحة البصل كالعطر تفوح من حولي، وصوتها يغرد في قلق رقيق:

«سلامتك يا سي براهيم... سلامتك».

«تسلمي يا هنية... تسلمي».

- 14 -

لـم تمـض على الـدرب دقائـق حتى عاد كل شـيء إلـى حالـه، مضى على انتصاف الليل نصف ساعة ولم يعد المولد منصوبًا، همد العيال بعد طول صياح ولعـب، ثم دخلوا البيوت وغرقوا في سُبات عميق، اختفـى التلاميذ من مكتبة عمران وخف رواحهم وغدوهم، وسـحب عمران مقعـدًا جلس عليه أمام باب مكتبته وحيدًا يتأمل الناس من حوله في سـكون، وفي يده كتاب مغلق... حدث الـذي حـدث فنزلت على الدرب من بعده سـحابة قاتمة لونـت حديث الرجال بلونها فخفتت أصواتهم ورقت أحاديثهم كما خفتت أصوات النسوة والعذارى فـي البلكونـات والنوافذ وتباعـدت نداءاتهم حتـى كادت تتلاشـى تمامًا، لكن الحديـث الخافـت كان يتجمع في سـماء الدرب في سـحابات من همهمات لا تنقطع... مضت دقائق كنت أقف فيها بباب المقهى سـارحًا ناظرًا إلى لا شـيء أمامي، حتى فرقع صوت عادل كالسوط يجلد به ظهر السكون ويمزقه:

«لكن ده عضو فاسد يجب بتره... مفيش علاج غير كده».

لا بـد أن دائـرة الحديث هنـاك عادت إلـى الدوران من جديـد وقد زاد عددهـم واحدًا بعد حضور سـمير... ومن خلفي سـرى إليَّ همس المعلم محمد وكأن صوت عادل قد ذكره بأمر ما:

«براهيم... براهيم».

التفت نحوه وكان مائلًا من خلف البنك، شفتاه الشرهتان منفرجتان عن نصف ابتسامة وهما تتمتمان في نفس الوقت بكلمات تبينتها بصعوبة «**مش كنت بتقول إنك ما تعرفهمش، أُمال الدكتور قاعد معاهم إزاي؟!**».

وتذكرت لحظتها أني أنكرت أصدقائي ساعة مجيئهم، كنت قد نسيت لكنه لم ينس... وقعت في الحيرة لثوانٍ وكدت أترك سؤاله بلا جواب، وكدت أذكر له الحقيقة أيضًا، لكني وجدت نفسي في النهاية أقول:

«ما اعرفش، يمكن أصحابه هو... لكن انا ما اعرفش».

وعاد المعلم محمد يلحُّ في إصرار:

«يا جدع دول كانوا بيتكلموا عنك وانت مسورق!».

هززت كتفي وأنا أستدير مبتعدًا عنه، فاستوقفتني عينا حسن في الركن تبرقان كعيني قط يتحفز للانقضاض، توقفت لبرهة أمام الوجه الصغير فابتسم، ثم تدحرج نحوي خفيفًا وهو يقول بحنان:

«ما ترتاح إنت شوية يا عم براهيم».

امتدت ذراعي لتحيط كتف حسن، أخذته إلى أحد المقاعد ورحت أتملى في تقاطيعه..

«حاتقعد معانا لآخر الجمعة بصحيح يا عم براهيم؟!».

كانت النظرة المتحفزة قد اختفت لتحل محلها نظرة أخرى حانية، ابتسمت للصغير وأنا أدس في كفه قرشًا خفية من المعلم محمد، ثم قلت له: «**ما حدش عارف يا حسن... دي أرزاق**».

«ما تخليك معانا على طول والنبي».

تذكـرت حديثه معي فـي الظهيرة فخفق قلبي... ووجدت نفسـي أقول بلا وعي:

«بالك يا حسن... إنت حاتوحشني قوي!».

«دي البت هنية كانت بتعيط وانت مسورق».

«الود ودي أقعد معاكم على طول يا حسن... على طول!».

«طلعت تجري جابت بصلة، وانكفت على وشها لما رجلها وقعت في نقرة».

خطفـت مـن وجـه هنيـة نظرة سـريعة، لـم أكـن خائفًـا هذه المـرة من الفضيحـة ولـم أرتعب ولم أحذر ممـا يمكن أن يقال عنهـا أو عني، بدا لي الأمـر فجأة وكأنه شـيء عادي يباركـه الجميع... وكانت هنيـة لا تزال في جلستها بجوار أمها وعيناها على المقهى لا تفارقانه... وقلت لحسن مغيرًا مجرى الحديث:

«مش عاوز تعرف أنا باخد كام يومية يا حسن؟!».

«ما تخليك معانا على طول والنبي يا عم براهيم».

«ما اقدرش يا حسن... ما اقدرش».

«طب وهو انت لقيت شغل لسه؟! لما تلاقي شغلانة في حتة تانية».

صفق المعلم كامل، فانفلت حسـن مسـرعًا إليه ولم أتحرك... اسـتدار محـروس نحوي برأسـه وما زال مبسـم البـوري بين يديه وعلى شـفتيه لم يغادرهما، ثم صاح بصوت ثاقب:

«يا براهيم يا براهيم يا نوارة الحتة».

انتابتني في تلك اللحظات - أيها الســادة - راحة عميقة، مددت ســاقي أمامي ورحت أســترق النظر نحو هنية وأتســمع إلى التماثيلجية... كانوا قد عادوا إلى دردشتهم وحكاياتهم عندما صاح الأسطى فاروق في مرح:

«بقى إحنا حانروح ورشتنا بكرة يا جدعان؟ يا سلام... يا سلاااام..!».

مال عليه الأسطى رمضان وهو يعيد كوبه إلى سطح الصندوق الفارغ:

«بالك يا جدع، لو عرفنا نسوق البضاعة كويس، حاتبقى الأشيا معدن!».

وعاد محروس إلى الصياح مصفقًا بمرح:

«حلاوتــك والنبــي يا براهيــم... دي الحتــة ردت فيها الــروح يا جدعان والناس قاعدة بتتسامر!».

أحسست كأن كل شيء يضمني إليه في حنان... نهضت واقفًا وتقدمت من بــاب المقهى، كانت بعيدة عني، تفصلني عنها عدة أمتار، لكن الحقيقة أني كنت في حضنها وأنها كانت في حضني... قد تبدو لكم كلماتي - أيها الســادة - بذيئــة أو مبتذلــة وغير منتقاة، لكني في الواقع أتعمد ذلك، فأنا لا أحب تغليف المعاني بكلمات لا تحددها بشكل قاطع.

كنــت فــي تلك اللحظات كالســابح في بحــور خيال لا نهايــة لها، كنت غارقًــا بين يــدي هنية اللتين أحاطتا بذراعي ســاعة أن هببــت واقفًا ورائحة البصــل تملأ خياشــيمي... كان صدرها لا يزال حانيًا علــى صدري، وكان

وجههـا قريبًا من وجهي ورائحة البصل تملأ أنفي كالعبير... كم تمنيت في تلك اللحظات أن أرتمي في حضنها وأنام، أو أبكي!

كم تمنيت ذلك!

لبى حسـن طلب المعلم كامل وجاء ليقـف بجواري ويلتصق بي مرددًا بصـره مـا بين وجهي ووجـه هنية... وكانـت أمها تفض لفافـة الطعام فوق جسد الطفل الممدد على حجرها، وكان أبوها يقلب صفحات كتاب في يده بعـد أن غادره صديقه وبقـي وحده متربعًا فوق المقعد أمام المكتبة، تضافر كل شـيء على إسعادي، وكان أول السـائرين في هذا الطريق هو محروس الفران... صفق بيديه وطلب لي شـايًا على حسابه، ابتسمت شاكرًا وهرول حسن ليُحضر الشاي، وتحرك المعلم محمد خلف النصبة وصاح ممدوح ضاحكًا من الرصيف الآخر:

«وليه البعزقة دي يا محروس!».

أسـند محروس مبسـم البوري إلى المقعد ونهض في مكانه ودس يديه في جيبي جلبابه ورفعهما إلى صدره فانشـلح الجلباب وبانت سـاقاه، كان يبتسـم في سـعادة ومرح، ظـل يقترب مني حتـى كاد يلتصق بي ثم سـألني بصوت خافت:

«إلا انت ساكن فين يا براهيم؟».

رغـم التعـب والإرهـاق - أيهـا السـادة - ورغـم السـعادة التـي كنت أسـتحلبها فـي فمي، فقـد أصبحت محترفًا، ولـم يعد الكذب عندي شـيئًا يحتاج إلى مجهود أو تأنيب ضمير أو إعداد:

«في بولاق يا معلم محروس... ليه؟!».

قلتها بلا مبالاة ولا اهتمام وأنا أسحب مقعدًا وأجلس عليه، تطلعت إلى محروس ملقيًا برأسي إلى الخلف مغمضًا عيني عنه وعن كل شيء، لكني سمعته يقول:

«وساكن بكام؟!».

«بخمسين قرش».

فتحت عيني على محروس وهو ينحني بجواري قائلًا في إصرار:

«خمسين قرش ليه! هو انت يوميتك كام؟».

«ولم أرد...».

«إسمع يا براهيم، إحنا إن ما أكلناش عيش وملح النهارده، حناكله بكرة... إنت دلوقت منا وعلينا، والمشوار بعيد عليك، كل يوم رايح جاي رايح جاي، ولازم تركب... والمواصلات برضك عاوزة مصاريف».

«آهي ماشية يا معلم محروس».

«وليه ما تنامش معايا في المخزن وتوفر النص جنيه؟».

«مخزن إيه؟».

«مخزن القهوة، آهو قدامك في العطفة، والحصيرة اللي تقضي راجل تقضي اتنين والدنيا صيف».

استدرت نحوه ورحت أحملق في وجهه، بدا لي الأمر وكأنه حلم بعيد عن التصديق... وكان محـروس لا يزال يتحدث... **«وانت يعني حاتفضل كده يعني؟!»**.

«قصدك إيه يا محروس؟!».

«يعني انت يعني حاتفضل عازب على طول؟!».

صدقوني - أيها السادة - لم يكن في حديث محروس ما يثير الاستفزاز أو الضيـق، بـل كان حديثه رقيقًا صديقًـا ودودًا يقطر الصدق من كلماته بلا مـواراة ولا افتعـال ودون تطفـل... رحـت أتفحـص وجهه النحيـل وذقنه النابت وطاقيته التي انزلقت إلى الخلف وقد تملكتني الدهشة...

«قلت إيه يا براهيم؟».

لم يكن عندي ما أقوله، كان عندي فقط ما أحسه وأشعر به... ماذا أقول وأنا أرى الرجل يسير نحو هدفه صريحًا واضحًا ودون لف أو دوران...

«واللا انت يعني ناوي تفضل عازب طول عمرك؟».

فقط... أحسسـت في البداية بالحرج والخجل، رحت أبحث عن إجابة لسؤاله فلم أجد... طال صمتي وطال انتظاره فقلت متهربًا:

«طيب ما انت عازب اهو يا معلم!!».

بانـت الدهشـة علـى وجهه، وفغـر فاه مسـتنكرًا، ثم صـاح بصوت ملأ الأسماع كلها:

«مين اللي قالك كده؟ أنا متجوز والحمد لله، بس العيال في البلد لحد ربك ما يعدلها وترسي لها على بر... وآني شايف برضه يعني إن الحكاية قريبة من بعضها».

أوقع صياحه الفزع في نفسي فرحت أتلفت حولي، غير أن الجميع كانوا غارقين في أحاديثهم أو صمتهم غير ملقين بالًا لشيء أو لأحد ممن أو مما حولهم... قلت بصوت خفيض وأنا أرتجف انفعالًا من شيء لا أدريه:

«حكاية إيه يا معلم محروس؟! حكاية إيه اللي قريبة من بعضها؟!».

كنت أحملق فيه وقلبي ينتفض، لكنه ضحك ضحكة من كان ينتظر الإنكار...

«يا جدع داني شايف بعيني دي... وما دمنا غاويين بعض، يا بخت من وفق راسين في الحلال... تحب اكلم لك ابوها؟!».

وكأنه كان يضربني على أم رأسي بمطارق من حديد... ما هذا؟! ما الذي يقصده هذا الرجل؟!... وإلى أين يقودني الطريق؟! وهل ... هل...؟!

«قلت إيه يابو خليل؟ خير البر عاجله».

لم أرد...

«وما دام أبوها راضي وأمها راضية...».

صمت قليلًا ثم قال مُطلقًا ضحكة مدوية:

«وانا كمان راضي...».

وترددت الضحكة في جمجمتي كمطارق كانت تدمر عظامها... إلى أين يقودني هذا الطريق الذي يريده محروس؟ وكيف... كيف...؟

«جرى لك ايه يا جدع... تحب اكلم لك أبوها؟».

كان يهزني من ذراعي، فانتبهت قائلًا بصوت كالفحيح:

«محروس... محروس...».

حملق الرجل في وجهي دهشًا؛ فقد كنت وكأني أقف على شفا حفرة من النار سأتردى فيها بين لحظة وأخرى... كنت منزعجًا لسبب لا أدريه فقد كان حديث محروس وديًّا... انتابني رعب حقيقي جعل الرجل يجفل في البداية، ثم يلزم بعد ذلك الصمت عجبًا...

لطالما وقفت أمام تلك اللحظات - أيها السادة - دهشًا أنا الآخر... علام كان هذا الفزع؟ علام كان هذا الانزعاج الفاجع الذي أحسست به وقتها؟ علام؟! لم يكن خوفًا على هنية من الفضيحة قطعًا، فقد كانت لهجة محروس وكأنها ستار يؤمن ما خلفه ويحميه... كأن الحب شيء مقدس لا يقبل جدلًا وليست من صفاته الفضائح وأحاديث الناس، لست أدري... لست أدري... لكني كنت مرتعبًا من شيء ما.. شيء أكاد أراه وألمسه بيدي، لكني لا أعرفه، دفعني خوفي هذا إلى الفرار سريعًا، فقد نهضت وأنا أدفع «محروس» عن طريقي قائلًا:

«أنا ما حبش اسمع كلام من ده تاني يا محروس... فاهم؟!».

قلتهـا وأنـا أنحدر إلـى أرض الدرب دائـرًا كالذبيح ما بيـن التماثيلجية وأصدقائـي، تتـردد فـي صدري صرخـات عاتيـة لآلام لا توصـف، وكان محروس يضحك وهو يتبعني بعينين تفيضان بالحنان، وكان صوته يسـري في الدرب مع تصفيق كفيه فكأنه يغني موَّالًا:

«براهيم يا براهيم يا نوارة الحتة!!».

- 15 -

عاد عادل يهوي بصوته فوق ظهر السكون صائحًا في حدة:

«لكن ده عضو فاسد يجب بتره.. مفيش علاج غير كده».

وران بعد ذلك الصمت، والتقت عينا عادل بعيني، فقد كنت قريبًا منهم لحظتها...كانت عيناه حمراوين بفعل البيرة والغضب معًا، راح يسدد نظراته إلى وجهي في تحدٍّ واضح غير خفي، فاستدرت مبتعدًا فقد كنت أعلم ما يمكن أن يفعله عادل في مثل اللحظات...رحت أرقبهم من بعيد، وكان هو يجيل بصره في وجوه الثلاثة كالنمر الغاضب بحثًا عن شيء يثير الانفعال أو الغضب، لكن صابر كان ينظر إلى السماء محدقًا إلى البدر الذي أطل من فوق بيت عبد السلام أفندي، وبدا أنه راح في غيبوبة حملته بعيدًا عن هذا العالم. وألقى محمود بنظراته فوق الأرض في سهوم جعله يبدو كالتمثال، يده اليمنى تقبض على سلسلة مفاتيحه في حرص وكأنه طفل جائع يقبض على ثدي أمه، أما يسراه فتقبض على اليمنى بما فيها.. وبدا سمير في وسطهم حائرًا؛ بدا وكأنه لا يعرف ماذا يقولون، كنت أسمعه في بعض الأحيان يلقي بتعليق أو يتحمس لرأي أو يؤيد فكرة، لكن سرعة

حديثهم وحدته أوقعتاه في الحيرة فلاذ أغلب الوقت بالصمت...وقد طال الصمـت في تلـك اللحظات وطال ترقـب عادل لبدء المبـارزة من جديد، لكنَّ أحدًا لم يتحدث، لا صابر ولا محمود ولا سـمير...فما كان من عادل إلا أن أفرغ ما تبقى من البيرة في جوفه، وقال بصوت مهدد آمر:

«نشرب كمان قزازة بيرة».

وفـي مثـل تلـك اللحظات - أيها السـادة - لـم يكن هناك من يسـتطيع مجـاراة عادل في شـرب البيرة والصراخ والعناد والنقاش سـواي، في مثل تلك اللحظات - أيها السـادة - عندما يدخل الليل ويعم السـكون ويختفي الضجيج وتسـري قطرات البيرة في دمائنا، لا بد أن يحدث شـيء لا يمكن أن يتغير مهما تغيرت الأحوال أو الظروف...كان لا بد أن يستيقظ صابر من تأملاته ليضع كفه فوق فوهة كوبه قائلًا: **«أنا استكفيت»**.

أمـا محمود فكان لا بد أن يلم شـعث نظراته المبعثرة من فوق الأرض، ليسـتجمعها في نظرة واحدة تطيش في الهواء بلا هدف ليقول: **«لا يا أستاذ عادل، أنا مش حاشرب تاني...أنا ماعييش فلوس»**... وفي تلك الليلة حدث هـذا تمامًا، قـال صابر جملته المأثورة، وطاشـت نظرة محمـود في اعتذار مبتور، ولم يجد عادل أمامه سوى تسديد نظراته لوجه سمير السمين:

«بلاش هم يا دكتور، إن شـاالله ما عنهم شـربوا، أصلهم عيال، نشـربوا إحنا قزازة سوا».

وكنـت أعرف أن «سـمير» لا يذوق الخمر مهمـا كان الأمر؛ لذلك، فما إن سمعت جملة عادل الأخيرة حتى أسرعت نحوهم لنجدته...كان سمير

يبدو حائرًا متخبطًا أمام نظرات عادل المستفزة...أنا أعرف أصدقائي - أيها السادة - أعرفهم جيدًا، وأعرف أن الدكتور «سمير» قد يقع في مأزق لأقل كلمة أو استعداء يواجهه به إنسان بلا سبب...فعندما قال عادل ما قاله، كان سمير يتلمظ بشفتيه حقًّا كمن يريد أن يشرب شيئًا، لكنه بالتأكيد لم يكن يريد أن يشرب بيرة؛ لذلك سرعان ما فر بنظراته من عادل بحثًا عني. والتقت عيناه الحائرتان وجهي وأنا أسرع نحوهم، فأشار إليَّ بيده قائلًا :

«هات لي اسباتس يا براهيم».

ثم استدار نحو عادل، وقال في كلمات ممضوغة:

«أنا... أنا ما اشربش بيرة أبدًا».

زمجر عادل على الفور وهو يسدد نحو الجميع نظرات نارية سافرة الضيق، ثم ناداني بغضب واضح:

«تعالى يا وله انت هنا... هات لي قزازة بيرة... إن شاالله ما حد شرب!».

قلت: «حاضر» وأنا أستدير عائدًا إلى المقهى، غير أن عادل ناداني وكأنه تذكر شيئًا، عدت إليه لأجده يبتسم قائلًا:

«بس تجيبها ساقعة».

ثم ضحك...

لكنَّ أحدًا لم يضحك معه، فازدادت ضحكته علوًّا وهو يتمتم بصوت عالٍ واضح النبرات:

«يلعن أبو أملك... واخد لي الحكاية جد قوي!!».

وبعدها - أيها السـادة - بدءوا يدردشـون من جديد. فعندما تبلغ الليلة ذروتها، ويسـتنفد كل منا ما عنده مـن كلام أو طاقة، وعندما يزحف التعب والإجهاد إلى العقول والأجسـاد كان لا بد من الحديث عن شيء جديد... لكـن الغريـب - أيها السـادة - أن هذا الشـيء الجديد كان لا بـد أن يقودنا إلـى نفـس الطريـق، ونفس الكلمـات، و... وقـد بدأت الدردشـة في تلك الليلة بكلمات راح كل منهم يدحرجها من بين شـفتيه في لا مبالاة وكسل، قـد يعنيها، لا أحد يدري، لكن الكلمات كانت تتسـاقط من شـفاههم على أي حـال وتسـيل تحت أقدامهـم كأنها بصـاق... وكان أول المتكلمين هو «محمود»... فما إن وضعت زجاجة البيرة أمامهم، وما إن فتحت سـدادتها حتى قال:

«أنا عاوز أروَّح...».

ولاحقه صابر:

«يا سلام على النيل دلوقت يا ولاد!».

وتتالى بعد ذلك الحديث...

«إحنا اتأخرنا فعلًا...».

«نيل إيه يا أستاذ صابر، هو فيه أجمل من إسكندرية في الشهر ده؟!».

«حد يشرب معايا من القزازة دي».

«هي القهوة حاتشطب إمتى؟!».

«المندرة يا وله المندرة... أنا لازم أصيف السنة دي في المندرة».

«حاتشرب القزازة لوحدك يا أستاذ عادل، أنا ماعييش فلوس».

«اتأخرنا فعلًا... فعلًا».

ولم يكن ممكنًا أن أظل بجوارهم مستمعًا لحديثهم، فقد بدأ الانتعاش يسري من جديد في الأجساد والعقول، وصفق الأسطى فاروق طالبًا زجاجة جديدة، وهبت من ناحية شارع الخليج نسمة قوية كنست تراب الدرب وحملته إلى بعيد.. ونهض المعلم ممدوح يرتب الكراسي والموائد بعد أن خلا معظمها من الرواد... ومضت دقائق لا تتعدى الخمس كنت خلالها أساعد المعلم ممدوح في عمله، بينما انتفخت عينا المعلم محمد وهو يقول:

«دحنا عمرنا ما سهرنا للساعة دي أبدًا!».

وسمعت بعدها صياح عادل يأتيني من الخارج مدويًا غاضبًا:

«ما هو لو فيه رقابة حقيقية، ما كنش ده حصل!».

وأيقنت أن الدائرة عادت إلى الدوران من جديد، فقد صاح فيه صابر:

«حاترجع وتقول لي رقابة تاني يا أخي... هو انت ما بتهمدش أبدًا!».

«طبعًا لازم تبقى فيه رقابة تظبط الحرامية اللي زيه!».

واستيقظ محمود من سرحته قائلًا:

«في المرحلة دي يا أستاذ عادل، الرقابة تبقى صعب قوي... وأصل الناس كلها حرامية يا أستاذ صابر!».

سـحبت كرسـيًّا وجلسـت عليـه بالقـرب مـن التماثيلجيـة، أحسـست بالشـوق إليهـم. تمنيـت أن أخلـع الجلبـاب وأرتـدي قميصـي وأجلـس بينهم... لم تفارق نظراتي طوال هذا الوقت هنية، وكانت سعدية قد انتهت مـن عملها وكومت الملابس فوق المائدة الكبيرة وأطفأت النار وجلسـت بجـوار أبيها أمـام الدكان... أكلت أم هنية وأكل المعلـم فتح الله لكن هنية لم تأكل، كانت جلسـتي هذه المرة في مواجهتهم تمامًا، أحسسـت بالتعب فبسـطت سـاقي أمامي وخلعت حذائي فظهر شرابي في لون طين الأرض، كان حديـث التماثيلجية مرحًا تتصاعد منه الضحكات بين الحين والحين، تمنيـت وقتهـا أن تكون لي ألف عيـن وألف أذن لأمتص الـدرب بأجمعه، عـلا النقـاش وامتد من جديد عنـد الضفة الأخرى لعطفـة النيدي، وتعالى صوت عادل وسـرى صوت صابر ونقـر الآذان صوت محمود في تعليقاته المبتورة، ولزم سمير الصمت... وكان الأسطى رمضان يقول:

«علـيَّ النعمـة يـا جدعـان مانـي مصـدق إننـا بكـرة حانـروح ورشـتنا خلاص!».

كان لسـانه متلعثمًـا هذا حق، لكنها كانت لعثمة نشـوة لا لعثمة سـكر، واسـتبدل الأسطى عبد السلام وضع سـاقيه وهو يقول مشعلًا سيجارة من أخرى:

«أنا مش فاهم إحنا كنا مستنيين إيه لحد دلوقت؟!».

«عارفين يا جدعان، والنبي الأسطى برضه صعبان عليَّ!».

«ما يصعبش عليك غالي يا سي فاروق!».

«إوعى تنسى يا رمضان تفوت على الصبيان بكرة من النجمة!».

«طيب وهو يعني الأسطى الأسـطى أحسن مننا في إيه؟ آهو كان زينا... وزي هو ما عمل نعمل إحنا».

قال الأسطى فاروق هذا، ثم استدار فجأة نحوي واستطرد ضاحكًا:

«واللا ايه يا اسطى ابراهيم؟!».

انتفضت في جلستي وقد فاجأني فاروق بسؤاله، كنت جالسًا أذني إليهم ووجهي إلى بعيد، غير أني على كل حال كنت أجلس جلسة المستمع المشترك في الحديث إن لم أتكلم... ولم يكن أمامي بعد سؤال الرجل سوى الإجابة عنه... والغريب أني لم أشعر بالحرج، والأغرب من ذلك أن حديثه لم يعطني إحساسًا بالتطفل - وقد كنت!! - بل تحولت نحوي كل العيون، واستدارت الرءوس، ووجدتني أجلس معهم حقًّا، قريبًا منهم، في وسطهم... وكانوا جميعًا مشرقين سرت الدماء في وجوههم، ونفرت في رقابهم عروق غليظة، وأسقط في يدي، ولم أدر ماذا أقول... رحت أتمتم هاربًا من السؤال: «ربنا يقدم اللي فيه الخير يا اسطى!» لكنهم كانوا وكأنهم يجلسون معي منذ ساعات، سرعان ما تحدثوا إليَّ في الأمر، وسرعان ما تشاوروا وتناقشوا وأشركوني في الحديث ووضعوا النقط فوق الحروف، وكان أول المتحدثين هو الأسطى عبد السلام:

«تعالَ افتح لك نصبة صغيرة جنبنا واحنا ننفعك!!».

«تعيش يا اسطى، أنا خدام!».

«وفيها إيه دي؟!».

«يا ريت...».

«طب اسمع، وليه يفتح نصبة، ما ييجي معانا وينام في الورشة وهو اللي ينضفها، نجيب له وابور جاز وكام كباية وإبريق وكنكة... هو ينفعنا، واحنا ننفعه!!».

«والنبي فكرة!».

«هي حلوة بس علشان أبو خليل فيها!».

«الله يخليك يا اسطى فاروق... تُشكر!».

«إيه رأيك يا براهيم بجد؟!».

كانـوا يتحدثون - أيها السـادة - بألفة ومـودة، وكأن حديثهم موجه إلى صديـق عزيز يعرفونه عشـر سـنوات، لم يكـن الكلام مجـرد كلام بل كان عرضًـا جديًّـا رقيقًا فيـه من التقدير بقـدر ما فيه من الـود... رحت أضحك وأنا أردد كلمات بلا معنى، لكن فيها ما يوحي بعدم الرفض فلم أكن أدري مـاذا أقـول أو أفعل... راحوا يناقشـون الأمـر وكأنه حقيقة سـوف تقع بعد سـاعات، وعد الأسطى عبد السلام بأن يفعلها في الصباح ويشتري الوابور والأكواب وإبريق الشـاي والسكر والبن... وعد بذلك ثم حددوا الكميات واتفقوا على مكان النصبة في الورشـة وأشـركوني في الحديث وسـألوني وأجابـوا عني، ثم حـددوا ربحي وقالوا إن الباقي سـيصرف في تحسـينات لا بد من إدخالها على الجراچ الذي سيستعملونه كورشة منذ الصباح.

عـادت الحياة تـدب في عروق الـدرب من جديد بنشـاط، تحرك البعض وطلـب البعض شـايًا وارتفعت أصوات قزقزة اللب، وابتسـم فتح الله عندما التقـت عيوننـا. وكانت هنية بجوار أمهـا وفي يدها لفافة صغيـرة لم تفض... فـي السـماء نجوم بـدت مع تقـدم الليل أشـد وضوحًـا ولمعانًا، فـي النوافذ والشـرفات خيالات كانت تتمايل في رقة وهي تحكي بأصوات خافتة ناعمة أشـياء مـن الممكن أن تسـمع، عند طـرف الدرب ارتمى علـى الأرض ضوء دكان الحلوانية، التقت عيناي بعيني سـعدية فابتسـمت، ثم ارتدتا على الفور نحو هنية وكانت هي الأخرى تبتسم... وسمعت محروس يقول من خلفي:

«براهيم يا براهيم يا نوارة الحتة!».

اسـتدرت نحـو محروس الـذي كان واضحًا أنـه غفا غفوة ثم اسـتيقظ ليواصل الحياة من جديد، وجدت نفسي أستقبل ابتسامته بابتسامة:

«مش تنام بقى يا معلم محروس... إنت باين عليك التعب!».

وضحـك محروس... ضحك وهـو يقترب مني ويضع يده فوق ذراعي ويتطلع إلى وجهي بعينين حمراوين، وتغيض الابتسـامة من شفتيه، تختفي لثوانٍ يتمتم أثناءها:

«واللـه فيـك الخيـر يـا براهيـم، لكـن بالـك.. أنـا مـش مصـدق إنـك قهوجي!!».

كنـت طـوال الدقائق التي مضت منـذ إغمائي حتى تلك اللحظة أشـعر وكأني أعيش حياة نصفها حلم ونصفها حقيقة، حتى قال محروس ما قاله، فارتد إليَّ وعيي، وأيقنت على الفور أن شيئًا سيحدث...

«وبعدهالك يا معلم محروس... إتمسَّى وقول يا مسا؟!».

كنت أقف وظهري إلى باب المقهى ووجهي إلى الداخل، على يساري المعلـم محمد فـي وقفته خلف النصبـة صاحي العينين يتتبع بكل حواسـه حركاتـي وأحاديثي والـكلام الدائر من حولي هنا أو هنـاك، معي أو خلف ظهـري، كان يردد البصر بيني وبيـن محروس وهو يقول: «إيه فيه إيه... فيه إيه... إيه فيه إيه!»... كان المعلم محمد يريد أن يقول شيئًا، فقد راح الكلام يسـيل من بين شفتيه بلا رابط، وخلف محروس، كان حسن لا يزال جالسًا فـوق مقعده في مواجهـة المدخل... أما محروس فقد فاجأته كلماتي فراح يحملق في وجهي دهشًـا، وأخذ يبتسـم وهو يلوك في فمه بضع كلمات لم يقلها!!

فقد حدث في تلك اللحظة بالذات ما أوقف «محروس»، وجعل المعلم «محمد» يزدرد ما يريد قوله...

فـي تلك السـاعة مـن الليل - أيها السـادة - حدث فـي درب الجماميز مـا أيقظ الركـود وحقـن الحياة بالحيـاة فدبت علـى أرض الـدرب بأقدام عملاقـة... كانت نظرات محروس قد انسـحبت من فوق وجهي لترتد إلى الخلف... رأيته يحدق إلى شـيء عند باب المقهى، وما كدت أستدير نحو الباب حتى جلجل صوت الإسناوي في الدرب كله:

«سلام عليكم، يا ولاد الكلب!»

هل تذكرون الإسناوي أيها السادة؟

كان قد اختفى في الصباح واختفت معه سيرته، اختفى طوال النهار ثم عاد في تلك الساعة ليقول ما يقول وهو ينظر للجميع بعينين تطقان بالشرر، كان فمه مفتوحًا تبدو فيه السِّنَّان الباقيتان وكأنهما نابا وحش جائع سيفترس أحدًا بعد قليل... ألقى الإسناوي تحيته أيها السادة - فساد الدرب كله صمت عميق، صمت أصدقائي والتماثيلجية وعم فتح الله والمعلم كامل، حتى الراديو كف عن الإذاعة في تلك اللحظة... وبدا أن الدنيا كلها تقف احترامًا للعجوز وحدادًا على حاله...

ساد الصمت... ورحنا جميعًا ننتظر ما يمكن أن يحدث بعد ذلك في توجس!

- 16 -

لـن أنسـى ما حييـت منظر الإسـناوي فـي تلـك اللحظـات، كان منظره غريبًا... ولا أكون مغاليًا - أيها السادة - لو قلت لكم إن منظره كان بشعًا!!

رأيته عند مدخل المقهى كعود حطب جفَّ وقدم حتى ليخيل للناظر إليه أن لمسة يد كافية لأن تحطمه، صف الكتب لا يزال عالقًا بذراعه ممتدًّا من كفه إلى ما تحت إبطه بقليل، وكان جلبابه القذر قد ازداد اتساخًا وانتشرت عليـه بقـع العـرق فـي دوائـر سـوداء اللـون... ورغـم أن الجـو كان لطيفًا والحرارة قد خفت منذ سـاعات، فإن وجه الإسـناوي كان محرقًا يسيل منه العرق بغزارة شـديدة... وكانت شـفتاه باهتتين جافتين شـديدتي الجفاف، حتى ليخيل للإنسان أنهما قطعتا أرض أهلكهما العطش فتشققتا.

«إديني ميه يااااد يا براهيم!».

كان صوتـه مشـروخًا صدئًا تكاد نبراتـه تتحطم من وطـأة الكلمات... أسـرعت إلـى الصنـدوق وبحثت عـن آخـر قطعة ثلـج فيه حتـى وجدتها وكانـت تائهة في قطعـة الخيش التي تغطي الزجاجات... غسـلت الكوب ووضعت فيه قطعة الثلج وملأته بالمياه وعدت به إلى الإسناوي الذي كان لا يـزال جامدًا فـي مكانه لم يتحـرك ولم يتزحزح.. انتـاب الدرب صمت

غريـب، والتوت نحـوه كل الأعنـاق... وتعلقت به عيون النـاس وكان هو ينظـر إلى بعيد... تناول مني كوب المياه بيمناه ورفعه إلى شـفتيه كالسـهم دون أن ينظـر إليّ، وراح يمتص المياه علـى مهل - قطرة قطرة - وفي بطء شـديد وهدوء وبصوت منغم واضح... ورحت أرقـب تفاحة آدم في عنقه وهـي ترتفع وتنخفـض في نظام رتيب، كان العنق نحيـلًا رقيق الجلد حتى خُيل إليَّ أني أرى المياه تنزلق منه إلى الجوف الخرب المتهاوي أمامي... أعاد إليَّ الإسـناوي كوب المياه وهو يبلل شـفتيه بطرف لسانه، ثم يمتصها من جديد... قلت له: «هنيًّا يا معلم إسـناوي»... فلم يرد التحية واتجه إلى الداخـل ناظـرًا أمامه ملقيًا بصـف الكتب فوق مقعد، وبجسـده فوق مقعد مجاور ثم سكن تمامًا ولم يعد يتحرك!

أحسسـت بالـدوار مـرة أخـرى... غير أن إحساسـي به هـذه المرة كان يختلـف، كنـت أشـعر وكأنـي أغـادر منطقـة إحساسـي إلى منطقـة أخرى لإحسـاس جديـد... واعذرونـي - أيهـا السـادة - فأنـا هنا أحـاول ترتيب الأحـداث وتنميقهـا حتـى تصـل إليكم واضحـة، وحتى تنقـل لكم وجهة نظـري، لكنـي في النهايـة وبعد كثيـر من الجهـد وجدت أن هـذا من رابع المسـتحيلات فلسـت أطلب منكم هنا أن تعرفوا ماذا أريد أن أقول، كل ما أطلبه أن تحسوا بتلك اللحظات الرهيبة التى عشتها في تلك الليلة.

فمنذ اللحظة التي أغمي عليَّ فيها وانتابني ذلك الدوار، تداخلت الأشياء في ذهني وماعت في ذاكرتي فذابت ملامحها الحقيقية وتحولت إلى شيء هلامـي غير محدد، كنت أحس فقط ولا أسـتطيع أن أعي، كنت كمن رتب نفسـه وحياته ولم يعد هناك مجال للتأمل أو التفكير أو التردد، كنت أشـعر بحبي لهنية وللناس في الدرب وكأنه مستقبلي وحاضري وحياتي جميعها،

فعشـت تلك اللحظات بنفس مستسلمة بل راضية... وكما كان هذا الدوار صدمـة خلطـت الأحداث بعضهـا بالبعـض ومزجتها بإحساسـي الجديد، كذلـك كان حضـور الإسـناوي في تلـك السـاعة صدمة أخـرى ردت إليَّ الوعي وأعادت التوازن إلى ذهني لفترة لم تطل كثيرًا!!

جعلني وجه الإسناوي ونظراته والتيه البادي في عينيه هذا أشعر وكأني ارتكبت جرمًا فظيعًا، وكأني السـبب في كل هذا الذي يعانيه الإسـناوي... كنـت أقف فـي منتصف المقهـى بلا عمل، أحملـق في الرجـل كالأبله... مـاذا حـدث؟! وما الذي يحـدث؟! حتى الأصوات في الخـارج، أصوات التماثيلجيـة وأصدقائي الأربعة الذين حلت لهم الجلسـة واسـتعذبوا هواء عطفة النيدي، حتى هؤلاء كفت أحاديثهم وعم الدرب صمت عميق!

ولـم يكن أمامي سـوى طريق واحد... صحت بصوت عالٍ مدو وكأني أدعو الجميع للحديث:

«واحد شاي وكرسي دخان على البوري للمعلم الإسناوي وصلحه!».

وتحرك المعلم محمد من مكانه ليلبي الطلبات، لكن الإسـناوي لاحقه مزمجرًا:

«مش عايز!!».

قالهـا وعيناه معلقتان بالسـقف وكأنهما تسـمرتا في مكان فيـه... قالها بصـوت هـادئ أجـش عنيـف النبـرات دون أن تتحـرك حتى شـفتاه، فكل شـيء فيه ظـل جامدًا بلا حـراك... مال صف الكتب وانحنـى، فامتدت يد الإسناوي إلى رأس الصف وكأنها تربت على ابن عزيز... تبادلت النظرات

مـع المعلـم محمد، ثـم اقتربت من البنك وأنـا أقول بصوت حاولت جاهدًا أن أكسبه صفة المرح:

«جرى إيه يا معلم محمد؟ فين الطلبات؟!».

وهنا زمجر الإسناوي غاضبًا:

«قلت مش عايز!».

«جرى إيه يا معلم إسناوي... ما توحد الله أُمال!».

وقال المعلم محمد بصوت خفيض:

«سيبه دلوقت، باين عليه ما استفتحش لسه!».

كنا – أيها السـادة – بعد منتصف الليل، وكان الإسناوي جالسًا وحقيقة الأمر تتضح لذهني كجمرة من نار، فصحت بانفعال:

«نزل الطلبات على حسابي يا جدع... واد يا حسن!».

تحرك الإسناوي من مكانه، أو تحركت عيناه فقط وانزلقتا في محجريهما نحـوي، فرأيت فيهمـا غمامًا ليس دموعًـا، وإنما هو شـيء كالندى يرطب التهاب الحدقتين الحمراوين.

«حاتعمل إيه يااااد؟!».

«حانتعشى يا معلم!».

فاختلـج الإسـناوي... اختلج كله مرة واحدة، وهـب واقفًا كفرع جاف تتلاعب به يد لاهية...

«ومين قال لك يابن الـ... إني عاوز اتعشى؟!».

«طب اشرب الشاي وكرسي المعسل؟!».

«قلت مش عايز!».

«يعني انا مش قد المقام يا معلم؟!».

كنت أحاول أن أسترضيه بشتى الطرق.. لكنه لم يقبل.

«لأ... ما نتاش قد المقام يا روح امك... حاتبقششش عليَّ يا بن الأ...!!».

هب المعلـم ممدوح من مكانه على الرصيـف المقابل، وتطلع المعلم فتح الله من خلف صفحات الكتاب الذي كان يقلبه، وصاح المعلم محمد من خلف البنك:

«ما تبطل طولة لسان وقلة أدب امال، هو الجدع غلط معاك في إيه؟!».

زمجر الإسناوي وهو يطوح بذراعه في الهواء:

«إنت بتحامي له يا بن ابو النجا؟! طب اديله حقه اللي إنت واكله عليه!».

وصل المعلم ممدوح إلى المقهى:

«إيه إيه إيه...فيه إيه...بلاش هيصة في المحل!».

ورد المعلم محمد:

«بياخد حقه وزيادة شوية، هو كان اشتكى لك.. آهو راجل وملو هدومه قدامك اهه...مش بيعزم عليك...كده واللا لأ؟!».

صاح المعلم فتح الله دون أن يتحرك من مكانه، صاح ببساطة وكأنه يتنفس:

«الطيب احسن يا إسناوي...وريني معاك إيه وانا استفتحك!».

وتحول صياح الإسناوي إلى صراخ نائح مغيظ:

«بتجبِّي عليَّ يا فتح الله يا بن زنوبه؟!».

ولأول مرة منذ طلع النهار، سمع الدرب صوت أم هنية:

«سيبه يا بو هنية، ده باين عليه شارب!».

«قلت مش عايز يا ولاد الكلب، هو بالعافية؟!».

«ما تبطل طولة لسان بقى امال.. أالله!».

«صنايعي جعر زي دهه يعزم عليَّ؟!».

«حقك عليَّ يا معلم إسناوي...حقك عليَّ!».

«إنت يا واد تعرف مين الإسناوي اللي بتعزم عليه ده؟! أنا مش قلت لك تسـأل عليَّ من الصبح... أنا معلم دول كلهـم... دول كلهم كانوا صبياني، لحـم كتافهم من خيري...لكن اسـمي برضه الإسـناوي... ما اسـتفتحتش زي بعضه، إنما أنا الإسناوي...أنا جبتها من مشرقها لمغربها، من المعادي للجيزة لمصرالجديدة، ولسـة فيَّه حيل أمشي لاسكندرية...وماله، جدعنة، أنا الإسناوي...فاهمين «يا ولاد الـ...»؟! أنا الإسناوي...بتلعبوا بالألوفات صحيح وأنا لابس جلابية مرقعة، إنما نزهي وجدع، وبرضه اللي في جيبي مش بتاعي، ولسـه برضه الإسناوي... الإسـناوي «يا ولاد الـ...» الإسنا... أنا الإسن... أنا الـ...».

كان صوتـه يتهدج بمرارة أحسسـت طعمها في حلقي، وجسـده يترنح وكأن ضربـات خفيفـة تنهـال عليه من حيـث لا يدري، وصياحـه كصراخ المسـتغيث، ولا أحد مكـث في مكانه بعد ذلك، فقد خرج الإسـناوي إلى رصيـف المقهـى وراح يتحدث في الناس الذين التفـوا حوله وتجمعوا في

دائرة واسعة من الدرب، أضيئت أنوار نوافذ كانت مطفأة، وفتحت شرفات كانت مغلقة، وأطلت على الدرب رءوس كان النوم يداعب عيونها... وصوت الإسناوي يجلجل ويدوِّي في أنحاء الدرب في تدفق وسرعة، ثم إذ بالصوت يختنق فجأة، وتتعثر الكلمات في عصبية الشفتين:

«أنا...الإسناوي يا ولاد الكلاب...برضه نزهي..صنايعي جعر يعشِّي الإسناوي...آخر زمن...أنا...الإسنا...وي...ملعو...ن.أ.أبو أهاليكم يا ولاد ال يا ولاد ال... الـ...الـ...».

ولا أدري ولا أحد يدري ما الذي قاله الإسناوي بعد ذلك، فلم يعد الكلام مهمًّا، كان ما يفعله الإسناوي أهم بكثير، فقد انفلت فجأة عائدًا إلى الداخل.. انقض على صف الكتب، وحمله تحت ذراعه، ثم انطلق مغادرًا المقهى والدرب معًا وهو يتمتم بعشرات الكلمات الغاضبة المنفعلة، كان يذوب في الظلام مترنحًا، وكأنه شرب أطنانًا من الخمر، أو تلقى آلاف الضربات فوق أم رأسه..ثم اختفى بعد ظلال الجامع المعتمة، وصوته المزبد يخفت ويخفت حتى يذوب وسط صمت الليل وسكونه الذي ساد الدرب من جديد.

لم تدم لحظات الصمت طويلًا...فسرعان ما أطلق كامل ضحكة خجلى وهو ينهض من مكانه مستديرًا نحو مكتبته قائلًا بصوت عالٍ وكأنه يدعو الجميع إلى مشاركته رأيه:

«الله يخرب بيتك يا إسناوي...هو انت كل يوم لك حدوتة؟!».

ضحك البعض مستجيبًا، وتشاغل البعض بأشياء أخرى...لكن هذا الكلام لم يعجب صديقي عادل الذي انفجر صوته في الدرب هذه المرة وكأنه يخطب في الناس أجمعين:

«إتفضـل يا سـيدي، آدي الشـعب شـوف حالـه ازاي؟ والبيـه اللي انت بتدافع عنه عمال يسرق بالألوفات!».

فرد عليه المعلم فتح الله من مكانه:

«أبدًا يا بيه.. ده هوه اللي كده!».

«كده ازاي...فيه حاجة اسـمها هوه اللّي كده؟ مفيش حاجة اسمها هوه اللي كده!!».

وصاح ممدوح ضاحكًا:

«هو الإسناوي ده يبقى الشعب؟! كان زمانها خربت من زمان!».

وهمس الأسطى فاروق لأصحابه:

«فاكرين يا جدعان اللي عمله الإسناوي الجمعة اللي فاتت؟».

وتململـت أم هنيـة في جلسـتها، ومالـت علـى ابنتها وتهامسـت معها، وارتفع صوتها للمرة الثانية في ذلك اليوم، وكانت تناديني: «**هات لي كباية شاي يا براهيم والنبي!**»**.**

لـم أتحرك من مكاني ولـم ألب لأم هنية ما طلبت، تحرك حسن وانفلت يعد الصينية وكوب الشـاي لها...وعاد الحال إلى ما كان عليه بعد ذلك... أسـند محروس رأسـه إلى كفه وراح يتطلع إليَّ بعينين باسـمتين، وكنت لا أزال فـي وقفتي أرقـب الظلام حيث اختفى الإسـناوي، كان شـيء يقبض قلبي ويحقنه بالحزن، ولا يزال منظر الإسـناوي – أيها السـادة – حتى هذه اللحظات ماثلًا في ذهني وهو يغادر الدرب كقشـة تتلاعب بها ريح عاتية،

وكلما تذكرت ذلك المنظر شعرت وكأن قلبي سينخلع.. شيء واحد كنت متأكدًا منه في تلك اللحظات؛ أن الإسناوي لن يفطر في الصباح، لن يسيل العرق من جبينه ليختلط باللعاب ثم تسقط قطراته فوق أقراص الطعمية... والذي حزَّ في نفسي وأدماها أكثر أن الجميع كانوا بعد دقائق قليلة قد نسوه وغرقوا في أحاديثهم مرة أخرى.

■■■

«إيه يا براهيم... مالك واقف كده؟!».

انتفضت وأنا أستدير نحو المعلم محمد، في نفس اللحظة التي كانت هنية تترك فيها مكانها بجوار أمها لتغادر الدرب من طرفه القريب؛ الطرف الذي ينبع من شارع الخليج...فعدت إليها ببصري وتعلقت بها روحي وكأن بين يديها خلاصي من عذابات مجهولة...أشارت إليَّ من طرف خفي أن أتبعها فلم أصدق...ظللت في مكاني ألاحقها ببصري، كانت تبتعد بسرعة وفي يدها لفافة صغيرة...

هل هذا معقول؟!

في مثل هذا الوقت؟!

لا بد أن الجميع سيلحظون!

لا بد أنهم سيشكون ثم يتحققون ويوقنون أن بيني وبين هنية شيئًا...

لكنني فوجئت - أيها السادة - أن انصرافها كان يبدو لجميع من في الدرب شيئًا طبيعيًّا فلم يعره أحدهم اهتمامًا ولم يلتفت إليه مخلوق...

إلا محروس... ظللـت حائـرًا أمـام نظـرات محـروس وابتسـامته وطاقيته المائلة على جبهته في عياقة العالِم ببواطن الأمور، وكانت هنية قد ابتعدت وأخذت تذوب في سحابات النور عند مدخل الدرب، ورأيتها هناك، وقبل أن تنثني إلى اليسار التفتت نحوي وأشارت إليَّ برأسها أن اتبعني... وكانت الإشارة هذه المرة واضحة لا لبس فيها ولا غموض.

وعاد المعلم محمد يردد في أذني:

«مالك يا براهيم؟! إبراهيم، مالك؟ ما ترد يا جدع!».

ولم يحتج الأمر مني بعد ذلك - أيها السـادة - إلى مجهود يذكر، كنت كالمحتـرف أتصرف بحكـم الطبيعة والعادة، فرغم ابتسـامة محروس التي كانـت تنطـق: إني أعرف، إنـي أرى.. رغم ذلك وضعت يدي فوق رأسـي وأغمضت عيني قائلًا:

«أنا طالع اشم الهوا في شارع الخليج!».

«طب وماله... برضه يصح!».

قالها المعلم محمد على الفور، لكنه أردف بلهفة:

«هي الفلوس معاك؟!».

وكان بطبيعـة الحـال النقود معي، كما كان محروس يعلم هو الآخر أني ذاهب إلى هنية... فلم أرد، بل أسرعت مغادرًا مكاني، ملقيًا بنفسي في تيار الهـواء الـذي كان يندفع من ناحية شـارع الخليج ليجفـف عرقي... وكنت أسرع الخطى فقد كانت هنية قد اختفت عن عيني!

-17-

أيها السادة، أرجو أن تغفروا لي إن كنت قد أطلت عليكم قليلًا...وعلى كل فقد شارفنا على نهاية الطريق، ولم يعد لديَّ الكثير لأقوله.

إني أتردد الآن وأنا أخوض في سيرة تلك اللحظات والدقائق التي تلت مغادرتي للدرب مرة ثانية وراء هنية، أتردد وأحجم ويكاد قلمي يحيد بي عن الطريق؛ لأني أشعر وكأن الكلمات تتحول إلى حبل غليظ يشتد التفافه حول عنقي كلمة بعد كلمة.. تمامًا كما كانت قدماي تحيدان عن الطريق وأنا أسعى خلف هنية في تلك الليلة...

بدا شارع الخليج في تلك الساعة من الليل وكأنه لوحة تغطيها غلالة شفافة داكنة اللون...كل شيء فيه كان يبدو رقيقًا ناعمًا...بقايا الناس الذين كان الشارع يزدحم بهم منذ دقائق وساعات ولم يبق منهم في تلك الساعة سوى نفر قليل تفرق هنا وهناك، امتلأ الطريق بأوراق الخس وقشر الترمس واللب وتلك الفوضى التي تحمل روح الجماعة ومرحها...كان الهدوء هو طابع الحياة في شارع الخليج، حتى ضجيج عجلات الترام كنت أسمعه وكأن للترام الخالي من الناس عجلات من القطيفة تسير بلا صوت!

رأيت هنية على البعد وهي تنثني مبتعدة عن الدرب ملقية بنفسها وسط الحديقـة الصغيـرة التي تتوسـط الشـارع بطولـه، ظللت أسـير خلفها ولم نبتعـد كثيـرًا، توقفت هنيـة في بقعة كانـت كغيرها من الحديقـة تحمل آثار ناس كانوا هنا مـن قبل، وحولنا كانت الحلقات متناثرة هنا وهناك...رأيت النسـوة يفرشـن الملاءات فوق العشـب الأخضـر وقد وضعـن الطعام في الوسـط، بينما عربات الشـاي على الرصيف تحمل للزبائن أكوابًا يتصاعد منهـا البخار. الأطفـال والأزواج يحيطون بالمائدة التي كانـت تزينها غالبًا أوراق الفجـل ورءوسـه الكبيرة، القلل متناثرة علـى الأرض وفوق عربات بائعـي الترمـس الذين كانـوا يبيعون للشـارين وينـادون علـى الباقين، هذا ينادي على بيبسـي والآخر ينادي على بسـكال...كل دائـرة بجوارها راديو ترانزسـتور يحتـل مكانه غالبًا بجـوار الأب وصدى الأغانـي يتردد في كل مكان...وكانت هنية تقف بيني وبينها عدة خطوات.. فما الذي أريده منها؟ ما الذي أريده؟!

فاجأنـي السـؤال وأخذنـي علـى غـرة فارتبكـت قدمـاي وحادتـا عـن المسـير...كانت هنيـة تقـف فـي انتظـاري وعلـى وجههـا ابتسـامة الواثق المطمئن، في يدها لفافة تحوي طعامًا بلا شـك ولا داعي لتصنع الغفلة... أخـذت الطعام من أمها فلا بد أن الأم تعرف كل شـيء.. وغادرت المكتبة أمـام أبيها، فلا بـد أن الأب أيضًا يعرف الكثير أو علـى الأقل يباركه، تمامًا كمـا يعرف محروس كل شـيء ويباركه...فإلى أين أنـا ذاهب؟! وما الذي أريده من هنية بالتحديد؟ ما الذي أريده منها!

أنوار الشارع تسبح في ظلامه كفراشات مضيئة، ووسط الطريق أمام الناس كانت هنية تنتظر، وكنت أسير نحوها فلم أكن أستطيع التوقف أو التراجع، اقتربت منها وفي صدري خوف وُلِد فجأة...غير أنه كان لا بد من الحديث فقلت:

«مساء الخير يا هنية!».

«يمسيك بالنور يا سي براهيم، أنا جايبة لك لقمة!».

مدت لي يدها باللفافة فلم آخذها، واقتحم السؤال ذهني اقتحامًا من جديد: ماذا أريد من هنية؟...ووجدت نفسي أجيب على كلامها:

«وليه التعب ده يا هنية؟ مانا رايح اتعشى بعد شوية!».

نظرت إحدى النسوة نحونا متطلعة، فتبادلت هنية معي نظرة سريعة وابتسم كلانا ثم جلسنا على الفور فوق العشب الرطب...وكانت بيننا لفافة الطعام!!

ذهب الخوف والقلق واختفى التساؤل من ذهني، وأحسست بالراحة!

هكذا فجأة وبلا مقدمات...ولا تسألوني كيف فليس عندي الجواب، وإن كان عندي فلست أعرفه...في لحظة التقت فيها عيناي بعيني هنية انتقل إحساسي من منطقة إلى منطقة أخرى، في لحظة قررت أن أقول الصدق لهنية وليحدث بعد ذلك ما يحدث...في لحظة قررت ألا أترك هنية، أبدًا لا أتركها...ليغضب أصدقائي ويتبرأ مني أهلي وليصمني الناس بالجنون،

ليحدث أي شــيء...لكني لن أترك هنية بعــد الآن، لن أتركها، فهي ملاذي الوحيد، هي طوق النجاة الذي سينتشلني مما كنت أتردَّى فيه.

هكذا أحسست بالراحة!

راحة لم أحســها في حياتي من قبل، عظامي تتفكك وتسـتريح مفاصلي وترتخـي كل أعصابي...الهـواء يداعـب سـاقيّ نصف العاريتيـن، وأخلع الحذاء فيلسع الهواء قدميّ المبتلتين بالعرق...وتسري الراحة إلى جسدي بلـذة تفـوق كل لذة...وجهـي تغسـله برفق نسـمة الليل، فلـم أتحدث في البدايـة ولـم تتحدث هنية.. فقـط، كانت نظراتنا تلتقي بيـن الحين والحين لتقول: أهلًا، بابتسـامة نصفها خجل والنصف الباقي سـعادة...كنت أحس بإحسـاس الـذي تتغير نظرته للأشـياء تمامًا...كنت كالمذنـب الذي تاب، فغزت قلبه السعادة وغمرته باليقين.

■■■

رحــت أتطلــع حولـي إلـى كل شيء...إحســاس هــو كالحلـم في حد ذاته- أيها السـادة - ذلك الإحسـاس الذي كنت أحسه في تلك اللحظات، كنت أملس على الأشـياء والناس بنظراتي وكأني أريد أن أحتضنهم جميعًا وأضمهم إلى صدري...على مسـافة منا رجـل وامرأة وبينهما طفل وراديو ترانزسـتور، وكانت المـرأة تختلس النظر نحونا بيـن الحين والحين وعلى شـفتيها ابتسامة، والرجل ينظر إلى بعيد حينًا ويعبث في مفتاح الراديو حينًا آخـر ليغير المحطة، والطفـل يحجل بجوارنا ثم يقترب منا حتى يلتصق بي ويضـع يده فـوق كتفي...وأنـا - أيها السـادة - لـم أحب الأطفـال من قبل

بالقدر الكافي، سموه مرضًا أو نقصًا أو أي شيء آخر فهذه هي الحقيقة، أنا لم أحب الأطفال من قبل كما يجب...كنت أدهش من الناس الذين يسعدون ويضحكون إذا بال على أحدهم طفل، كنت أقول عن هؤلاء إنهم مقرفون، وإذا اقترب مني طفل ليس نظيفًا كل النظافة كان الغثيان يصيبني...لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث عندما اقترب مني ذلك الطفل في تلك الليلة ووضع يده على كتفي...كان قذرًا تمرغ وجهه في التراب وسال على التّراب عرقه ولعابه فتحولا إلى طين جففه هواء الليل...ثوبه في لون الأرض، وطرف الثوب مبتل بسائل لم أدرِ ما هو، لكن وجه الطفل بالرغم من ذلك كان جميلًا، أنفه صغير دقيق، العينان ضيقتان لكنْ فيهما صفاء غريب، والشعر ناعم أسود يتهدل فوق طرف الجبهة في خصلة قصت بغير دراية أو عناية، وأصابع اليد قذرة، لكنها دقيقة ورقيقة وكأنها قطعة سمسمية...وكان الطفل يبتسم!

لا تؤاخذوني – أيها السادة – إن كنت قد شططت في الحديث، وأنا في الحقيقة لست أدري لماذا أصف لكم الطفل كل هذا الوصف المسهب الذي قد يكون في الغالب مملًّا، غير أني ما زلت أذكر وجهه، وأذكر تلك التفاصيل وكأنها حفرت في ذهني لتبقى منقوشة عليه حتى الأبد...

التقت نظراتي في تلك اللحظات بنظرات هنية، وكان عناقًا ملتهبًا...

فرت نظراتها من نظراتي أحيانًا وتثنت بدلال، لكنها سرعان ما عادت لترتمي في عيني من جديد، ونتوه عن كل شيء...ثم أفقنا على صوت الأم وهي تصيح من مكانها منادية طفلها:

«مرزوق...وَلَه...».

لم يكن في ندائها شيء يدعو حقًا، كان نداء رتيبًا كأنه يصدر عن عادة... ولا بـد أن المرأة نظـرت إلى هنية، لا بد أن كلتيهما ابتسـمت للأخرى فقد قالت هنية بصوت خافت خجول:

«ربنا يخلي!».

وسمعت المرأة تقول وهي تلوك شيئًا في فمها أو تمضغه:

«عقبال عَدَلك يا شابة!».

خفضت هنية وجهها وراحت تقتلع الأعشاب من الأرض في عصبية... وطـال الصمت لثوانٍ، وكان مرزوق قد جلس على ركبتي وراح يتطلع إلى وجهـي بعينيـه الصغيرتين...ووجـدت نفسـي أبتسـم وأنا أميـل نحو هنية هامسًا:

«ساكته ليه يا هنية؟».

وازدادت حركة أصابعها سرعة وعصبية، ثم دفعت بلفافة الطعام نحوي وهي تتمتم:

«ما تاكل بقى يا سي براهيم!».

كنت جائعًا فمددت يدي إلى الورقة وفضضتها، رأيت بالداخل أقراص طعمية وقطعة جبن وأوراق الفجل الطرية تنتشر فوق رغيفين ما زال دفئهما يسري في اليد...

«أنا مش حاكل لوحدي يا هنية!».

قلتها باسمًا وأنا أرفع إليها عيني، فقد كنت واثقًا من أنها لم تتناول طعام عشائها... كنت وكأني أرى وجهي في المرآة، آراه وجهًا سعيدًا تنطق ملامحه بآلاف المعاني الخفية التي تعلن عن نفسها دون مواراة أو خجل... بعد لحظات سأعترف لهنية بكل شيء، سأخلع كذبي وأرتدي الصدق فلا شيء عندي لأخفيه أو أتستر عليه... فقط، كنت أنتظر اللحظة المناسبة... عدت أنظر إلى هنية وأنا أدعوها للطعام، فقالت وهي تداري عني عينيها:

«أنا أكلت وشبعت والحمد لله... بس انت كُل علشان تصلب عودك!».

وكذلك كان وجهها سعيدًا هي الأخرى... كم أحب أن أصف لكم هذا الوجه أيها السادة... كم أحب لكني عاجز فليست في الوجه تلك الملاحة التي يكتبون عنها في الكتب، وليس فيه ذلك الجمال الذي تعودت أن أسميه جمالًا منذ أن عرفت لجمال المرأة معنى... لم يكن في وجه هنية من ذلك. كانت ملامحه متسقة مرتاحة وكأن كل قطعة منها تفسح الطريق لباقي التقاطيع، كان وجهها شبعان لا طمع فيه ولا غاية يهدف إليها ولا دور يريد أن يمثله... كان وجه هنية - أيها السادة - غريبًا؛ كأنه خُلق ليبتسم.. فقط.

«حاكل لوحدي يا هنية؟!».

وازدادت ابتسامتها اتساعًا، ومدت يدها إلى أحد الرغيفين ثم قسمته إلى نصفين وهي تقول:

«أنا حاكل معاك، علشان يبقى عيش وملح!».

وبدأت آكل وكأني أمضغ الشــهد، مر بنا صبي يبيع المثلجات فســألتها عما تشـرب فقالت: «**اللي تشــربه انت!**».. وفتح الصبـي الزجاجتين ومياه الثلـج الباردة تتسـاقط منهما...ثم مضى عنا وهو يواصـل نداءه...وحانت تلـك اللحظة، قـررت فجأة أن ألقي بنفســي في قلب الحقيقـة وأن أعترف لهنية في تلك اللحظة بالذات، أن أذكر كل شيء...تمليت في وجهها طويلًا فأحسســت بالحب ينبض ليغمر كل حياتي، شـربت جرعة من زجاجتي ثم تمتمت:

«**بالك يا هنية!!**»

رفعت إليَّ عينين صافيتين يفيض منهما الحب في نظرات حانية...

الكلمـات علـى لسـاني لأقول الحقيقـة لأول مرة، أقولهـا بلا لبس ولا إبهام...لكنـي لـم أتحـدث، الغريـب أني لـم أتحـدث ولم أقـل حتى كلمة واحدة، شـل لسـاني خوف مفاجئ فالتصق بسقف فمي وأبى أن يتحرك... طـال انتظار هنية وأنا على حالي، فتسـاءلت عما أريـد قوله، وكان لا بد أن أقول شيئًا، أي شيء، إلا الصدق...وكنت أهرب من نظراتها وأنا أقول:

«**الطراوة حلوة قوي يا هنية!**».

نفثـت ملامحهـا علامـات شـك واضـح، لكنهـا ابتسـمت وهـي تعود لمواصلـة الطعام...لمـاذا أفرض عليهـا لحظاتها؟ لمـاذا أفاجئها وهي في قمة سعادتها بأني كاذب ومخادع؟ ثم ماذا أقول لها؟!

هل أقول لها إني كذاب وإني...

وعلـى كل حـال – أيها السـادة – فقـد رحت آكل وأطعـم الطفل معي، كانت مياه ثوبه المبتل قد سرت إلى جلبابي وفخذي لكني كنت سعيدًا... راحت هنية تمضغ ببطء وعيناها على الأرض حينًا وبين عيني حينًا آخر... ورحـت أداعب الطفـل تارة، وتتسـاقط نظراتي أمـام نظراتهـا كلما التقت العيـون.. لعلـع صـوت مطـرب من الراديـو بأغنية سـرت في جو الشـارع سـابحة في هدوئه، فأحسسـت وكأني أسـمع الموسـيقى لأول مرة، كانت الأنغام تتسـلل إلى أعصابـي لتخدرها، أخذت أدندن مع الأغنية في نشـوة وأطعم الطفل وأقبله فتتلوث شفتاي بتراب وجهه...

ومرت لحظات لم تطل كثيرًا، كنت موقنًا من أني سـأقول الحقيقة لهنية مهما طال بنا الوقت، كنت موقنًا أني خجل بعض الشيء ولا أكثر من ذلك، وإن كان الأمر يحتاج لقليل من الشجاعة فلا بد أن أملكها.. أليس من يملك الشجاعة من أجل الكذب يستطيع أن يمارسها ليقول الصدق وقتما يشاء؟! ألا يبدو هذا الأمر منطقيًّا وغير قابل للجدل؟

«مش تخلي بالك من نفسك يا سي براهيم؟!».

سـرى إليَّ صوتها وسط ضباب الليل النادي وكأنه حلم، فقلت بصوت خافت:

«أكل العيش يا هنية... أعمل إيه يعني؟!».

«إلا انت كنت بتشتغل براد قبل كده؟ صنايعي يعني؟!».

ضحكـت هنيـة، وضحكـت معها وهممت بـأن أقول لها مـا هو عملي الحقيقـي ومـن أنا... كنت موقنًـا وأنا أضحك أن حديثي مـع الرجل الذي

استوقفني في الصباح قـد لف الدرب من أوله حتى آخـره ووصل إلى كل أذن... رحـت أتحسـس الطريق إلـى الحقيقة فـي رقة حتى لا تفـزع هنية، قلـت وأنا أحشـو فمـي بورقة فجل أحاطتهـا لقمة طرية: «**ميـن اللي قالك يا هنية؟**».

«**الدرب كله عارف... ما انت قايل للراجل الصبح؟**».

ابتسمت قائلًا:

«**بالك يا هنية... أنا كنت فاكره مخبر... شكله كده زي اللي....**».

وأطلقـت هنيـة ضحكة صدحـت في جو الشـارع الهادئ وهـي تقول: «**اسم الله عليك يا سي براهيم، ما هو مخبر، إنما من الحتة يعني!**».

وضحكت معها...

ضحكـت وضحكـت حتى دمعـت عينـاي، وكانت هنيـة تضحك هي الأخـرى في جذل وسـعادة... وكلمـا توقفنا عن الضحـك لحظة، تقابلت نظراتنـا وانفجرنـا نضحـك مـن جديـد، وضحـك معنـا مـرزوق، ضحك الصغير وغرد صوته الرقيق من حولنا، وجدت نفسـي أحتضنه وأضمه إلى صـدري، وجدت نفسـي أقبله والدموع تسـح من عيني مـن فرط الضحك والسـعادة، كنت سـعيدًا أيها السـادة سـعيدًا...ظللت أضحك حتى تعبت مـن الضحك فتوقفت، وران الصمت مـرة واحدة...وخلال الصمت كنت أنزلـق تدريجيًّا لأقف أمام حقيقـة غريبة...كنت أتذكر ما حدث لي مع هذا الرجل في الصباح وكأنه شـيء وقع منذ شهور طويلة، كأن دهرًا قد انقضى منذ استوقفني في الصباح حتى تلك اللحظة وليس يومًا واحدًا:

«سي براهيم»...لم يغب وجه الرجل عن ذهني ولم يطمس مرور الزمن ملامحه فقد كنت أتذكرها بوضوح، لكني كنت أشعر وكأن أجيالًا قد انصرمت منذ رأيته لآخر مرة: **«سي براهيم»**... شيء غريب هذا الذي كان يحدث لي، أأنا حقًّا لم أعرف هنية إلا منذ ساعات؟!

كيف إذن نقيس عمر عواطفنا بالزمن وأنا على يقين من أني أحبها منذ سنوات؟ **«سي براهيم»**... هل من الممكن أن يولد الحب – حقًّا – بهذه السرعة؟ **«سي براهيم»**... إني أحب: **«سي براهيم!»** إني أحب: **«سي براهيم»**... هنية كما **«براهيم... ألله!!»**...لم أحب: **«براهيم!!!»**... من قبل: **«براهيم براهيم... ألله.. مالك يا سي براهيم كفى الله الشر؟!»**.

كانت يدها تهز رسغي بعنف، لم تكن يدًا رقيقة أو صغيرة كأيدي من عرفت من النساء من قبل، كانت يدًا كبيرة طويلة الأصابع تكسوها طبقة من اللحم، لكن فيها من الحنان ما يكفي عشرة رجال...راحت يدها تحنو على يدي برفق وهي ترى نظراتي المتساقطة تحت قدميها في حيرة وعذاب، أفقت تمامًا، ورحت أنظر إلى يدها الخالية من الجمال، كان في أحد الأصابع خاتم من النحاس ترك حول الأصابع علامات خضراء، وسرت نظراتي من اليد إلى الذراع والكتف ومن بعده العنق فالوجه تتوسطه عينان دهشتان غاضبتان متطلعتان نحوي بألف سؤال:

«مالك يا سي براهيم؟!».

ابتسمت في تخاذل، واستجابت هي لابتسامتي نصف استجابة ثم سألت:

«كنت سرحان في إيه؟».

«ما بتاكليش ليه يا هنية؟».

«مالك يا سي براهيم، إيه اللي شاغل بالك؟».

أحسست بالعجز تمامًا، أنا لا أستطيع، لا أستطيع مواجهة الحقيقة.

«سي براهيم... وحياة النبي على قلبك تقول لي... فيه حاجة شاغلاك؟».

«أيوه يا هنية...أيوه!».

قلتها وأنا أتنهد وكأني أريد أن أفرغ كل ما في صدري بين يديها...

«ما تقولهالي، يمكن اقدر اشيل معاك؟».

قالت ذلك والحيرة تزداد وضوحًا في عينيها السوداوين العميقتين...

«أنا بحبك يا هنية... بحبك صدقيني!!».

قلتها بصوت باكٍ مختنق... قد كان هذا هو كل ما أحس به في ذلك الوقت...

«سي براهيم... إنت مخبى عليَّ حاجة!!».

قالتها بيقين والحيرة تزداد اضطرامًا في عينيها، وامتدت يدها لتلتف من جديد حول رسغي، وضغطت الأصابع برفق، فقلت وكأني أذوب:

«أنا بحبك يا هنية بصحيح!».

ارتـدت اليد فجـأة، وانكسـرت جفون العينين، وسـرى شـبح الهم في ملامح الوجه، ومطت هنية شفتيها وهي تقول:

«طب مش حاكل إلا لما تقولِّي!».

«أنا بحبك يا هنية... صدقيني!».

«أنا عمري ما قلت عليك كذاب!».

«أمال إيه اللي مزعلك مني؟».

«زي ما اكون غريبة عنك، مش عاوز تقولِّي إيه اللي شاغل بالك!».

«إنتِ!!».

اغتصبت ابتسامة وأنا أقولها، فدفع إصراري بالابتسام إلى وجهها دفعًا، وقالت بشفتين منبسطتين:

«يعني انا اللي باخليك تسرح؟».

«ده صحيح... أقسم لك بشرفي إن ده صحيح يا هنية!».

برقـت عيناهـا ببريق خاطف سـددته إلى عيني وكأنها تدافع عن نفسـها بسـلاح خفي... تنبهت إلى نفسـي ووجدتني أنا الـذي يتحدث مرة أخرى لا القهوجي...

«سي براهيم... إيه اللي شاغل بالك!! إيه اللي انت مخبيه عني؟!».

في نبراتها شـك لـم تحاول أن تخفيه، بل تـكاد النبرات أن تحمل اتهامًا واضحًا، ولـم أشـعر بالرغبة في الدفاع عن نفسي أو التظاهر من جديد، كل

مـا أردتـه في تلك اللحظات هو الصمت... لا شـيء سـوى الصمت ومعه ذلك الإحساس اللذيذ بيد هنية حول رسغي!

كنـت أفر منها وأزوغ... لـم يكن في اسـتطاعتي أن أعطيها جوابًا شـافيًا لسـؤال تسـأله، كنت أهـرب من صدقهـا لأتردى فـي كذبي مـرة بعد مرة، ووجدتنـي أقف عاريًا أمـام نظراتها المليئة بالشـك دون أن أجد في حياتي شـيئًا صادقًـا يشـدني، ولم يكن هناك سـوى طريـق واحد... هـو هو نفس الطريق الذي كنت أحجم منذ جئت معها إلى تلك البقعة من شارع الخليج عن السـير فيه... كان خلاصي الوحيـد في أن أخبر هنية بالحقيقة، أن أقول الصدق!!

وكانــت هــذه هــي رغبتــي الحقيقية أيهــا الســادة وصدقونــي... رغبتي العارمـة الوحيـدة في ذلك العالـم أن أخبر هنيـة بكل شـيء... أعترف لها وأسـتريح على حجرها وأدفن رأسـي في صدرها وأتشـرب بأنفي أنفاسها وأغـرق لأذني في أحضانها... لا شـيء سـوى ذلك، لا شـيء... لكني لـم أستطع...

كففت عن الطعام وأرحت نظراتي فوق وجهها وتركتها هناك... سألتني هنية سـؤالًا، ثم قالت جملة، ثم سـألتني سؤالًا آخر لكني لم أرد فلم أسمع من حديثها حرفًا واحدًا... سـمعت صوتها لكني لم أعِ ما الذي كانت تريد أن تقوله، انتابتني غيبوبة غرقت فيها لأذني واستسـلمت لها مبتسمًا سعيدًا، بينما الغضب يزحف إلى وجه هنية وهي تسدد إليَّ نظرات حيرى... كانت

عيناها تترددان ما بين وجهي والأرض والسـماء بلا هدف، وبجزع... و...
وأخيرًا أفقت، فقد كانت هنية تستعد لمغادرتي!!

«أنا قايمة...».

«هنية!».

«اتأخرت...».

«علشان خاطري...».

«أمي تقول إيه؟!».

«ما ليش خاطر عندك؟».

«حاقعد لوحدي؟».

«مانا معاكي أهوه!».

«إنت مش معايا يا براهيم!».

«بقى ده اسمه كلام؟».

«أبويا يزعق لي...».

«وانا يا هنية؟».

«إنت؟ إنت فين يا براهيم؟».

«أنا بحبك!».

«كداب...!!».

قالتها في ثقة وكأنها اكتشـفت أمـرًا لا محل للجدل حوله أو النقاش... انتابنـي الجزع والخوف فأمسـكت بيدها وتشـبثت بهـا كالمجنون ورحت أردد متوسلًا:

«صدقيني يا هنية... صدقيني!!».

ولكنها كانت تنظر إليَّ بحزن وعيناها مغطاتان بسحابة من الدمع كانت تتلألأ... أخذت أردد الكلمة مرات ومرات كمجنون فقد رشده... وكانت ملامحها قد تجمدت وشفتاها انطبقتا في عزم، ثم قالت:

«مش قادرة أصدقك يا براهيم... يا ريت اقدر... يا ريت!!».

كنت أحملق فيها بذعر وأتوسل:

«وحياة مقام السيدة!».

أحسسـت بالـذل يركبني والهزيمـة تطوقنـي فغلت الدماء فـي عروقي ورحت أشدد الضغط على رسغها بلا وعي...

«إيدي يا سي براهيم... إيدي!».

كنت متشـبثًا بها قابضًا على ذراعهـا، عندما نادت المرأة من خلفنا على ولدهـا، نهض مرزوق عن حجـري مبتعدًا متدحرجًا في الحديقة الواسـعة الخاليـة، فاندفعت الدماء إلى وجه هنية ترمق المرأة بجانب عينيها هامسـة في خجل:

«كده كويس يا براهيم؟ يا فضيحتي، الناس شافونا!».

«ما يهمنيش!».

«نقوم بقى يا سي براهيم وحياة النبي على قلبك!».

«خلينا شوية!».

«إيدي... إيدى!!».

«مش قادر اسيبك، خايف تهربي مني!».

«براهيم!».

«هنية... خليكي معايا شوية!».

واقتحم بائع المثلجات حديثنا:

«القزايز فضيت يا اسطى!».

«آهم عندك يا بني!!».

أخذ يرقب يدي الممسكة بيدها وعلى وجهه ظل ابتسامة، انحنى ببطء وتناول إحدى الزجاجتين، ثم نهض ليدور حولي في طريقه إلى زجاجة هنية على الناحية الأخرى، ولم أترك رسغ هنية، ظللت كما أنا أنظر إليها وكأني تحولت إلى تمثال، وكانت هي تنظر إلى وجهي بفزع ثم تحرك رأسها بين الحين والحين غير مصدقة، تناول الصبي الزجاجة الأخرى ثم استدار ماضيًا وهو يلعلع بصوته في الشارع:

«المولع... الملهلب!».

وازداد غطاء الدمع في عيني هنية كثافة، وراحت هي تنقل البصر فيما بين وجهي ويدها وهي تردد بصوت خافت حزين:

«براهيم... حاتفضحني، الناس بتتفرج علينا!».

قلت بصوت حاد صارخ وأنا أضغط على كل كلمة وكل حرف:

«أنا بحبك يا هنية... لازم تصدقيني... بحبك!».

تساقطت نظراتها الحزينة كالدمع..

«كداب... اللي يحب ما يعملش كده أبدًا... أبدًا...».

وأحسســت بيدي تتراخى عن رسـغها، أحسســت كأني أقف عاريًا هذه المـرة أمـام ألف عين فقـد أصدرت هنيـة حكمها وانتهى الأمـر... جاءت جملتهـا الأخيـرة وكأنهـا كلمة القدر لا مفـر منها ولا مهرب... أحسســت وكأنـي أتمـرغ تحت قدميهـا وأدفن وجهي فـي التراب وألطخـه كالثكالى بالطين وأنا أصرخ بصوت مستغيث:

«صدقيني يا هنية، وحياة مقام النبي بحبك!».

«كداب...».

«كنتي لسة بتقولي كلام غير ده!».

كنت كالمشلول الذي يحاول القفز من فوق سور عالٍ، كنت أبتسم وفي قلبـي يقين أن الحكم قد صدر ولا أمل في الاسـتئناف، تشـبثت ببقايا عناد منهار فرحت أردد: **«كنتي لســه بتقولي غير كده. بتقولي.. كنتي لســه.. غير كده.. إنتي لسه. غير كده... غير كده»**.

«ما كنتش شايفة!».

هبطت جملتها كالسيف فقطعت كلماتي وبترتها، فصرخت محتجًّا:

«شايفة إيه؟ فهميني شايفة إيه؟!».

«إللي انا شايفاه دلوقت!».

ويتحول الاحتجاج إلى غضب:

«شايفة إيه؟».

«كفاية كده... الناس بتتفرج علينا!».

«طيب كُلي... كملي عشاكي!».

«مش واكلة!».

«ولا أنا... والله ماني دايقه!».

«مليش نفس!».

«مش حاكل انا كمان!».

«وبعدها وياك؟!».

«أجيب لك كازوزة؟!».

«إنت بتلاقي الفلوس في الشارع؟».

«كل حاجة فداكي يا هنية!».

«نفسي أصدقك!».

«إيه اللي مزعلك مني بس؟».

«إللي واخد عقلك!».

«إنت!!».

«تبقى ترد عليَّ وما تسرحش لبعيد!».

«كفاية اشوفك يا هنية... كفاية اشوفك من غير كلام!».

«براهيم!».

«العين ما خليتش للسان حاجة يا بت!».

«مخبي عليَّ إيه؟!».

«يا بت اعقلي...».

«لهو انا مجنونة؟».

«أبدًا... أنا اللي مجنون!!».

«سلامة عقلك!».

«حتاكلي معايا؟».

«وبعدها وياك؟».

«أنا جعان!».

«آهو الأكل قدامك!».

«وتربة النبي من غيرك ماني دايقه!».

«قولِّي اللي في قلبك!».

«تكرهي يابت اني اسرح فيكي؟!».

«طيب كُل!».

«أنا بحبك!».

«إخص عليك، كُل بقى!!».

لم تنهض هنية.. هذا حق.

واصلت الأكل وابتسمت وهدأ الحديث بيننا ورقّ... هذا أيضًا حق...

لكننا كنا نجلس فوق أشلاء حبنا... كنت أشعر وكأن شيئًا رائعًا في داخلي قد انكسر ولا مجال لإصلاحه!!

كانت رغبتي في الإفصاح لهنية عن أي شيء قد ماتت... ماتت وقلبي يرف كحمامة مذبوحة، كنت أموت تدريجيًّا، لا تدهشوا - أيها السادة - فقد كان هذا هو إحساسي، كنت أموت وأنا أتخبط في دياجير ظلام أغرق عقلي وإن لم يغرق عيني، أحسست بنفسي أنشطر إلى ألف شطر، أحسست وكأني أتمزق وأنا أزدرد الطعام بلا شهية... ماذا يحدث لو أخبرت هنية؟ سأقول لها: يا هنية أنا مش قهوجي، أنا صحفي! قد تضحك، وقد تسخر... يا هنية صدقيني وحتى اسألي المعلم «محمد»! ستدهش، ستخاف، ستقول: بتكدب عليَّ!! وسأرد: يا هنية الأفندية اللي قاعدين في القهوة دول أصحابي، الدكتور ده صاحبي... والتلاتة...

«حاترجع تسرح تاني يا براهيم؟!».

لم أرد عليها، رفعت إليها عيني ولكني لم أرها...

«مالك يا براهيم... إيه اللي جرى لك تاني؟!».

لم أعد أمضغ، ولم أعد آكل، ولم أعد أرى، وأحسست أني لا أستطيع التنفس... كل شيء حولي يسكن وتميد بي الأرض وتغلف الدنيا من حولي سحابة داكنة دثرت كل شيء وعزلتني عن العالم، اختفت الأصوات والأشياء... حتى وجه هنية لم أعد أراه... وأحسست أني وحيد!

«براهيم!».

ماذا أقول لها؟ بماذا أرد عليها؟!

«براهيم!».

ليس هذا هو اسمي يا هنية... ليس هذا هو اسمي...

«المعلم محمد حيسأل عليك!».

هو ليس معلمي وهو لا يستطيع لي شيئًا...

«أنا قايمة... أنا راجعة!».

حتى القدرة على الكلام فقدتها... إني أفقد كل شيء في هذه اللحظة... كل شيء... ولا مفر!

ومضت ساعة، وربما دقيقة، أو حتى ثوانٍ... لست أدري...

انجابت السحابة عن الدنيا من حولي، وبدأت الأشياء تتضح لعيني... كانت السماء فوقي داكنة، والنجوم هناك، بعيدة، بعيدة... غسلت وجهي نسمة صيف دافئة، وأحسست برغبة حارقة في البكاء.

«وكنت أجلس وحدي بعد أن مضت عني هنية...

لا أحد معي...

عيناي تجوسان في الظلام والشارع، لم أر بجواري سوى حذائي مع بقايا طعام لم يؤكل... وهنية ليست هناك...

كانت قد اختفت.

- 18 -

أيها السادة...

ها قد وصلنا إلى النهاية، وليس عندي بعد ذلك شيء لأقوله ولأدلل به على كذبي... لقد وجدت نفسي وحيدًا في شارع الخليج، أتلفت حولي في ضياع بعد أن اختفت هنية، لم يكن أمامي سوى العودة للدرب من جديد، لم يكن أمامي طريق سوى هذا، دسست قدمي في حذائي لكن لم أستطع الحركة لدقائق... لم أكن أريد العودة في الواقع، فلماذا أعود؟! وما الذي أريده من هؤلاء الناس؟ وماذا أقول لهم؟ ماذا أقول؟

لكني بالرغم من ذلك عدت إلى الدرب، كان من المستحيل أن أختفي هكذا فجأة.. رحت أجرجر قدمي في طريق العودة وكأني أحمل على كتفي أطنانًا من الهم، وعندما وصلت إليه كان الظلام قد لفه تقريبًا، كانت الحلوانية قد أغلقت دكانها واختفت، وكان عمران قد أوصد مكتبته، وشبح المعلم كامل يبدو لي من بعيد وهو يذوب عند نهاية الدرب، وخلفه تمامًا رأيت المعلم فتح الله وزوجته، وكانت هنية هناك... وكانوا جميعًا يذوبون فيما خلف الجامع من ظلام دامس...

لحظـة وراء لحظـة ولم يعد فـي الدرب سـوى أضواء مقهى أبـو النجا الكائن عند ناصية عطفة النيدي، لا حس ولا صوت ولا زيطة ولا أحاديث هامسة فقد أظلمت النوافذ والشرفات واختفت النسوة والفتيات... وما إن اقتربـت مـن المقهى حتى سـمعت صوت صديقي عادل يزعـق بكل ما فيه من انفعال:

«مفيش حل غير كده... العضو الفاسد يجب بتره!!».

بالرغـم مـن ذلك كانـت رءوس أصدقائـي ملتوية نحو مدخـل الدرب ترقـب عودتي، في عيونهم نظرات تبـرق وتتطلع والتماثيلجية في مكانهم حيـث تركتهم، لم تتبدل جلسـتهم ولم يتغير فيها سـوى أنهـم كانوا يبدون لعينـي أكثر اقترابًـا من بعضهم البعض والتصاقًـا... تعلقت عيناي بالطرف الآخر من الدرب حيث اختفت هنية... لكنها كانت حلمًا وانقضى، فخفق قلبي بالحنان... راودتني نفسـي في اللحاق بها، ولكن هيهات أيها السادة، هيهات أن نحلم من جديد، كانت قد ذهبت وانتهى الأمر...

صـاح محـروس - وكان لا يـزال جالسًـا - فانـداح صوته فـي الدرب الساكن كالنغم الحزين:

«براهيم يا براهيم يا نوارة الحتة!!».

حاولـت اغتصاب ابتسـامة لكنـي لـم أسـتطع، كنت موقنًـا أن اللعبة قد انتهت... وأن هنية قد اختفت، وأنها لن تعود...

بدا لي الدرب قفرًا لا حياة فيه، المعلم محمد غادر مكانه خلف النصبة ووقـف ببـاب المقهى وصـوت الوابور قد كف فتـرك مكانه فراغًـا عميقًا،

كسكون شديد الأسن... ومحروس ينهض وهو يلملم أطراف جلبابه ثم يلقي بها إلى كتفه وهو يدلف إلى العطفة صائحًا من جديد:

«تصبح على خير يا براهيم... إبقى بدَّر بكرة!».

والمعلم ممدوح وحسن الصغير يجمعان المقاعد والموائد، وأصدقائي يحملقون في وجهي بدهشة وتطلع... وعادل يهمس بصوت متلعثم:

«يالله بينا بقى يا ابني... إنت ناوي تبات هنا واللا إيه؟!».

وهمس سمير وهو ينهض:

«تعالوا نستناه على الناصية، بلاش حد يعرف اننا معاه!».

«حسابك كام يا سي زفت؟!».

وذكرت لعادل حسابي، فأخذ يعد النقود وهو يهمس مقتربًا مني:

«إنت عملت إيه في البت يا بن القديمة؟».

انقبض قلبي ونزف بالألم ولم أرد، فعاد يردد في إصرار:

«ما تتكلم وتسيبك من شغل الاستهبال ده!!».

أحسست بالغثيان لكني تمالكت نفسي وتناولت منه النقود وتمتمت بكلمات لم أعْنِها، ثم انتقلت إلى حيث كان التماثيلجية وكانوا يجمعون من بعضهم ثمن البيرة، والأسطى فاروق يخاطبني من مكانه متثائبًا في راحة:

«إنت ساكن فين يا براهيم؟!».

«في الجيزة يا اسطى... في الجيزة!».

قلتها بصوت خافت ونبرة مرتعشة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أقول فيها الصدق، ففاجأني الأسطى عبد السلام قائلًا:

«عال... نبقى نروح سوا يا براهيم!».

وقال الأسطى فاروق:

«قلت إيه يا براهيم... نستناك في الورشة بكرة؟».

وصـاح المعلـم محمد ضاحكًا وكان يتسـمع للحديث مـن بدايته وهو يرقب النقود بشراهة.

«جرى إيه يا أسطوات، إنتوا حتاخدوا الصنايعي بتاعنا واللا إيه؟!».

وابتسـم الجميـع وضحكوا، ثم تحـرك التماثيلجية نحـو الطرف الآخر للدرب، والأسطى عبد السلام يردد بصوت واثق خفيض:

«أنـا مسـتنيك علـى الناصيـة يـا براهيـم... علشـان نتفـق علـى بكـرة كمان!!».

ولم أرد عليه، رحت أعد النقود وأسلمها للمعلم ممدوح... و...

ومضت - أيها السادة - دقائق أغلقنا فيها المقهى، وكان المعلم محمد يقول:

«جاي بكرة يا براهيم؟ من النجمة، مش كده؟!».

ووجدتني أقول على الفور وبلا تردد:

«لا يا معلم...».

توقف ممدوح عن عد المال ورفع نحوي رأسه دهشًا...

«لا إزاي؟!».

«كفاية كده!!».

قلتها في اقتضاب، فتعلق حسن بطرف الجلباب وهو يقول:

«النبي تيجي بكره يا عم براهيم!».

التماثيلجية عند طرف، وأصدقائي عند الطرف الآخر للدرب... هؤلاء في انتظاري، وأولئك أيضًا في انتظاري... والنقاش لا يطول، ويكف حسن عن إلحاحه وهو يراني أخلع الجلباب فيبدو من تحته البنطلون، طلبت القميص من المعلم محمد فجاءني به في صمت وحزن... «ليه كده بس»... سلمته الجلباب وأعطيته الطاقية ووقفت قبالتهم وجهًا لوجه وقال المعلم ممدوح وهو يدس المال في جيبه دون عد:

«برضك محكم رأيك؟!».

«كفاية كده يا ممدوح... كفاية!».

وقال المعلم محمد وهو يطفئ النور فيسود الظلام...

«إيه اللي حصل بس؟».

ولا أرد.

ويعود إلى الحديث بنبرات تقطر أسًى:

«إنت باين عليك تعبت من أول يوم!!».

وتذكرت ساعتها فقط أن عشرين ساعة مضت منذ جئت إلى الدرب في الصباح، دسست أصابعي في شعر حسن الذي كانت عيناه تبرقان في الظلام في غير فهم أو تصديق... كان لسانه قد ألجم تمامًا وهو يراني بالقميص والبنطلون، وواصل المعلم محمد إلحاحه:

«لولا الملامة كنت قلت لك استنى معانا على طول!».

ابتسمت ومددت له يدي مصافحًا دون كلمة، فاندفع يضمني إلى صدره في قوة، ثم قبلني قائلًا:

«**إبقى افتكرنا يا أستاذ!**».

وكانت فـي عينيه دموع لم يحاول إخفاءها، ورحت أقاوم اندفاع الدمع مـن عينـي وأنا أصافـح «ممدوح»، وأقبل «حسـن»... ومضـى بهم الركب فاختفوا بدورهم في الظلام، وكنت لا أزال وحدي، أمام المقهى، والدرب كلـه خـالٍ... ليس هناك سـوى قطة تموء بجوار الحائط، وفأر يفر من شـق إلـى آخـر في هدوء وطمأنينـة وكأنه يؤدي زيـارة عائليـة... انتابتني الحيرة للحظة وتنفست ملء صدري وأنا أمسح دمعي المنهمر!

وزعق الأسطى فاروق من طرف الدرب: «**يا براهيم**»...

وزعق عادل من الطرف الآخر: «**يا صالح!!**».

ولم يطل ترددي أيها السـادة... وجدت نفسي أتجه نحو أصدقائي دون كلمة...

وكان واضحًـا أنهـم لا يزالـون يتناقشـون وأنا فـي الطريـق إليهـم، كان واضحًا أنهم يدورون في نفس الحلقة المفرغة... فقد سمعت «عادل» قبل أن أصل إليهم بعدة خطوات يصيح في انفعال مخمور:

«**ده عضو فاسد يجب بتره... يجب بتره!!**».

«تمت»

أحدث إصدارات

الأستاذ

صالح مرسي

- زقاق السيد البلطي، رواية.
- دموع في عيون وقحة
رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- الصعود إلى الهاوية
رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- السجين، رواية.
- البحار مُندي وقصص من البحر.
- نساء في قطار الجاسوسية، رواية.
- الكذّاب، رواية.
- الخوف ، (مجموعة قصصية).
- السير فوق خيوط العنكبوت.
- رحلات السندباد البري.
- خطاب لرجل ميت.
- قاتلة باردة الأعصاب.

رواية

الكداب

في ثوانٍ - أيها السادة - كنت قد أصبحت أقف أمامها وجهًا لوجه، وكانت هي تبتسم في خجل، وكنت أنا أبتسم في جسارة وكل منا يقترب من الآخر ومن الناس حتى التصقنا بالناس وببعضنا البعض في نفس الوقت... وسط الزحام والحركة وانشغال الجميع... امتدت يدي لتأخذ يد هنية لتذوب في كفي ذوبانًا... وكلانا يشرئب بعنقه وكأنه يتابع ما يجري وسط اللمة! كيف حدث كل هذا الذي حدث؟ ...كيف؟

لا أدري...



Bibliotheca Alexandrina
12240567

6 221133 349086



